NOVEL

عواد علي

حليب المارينز

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية- 2010
ر.أ: 2010/6/2783
المؤلف: عواد علي- العراق
iSBN 978-9957-30-097-5

الناشر: دار فضاءات للنشر والتوزيع
عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 – 962+)
هاتف جوال: 0777/911431
ص. ب 925846 عمان 11190 الأردن
dar_fadaat@yahoo.com
www.fadaat.com

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي:
فضاءات للنشر والتوزيع

□ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

□ الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبّر بالضرورة عن رأي دار **فضـــاءات للنشـــر والتوزيـــع**

عواد علي

حليب المارينز

روايـــة

دار فضاءات

عمّان 2010

عشتار

مع إطلالة أبريل انهمر الربيع على أوتاوا دفعةً واحدةً، فتفتحت في حدائقها ملايين من زهور التولِب. ألوانها الساطعة، وأشكالها الشبيهة بقلوب مفتوحة تبعث في النفس بهجةً غريبةً.

في فصل الشتاء المثلج الكئيب تتحوّل المدينة، طوال خمسة أشهر، إلى ما يشبه الإسطبل، تتكدّر شوارعها من الوحول والمطبات الثلجية والأمطار المنجمدة، وتغدو الطبيعة سجادةً بيضاء كبيرةً، ذات إيقاع واحد، لا تكسر رتابته إلاّ الطرق الملتوية السوداء كأنها أفاعٍ أسطورية ليس لها نهاية.

مكثتُ ساعةً أو أكثر في تقليم العشب الذي استطال في الحديقة الخلفية، وحين أطفأتُ الماكنة، وسكن هديرها المزعج كان طنينها لا يزال في أذني. استلقيتُ على ظهري لأرتاح قليلاً فوقع بصري على غراب ضخم ذي عينين متوترتين كعيني هرٍّ جائع بين أغصان شجرة القيقب العملاقة، فتذكرتُ على الفور أبياتاً من قصيدة أحبها:

«أيها الطائر، أو أيها الشيطان

ارجع من حيث جئت، إلى العاصفة

أو إلى شواطئ الظلام..
لا تترك منك في هذا المكان أثراً،
ولا ريشةً سوداء تذكر بإفكك المفترى..
عُد ودعني لوحدتي، اترك التمثال فوق باب حجرتي
انتزع منقارك الذي غرسته في قلبي، وابتعد عني..»

أخذ الغراب يركز نظره على بيتنا، ويحرك منقاره في حركة دائرية، فشعرت برعدة تسري في جسدي، وانتابني القلق، رغم عدم إيماني ببشارة الشؤم التي يجلبها هذا الطائر النحس. التقطت حجراً ورميته به فلم أصبه، لكنه طار بعيداً مخلِّفاً في أعقابه وريقات فاقعة الخضرة لم يكتمل نموها بعد، وهو ينعق بصوت غائم متهالك كأنه صوت بوق أثري.

عدت إلى الداخل فوجدت سامراً، على غير عادته في مثل هذا الوقت من النهار حينما يكون في إجازة من العمل، قد ترك الانترنيت في مكتبه وجلس في الصالة. راقبته من شبّاك المطبخ فإذا به يحدق بذهول إلى التلفزيون. دفعني الفضول إلى الوقوف أمام الباب، الذي يفضي إلى الصالة، فسمعت مراسل الفضائية يتحدث، لاهثاً، وكأنه خرج تواً من ماراثون طويل.

عقب مرور ساعة على إسقاط التمثال رأيت سامراً يخرج بعض الأوراق، ويشرع في الكتابة، وما إن انتهى حتى عرض عليّ المقالة لقراءتها، فذهبت إلى المطبخ لإعداد فنجان قهوة يعيد إلى رأسي توازنه الذي أفقده هدير الماكنة. بدأت بالقراءة، بعد احتساء قهوتي، وفي داخلي تساؤل يكاد يقفز إلى طرف لساني: ما جدوى الكتابة عن حدث صاعق، مزلزل شاهده العالم كله حياً مباشراً بكل تفاصيله؟ لكني لم أشأ أن أسأله كي لا أثبط من عزيمته، رغم اختلافي معه في وجهة نظره، فأنا كنت أنتظر هذا السقوط بأية طريقة، أما هو فكان يفضّل أن يزاح، بطريقة ما غير دموية، من الداخل.

في الليلة التي تلت دخول المارينز بغداد انهالت علينا المكالمات التلفونية من أصدقائنا في غرب كندا وشرقها وجنوبها: فانكوفر، أدمنتون، هاليفاكس، مونتريال، سانت جوزيف، تورونتو، هاملتون، وفي أميركا وأستراليا والسويد وهولندا وألمانيا... وحيثما توجد بلاد في قارات الأرض يقيم فيها عراقيون لاجئون ومهاجرون، إضافةً إلى أصدقائنا في أوتاوا. كلهم أمطرونا بالأسئلة نفسها، وكأننا من جنرالات الحرب. الوحيدة التي تكلمت معنا في موضوع مختلف تماماً هي صديقتنا آنيا. كانت تتحدث بحزن عميق، وتكاد تختنق بعبراتها وهي تنقل إلينا خبر مقتل أخيها جون، الذي غامر بالذهاب إلى

بغداد، دون أن يخبر أهله، قبل بدء الحرب ببضعة أيام. حين سألتها كيف عرفت ذلك قالت إن صديقه، الذي سافر معه ونجا من الموت، هو الذي اتصل بها من بغداد، وأخبرها بكل شيء. وأضافت آنيا، وهي تجهش بالبكاء:

– كان مهووساً بميزوبوتاميا، وظن أنه يدافع عنها فانطلت عليه اللعبة... يا إلهي لماذا قُتل في أرض نحب أهلها كلّ هذا الحب؟

قلت لها:

– لو أن تلك الأرض تحمل قلباً لانفجر من كثرة الدماء التي سُفكت عليها..

– كان أشبه بشاب شرقي في علاقته بوالديّ، على العكس مني تماماً.. يا إلهي كيف سأخبرهما بمقتله وهما في رحلة استجمام إلى دبلن؟ المسكينة أمي ستصاب بصدمة شديدة أخشى عليها من نتائجها.. يا يسوع ما كان عليه أن يصدق، ويسافر إلى الجحيم دون أن يعلمني.. كان يعشق مغامرات السفر والاكتشاف ويعد نفسه ليكون عالماً أثرياً بعد تخرجه في الجامعة.

– أنا وسامر أيضاً صُدمنا يوماً ما هناك..

حوّل الخبر الفاجع سهرتنا إلى ما يشبه المأتم، وتذكرت وأنا أسمعه ذلك الغراب العين، وظل سامر يشرب كأساً تلو أخرى.

قبل أن يأوي إلى النوم في الثالثة فجراً قال متثائباً محمر العينين:

– يا له من يوم حافل بالأحداث!

فأجبته:

«أتساءل: عن سر طائر الشؤم هذا؟

الطائر العجوز المنكود القاسي، ماذا يعني

وهو ينعب فوق رأسي: لا عود..؟»

كان يجب أن أستيقظ في الثامنة من صباح اليوم التالي لإيصال سومر وسميرميس إلى المدرسة بدلاً من سامر، لكن نومي المضطرب والمتقطع، بسبب الأحلام المزعجة التي سقطت على رأسي، منعني من الاستيقاظ قبل العاشرة، ولم أستطع أن أتذكر إلاّ حلماً واحداً، ربما كان الأخير في ترتيبه: رأيت السماء ذات يوم، وأنا في سن صغيرة، مجللةً بغيوم سود قاتمة، تتجه بسرعة فائقة صوب الشرق، في حين تتجه ظلالها على الأرض عكس اتجاهها إلى الغرب، فتعجبت من الأمر وناديت أبي لرؤيتها، وما إن خرج من غرفته ووقع بصره عليها حتى أصيب بالعمى فجأةً، فطلب مني أن أقوده إلى سطح الدار ودموعه تنهمر على شعري كأنها حبيبات مطر ربيعي ناعم، لكنها لزجة كالصمغ. وقفنا على السطح، وظلّ أبي ممسكاً بكتفي وأنا أتطلع إلى الأفق كأنني أنتيغونا وهو الملك التعيس أوديب.. بعد دقائق

فوجئت بظهور عربة عملاقة في السماء تسحبها عشرات الجياد المجنحة، وعلى ظهرها رجل كهل يحمل سوطاً يمتد إلى عشرات الأمتار، ويسوط كتل الغيوم التي تفر أمامه مذعورةً مخلفةً وراءها فحيحاً يملأ الفضاء الشاسع أشبه بفحيح الأفاعي. وحين عادت الشمس إلى سطوعها اتضح أن تلك الغيوم لم تكن إلاّ خفافيش ضخمةً تداخلت أجنحتها بعضها ببعض فبدت كأنها كتل من الغيم الأسود. ذلك ما عرفته من أبي الذي عاد إليه بصره مع اختفاء آخر خفاش من سماء المدينة.

لم أقصص حلمي على سامر في ذلك اليوم، رغم القلق الشديد الذي أصابني، لئلا يقول لي، كعادته، «أحلامك السريالية لا تنتهي يا عشتار... بالله عليك ألا تشبه لوحات سلفادور دالي؟». ودفعني قلقي إلى محاولة الاتصال مراراً بمن تبقى من أهلي في البصرة لأطمئن عليهم، لكنني فشلت، فاضطررت إلى الاتصال بأمي المقيمة في الكويت لعلّ قربها إلى البصرة مكّنها من الحصول على بعض الأخبار عنهم، لكني وجدتها أكثر قلقاً مني، وزادتني هموماً ببكائها، وطلبت مني أن أحث سامراً على إيجاد وسيلة ما للاستفسار عن أخي وأطفاله، فقلت لها إن سامراً قلق أيضاً على أهله في كركوك، فأخذت تصب لعناتها على كل شيء.

حملت إلينا القنوات الفضائية مساء ذلك اليوم أنباءً متضاربةً، بعضها صحيح وبعضها الآخر مفبرك، لكن أكثر ما أثار خوفنا، أنا وسامر، هو خبر اغتيال إحدى الشخصيات الدينية الذي سيفتح باباً جهنمياً يصعب إغلاقه، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى مداواة جروحنا. وراح سامر يبحث في الانترنيت عن تفاصيل عملية الاغتيال، فعثر في اليوم التالي على تقرير نشرته إحدى الصحف، واستنسخه ليفيد منه في كتابة رواية فكّر في كتابتها عن الأيام العصيبة التي سيعيشها البلد، ثم أخذ يقرأه لي بصوت شابته نبرة حزن... وسألني بغضب:

– هل أعجَبكِ ذلك؟

– لقد كنتَ مصيباً في مخاوفك.. إنها بداية لمآسٍ مقبلة لا يعلم مداها إلاّ الله.

علّقت على تساؤل سامر، ورحت أفكر بكتابة قصيدة لمعت فكرتها في رأسي، فخرجت إلى الحديقة عند الغروب، وشرعت في صياغة مقطعها الأول:

«كأني أحلمُ:

أنّ عيلام تفيض على بابلَ من عتمتها

وخراسانَ جدار حجري بين فراتين قتيلين

ودجلةَ غارق في فجيعته
ليس يعرف أين يمضي
هل إلى مأتمٍ في الكرخِ
أم إلى مقبرةٍ في الرصافةْ ؟»

حين انتهيت منه عرضته على سامر، فأعجب به كثيراً، ودعاني إلى المضي في كتابتها، فعدت ثانيةً إلى مكاني، وكتبت مقطعاً ثانياً، فثالثاً، وخلال أقل من ساعتين أنهيت المقطع الرابع.. أعدت قراءته أكثر من مرة فأحسست بأن القصيدة قد اكتملت به، ولا تحتمل أن أضيف إليها شيئاً:

«كأني أحلمُ:
أن عيلامَ خرزةٌ في جيد بابلَ
والفراتَ ينبع من رحم خُراسانَ
ودجلةَ منفيٌ في كنساسَ
فلا نهرٌ
ولا ضفةٌ
ولا قطرةُ ماءٍ
ولا الرصافةُ خلف ظهر الكرخِ
ولا الكرخُ خلف ظهر الرصافةْ »

لم يبقَ إلاّ أن أجد لها عنواناً، ورحت أفكر بالكوابيس التي ستهشم رؤوسنا إذا ما تسللت عيلام بالفعل إلى شوارعنا، وفرش مريدوها طريقها بالزهور.. وسرعان ما قفز العنوان إلى رأسي.

سامر

فاجأني تغيّر موقف عشتار، وأثارت قصيدتها في نفسي بعض المخاوف الغامضة، فكأنها بمجازاتها تكشف عما وراء العيان... كيف استولى عليها هذا الهاجس المدمر؟ ماذا لو صدقت كوابيسها وأصبح البلد مثل عيلام المعتمة؟ أليس البلد الذي لا يستطيع الإنسان أن يمارس فيه حريته هو بلدَ كفر كما يقول المعتزلة؟ أيعقل بعد كل هذا الانتظار الطويل، الموجع، الدامي أن يصبح مصيرنا بين أيدي حفنة من الأوباش والغرباء المعادين للحياة، يتحكمون بنا، ويسوقوننا كالخراف إلى هوّة سحيقة؟ هل صبرنا كل هذه السنين العجاف، ونحن نحلم بالحرية، من أجل هذا؟ إنني أفضّل ألف مرة أن أظلّ مغترباً على أن أعيش مثل بهيمة في تلك الهوّة المظلمة.. سنوات أخرى ستقضم مما تبقى من حلم عودتي، بل ربما ستلتهمه كله. غادرت وأنا في الثانية والثلاثين من عمري، والآن في منتصف العقد الرابع. ما إن دبّر لي صديق سعودي خطةً للهرب من مخيم رفحاء للاجئين العراقيين في بلاده، وتلك قصة طويلة، حتى وجدت نفسي بعد بضعة أيام في الساحة الهاشمية في عمّان.

كنت قد وضعت هدفين لخروجي من الجحيم: الحرية، والبحث عن علاج لضمور كُلييتي الولادي الذي لم يكتشفه الأطباء، لسوء حظي، إلاّ وأنا في العشرين حينما أجريت، أول مرة في حياتي، فحصاً طبياً شاملاً تمهيداً لقبولي في الجامعة. بقيت متخفياً في عمّان أكثر من ثلاثة أشهر إلى أن عثرت على شاب مفلس يتقن التزوير فعالج جواز سفري. وحين أصبح وجودي قانونياً في البلد استطعت أن أحصل بطريقة ما على تأشيرة دخول إلى قبرص، فأمضيت فيها بعض الوقت محرراً في مجلة عربية تصدر هناك، ومنها توجهت عبر البحر إلى بيروت التي كنت أحلم بزيارتها منذ أيام الدراسة الثانوية، فقد كانت تعني لي فضاءً للحرية والجمال، وفيروز التي أعشق صوتها، والبحر الذي تتشمس على بلاجاته الفتيات المتحررات بأجسادهن الطرية، متناسياً الحرب الأهلية التي كانت تسرق وهجها، وتحولها شيئاً فشيئاً إلى فضاء من رماد.

ذهبتُ إلى بيروت، وقد أخذتْ تستعيد عافيتها ببطء بعد ثلاث سنوات على اتفاق الطائف الذي وضع حداً لتلك الحرب المجنونة. دخلتها من بوابة البحر فشعرت كأنني أستعيد طريق أوديسيوس إلى إيثاكا، هارباً من الحيوانات الخرافية التي أتعبته، لكن أوديسيوس كانت بانتظاره بنيلوب الصابرة، أما أنا فمن سيكون بانتظاري؟

كنت قد حصلت على عقد عمل بصفة محرر في إحدى الصحف اليومية بتوصية من ناشر لبناني معروف سبق أن نشر لي كتابين، لكن رئيس التحرير لم يكتفِ بعملي محرراً في القسم الثقافي، بل أوكل إليّ مهمة تدقيق بعض الصفحات أيضاً مقابل مرتب شهري بخس، فاضطررت إلى الاتصال بالناشر، وعرضت عليه أن أقوم بتدقيق بعض منشوراته في البيت، وهو في الحقيقة ليس بيتاً، بل شقةً صغيرةً ذات غرفة نوم واحدة كنت أسكن فيها مع شابين عراقيين، أحدهما رسام كاريكاتير يعتاش من التخطيطات التي يعملها للسواح، والثاني متخصص في الفلسفة يعمل عتالاً في الميناء، فوافق الناشر على العرض، وصار يعطيني خمسة آلاف ليرة على الملزمة، فكنت أدقق في الليلة الواحدة ملزمتين أو ثلاثاً. وقد أتاح لي هذا العمل أن أحصل على دخل إضافي، وقراءة بعض الكتب قبل صدورها. في الأشهر الأولى لوجودي في بيروت كنت أشعر بنوع من الحرية في التنقل والعمل لأن إقامتي المؤقتة كانت رسميةً شأني شأن أي سائح دخل البلاد بتأشيرة أصولية، لكن المشكلة بدأت مع انتهاء مدة تلك الإقامة، وذهبت سدىً محاولتي الأولى مع مكتب الأمم المتحدة للحصول على حق اللجوء، ولولا تعرفي على إلهام لظلت المشكلة تؤرقني طوال السنتين اللتين قضيتهما في بيروت، مثلما تؤرق

عشرات الآلاف من العراقيين الهاربين إلى مدن الإخوة العرب وقراهم الفسيحة!

كانت إلهام، وهي تشبه آنيا إلى حد ما، امرأةً من نوع نادر بين النساء، عمرها ستة وعشرون عاماً حين صادقتها، لكنها كانت تبدو، لرقة أنوثتها، وصفاء بشرتها أقل من عمرها بأربع أو خمس سنين. انفصلت عن زوجها بعد مرور شهرين على زواجهما. تقول إنها أخطأت في اختيارها بسبب تسرعها، إذ اكتشفت أن له ميولاً مثليةً مع شاب يوناني أملط يعمل نادلاً في أحد الفنادق الراقية، وكان يسهر معه أكثر من مرة في الأسبوع، ويدفع له بسخاء، ويتركها وحدها في الشقة. تعرفت إليها، أول مرة، حين جاءت إلى الجريدة حاملةً معها قصةً قصيرةً كتبتها عن تجربة زواجها الفاشل من تاجر الأقمشة، ملمحةً فيها، بغموض شديد، إلى ميوله المثلية. كنت يومها وحدي في القسم لانشغال المسؤول في اجتماع مع مدير التحرير، فرجتني أن أقرأها في الحال لأنها متلهفة إلى سماع رأيي فيها حتى لو كان قاسياً وحاداً كالسكين، فاستجبت لها على الفور، وفي داخلي هاتف يصرخ «أحمق من يرد طلباً كهذا لامرأة ساحرة مثلك»، واحتسينا في أثناء قراءة القصة فنجانين من القهوة، ثم جلسنا ساعةً كاملةً نتحدث عنها. وكانت خلاصة رأيي فيها أنها قصة

جريئة في موضوعها، لكنها ضعيفة فنياً لأسباب أوضحتها لها، فاقتنعت بها، ودعوتها إلى إعادة كتابتها كي تصبح صالحةً للنشر، فاعترفت لي بأنها كتبتها في جلسة واحدة خلال الليلة السابقة، و لم تراجعها نهائياً. وحين نهضت إلهام للخروج صافحتني بحرارة، فشعرت بملمس يدها الناعمة كالحرير يبعث في نفسي رغبةً عارمةً في احتضانها وتقبيلها. وقبل أن تغلق الباب وراءها قالت لي بابتسامة هزت كياني «عندما أنتهي من إعادة كتابتها سأتصل بك كي تقرأها لي في مكان خارج الجريدة»، فقلت لها وأنا أكاد أطير من الفرح «تكرم عينك... أنا جاهز في أي وقت...»، وشتمت ذلك الزوج الأرعن الذي يكفر بنعمة ربه، فيترك هذه الظبية، ويجري وراء فطيسة!

في ظهيرة اليوم الثاني صحوت بعد عشتار بساعتين، أيقظني لغط سميرميس وسومر، فخمنت أن سلطان النوم كبس على عينيها أيضاً، فمنعها من إيصالهما إلى المدرسة. بقيت مستلقياً على السرير، وأخذت أفكر في أهلي، وأتساءل عما إذا عادوا إلى البيت أم أنهم مازالوا في القرية التي لجأوا إليها هرباً من القصف. خشيت على أخي إبراهيم أكثر من أخي ساهر، فهو يعمل مهندساً في شركة النفط التي تعدّ من المواقع الخطرة خلال الحرب، أما ساهر فهو مدرس

فنون، ولا أحد يحتاج إلى وظيفته في مثل هذه الأيام، وله موهبة عجيبة في التملص من الواجبات القسرية التي تفرضها السلطة على المدنيين حينما تتهددها المخاطر.

ملأتني جريمة الاغتيال التي حدثت في النجف ذلك اليوم غمّاً، ورحت أبحث عن تفاصيلها، وحين عثرت عليها خشيت أن تكون بالفعل بدايةً لمآسٍ مقبلة لا يعلم مداها إلاّ الله، كما قالت عشتار. وبقيت متكدراً طوال النهار. في المساء اتصلت بدلشاد، صديق الطفولة في قلعة كركوك، الذي انتقل مع أهله إلى السليمانية في منتصف السبعينيات، ثم تركها وجاء قبلي إلى كندا لاجئاً، ودرس الموسيقى، وانضم إلى فرقة في أوتاوا. وكنت قد كلّمته يوم أمس حول ما جرى في بغداد، فوجدته، كعادته، متحمساً للأمر. لكني ضحكت وغيرت مجرى الحديث معه، واقترحت عليه أن نلتقي في مطعم (افروديت) اليوناني في (بانك ستريت)، إلاّ أنه فضّل أن نذهب إلى نادٍ ليلي تعمل فيه إحدى صديقاته، وقال لي إن فيه عارضات يقدمن عروضاً مثيرةً. كنت لا أحب ارتياد مثل هذه النوادي، لكن دلشاد ألحّ كثيراً على اصطحابي إليه، مؤكداً أنه المكان المناسب جداً لوضعي النفسي في ذلك اليوم، فوافقت على مضض ورافقته. كان اسم النادي (طائر البحر)، فقلت لدلشاد إنه اسم

احدى مسرحيات تشيخوف، وسألته إن كان قد شاهدها أو قرأها، فابتسم وأجابني بأنه يحب هذا الاسم لأنه تعرّف على حبيبته شيرين التي أخفى عني، لسبب ما، حادثة موتها، خلال عمله في هذه المسرحية قبل ثمانية عشر عاماً، ومضى يسرد لي ذكرياته معها...

ناديت نادلةً سمراء خلاسيةً نحيفةً تنتقل بخفة بين طاولة وأخرى، وطلبت منها أن تجلب لنا زجاجتي بيرة، فهرعت إلى الداخل وعادت في لمح البصر حاملةً زجاجتين نديتين ووضعتهما أمامنا، وهي تتأملني باستغراب كأنني قادم من كوكب آخر، وحين رفعت رأسي وابتسمت لها همست في أذن دلشاد ببضع كلمات دون أن تزيح نظرها عني، ففهمت أنها تعنيني بهمسها، ثم انصرفت عنا وهي ترجّ خصرها بتصنع، فسألت دلشاد إن كانت هذه هي الفتاة التي يعرفها، فهزّ رأسه نافياً، وخمّنت أن فتاته ربما تكون متغيبةً الليلة، أو أنها لم تأتِ بعد.

التفت دلشاد إلى باحة الرقص، حيث بدأت المصابيح الملونة المسلطة عليها تومض كالبرق، وتوقف صوت الموسيقى الصاخبة لتحل محلها أغنية: *(Make love whenever you can)* بانتظار دخول إحدى العارضات لتباشر بخلع ملابسها، وتهييج غرائز الحضور بمفاتن جسدها، وحركاتها. قلت لدلشاد «يبدو أن قدرنا

نحن العراقيين حتّم علينا أن نعيش أصنافاً عجيبةً من المآسي، لكنني أغبطك على تشبثك الجنوني بالحياة».

وثبت عارضة سمراء ذات قوام فارع، وشعر قصير يكسوه البريق إلى باحة الرقص من بين ستارة مخملية، فافترعت الصخب الذي كان يملأ الصالة مثل سهم أطلقه فارس قروسطي، فخنس الجميع، وأغلبهم ذوو ملامح شرقية، كتلاميذ صغار دخل عليهم معلمهم فجأةً، وأخذوا يعدلون مقاعدهم ليكونوا في مواجهتها، متلهفين، يستولي عليهم شبقهم، لرؤية الأجزاء الحساسة من جسدها. أشار دلشاد بإصبعه إليها ففهمت أنها الفتاة التي تربطه بها علاقة ما، وقال:

– أتعرف من جعلني أتشبث بشكل جنوني بالحياة؟ الموسيقى أولاً يا صديقي، فهي التي تمنحني القوة.. وتحوّل الحزن في داخلي إلى نوع من الطاقة الروحية التي لا تقهر.. والنساء ثانياً..

قلت:

– لنشرب إذاً نخب فتاتك الجميلة...

فقال:

– ستجلس معنا بعد أن تنتهي من تقديم عرضها.

– يبدو أنها من أميركا اللاتينية؟

– اسمها أورسيلا.. أبوها من البيرو وأمها من كولومبيا، لكنها مولودة هنا في مونتريال.

خيّم علينا الصمت، وأخذنا نتابع أورسيلا التي شرعت في انتزاع آخر قطعة من ملابسها الداخلية، وهي تتلوى مثل أفعى حول عمود نابت وسط الباحة، وقد اختفى وميض المصابيح الملونة، وحلت محله بقعة ضوء حمراء إمعاناً في إثارة غرائز الحاضرين، الذين بدأ بعضهم بالزحف شيئاً فشيئاً إلى حافة الباحة، التي تشكل نصف قوس رصفت عليه مصابيح خافتة مدفونة تحت زجاج على شكل نجيمات صغيرة هي الحد الفاصل بين عارضة الستربتيز والمتلهفين إلى رؤية تقاطيع جسدها عن كثب. كانت أورسيلا تزيح بأطراف أصابعها لباسها الداخلي البكيني بحركة بطيئة، ثم تعاود رفعه، وتعقد ساقيها حول العمود، وتترك جذعها يتدلى إلى الخلف مثل عنقود عنب. مرونة جسدها توهم بأنها دون عظام، تماماً مثل دمية بلاستيكية طرية. قلت في نفسي «يبدو أنها بدأت حياتها لاعبة جمباز، وحين اعتزلت صارت عارضة ستربتيز». وقد صدق تخميني عندما اعترفت بذلك وهي تجلس إلى طاولتنا بعد انتهاء عرضها.

طلب دلشاد كأساً من شراب (الشيري) الاسباني الذي تحبه أورسيلا، وزجاجتين من البيرة لنا، ورحت أمازحها:

– علمت أن أمك من كولومبيا وأباك من البيرو.

– هل تعرف البيرو؟

– أعرف شاعرها الكبير قيصر باييخو، وروائيها المعاصر ماريو فارجاس لوسا المرشح القوي لجائزة نوبل.

– توجد في مكتبة أبي رواية لهذا الأخير اسمها (موت في جبال الأنديز)، لكني لم أقرأها.

– أعتقد أن باييخو مولود في إحدى بلدات هذه الجبال.

– وأبي أيضاً..

غادرنا النادي برفقة أورسيلا بعد انتهاء السهرة. كنا نشعر بالجوع، فاقترحت أن نتعشى في أحد المطاعم العربية المنتشرة في بانك ستريت، ووقع اختيارنا على مطعم (شاورما الفرح). جلست أورسيلا إلى جانب دلشاد في المقعد الأمامي، وجلست أنا خلفها مباشرةً، عبرنا شارع دلهوزي، وسلكنا شارع الريدو باتجاه بانك ستريت، كان وسط المدينة هادئاً بعد الواحدة ليلاً، سيارات قليلة تجوب الشوارع في مثل هذا الوقت، فلا تشعر بأنك في عاصمة غربية، رغم موسم الربيع، فأغلب المحلات التجارية تغلق أبوابها في التاسعة مساءً، فيلجأ الناس إلى بيوتهم مبكرين، عدا يوم الأحد، فهي تغلق في الخامسة، عادةً، استعداداً لبداية أسبوع جديد من العمل،

ومن يريد أن يتبضع بعد الخامسة لا يجد أمامه إلاّ بعض المحلات العربية أو الإيرانية أو الباكستانية، إضافةً إلى محطات الوقود الذاتية، وبعض فروع محلات (ماكس) و(بيكرس) ومطاعم البيتزا والهمبرغر التي تفتح أربعاً وعشرين ساعةً. وفي مثل هذا الوقت تكثر سيارات الشرطة لمراقبة السائقين الذين يتجاوزون الحد المسموح به للسرعة، أو تناول الكحول.

صدمتني الأيام الأولى لوصولي إلى أوتاوا، بسبب هذا الهدوء الذي يخيم عليها في الليل، وكنت أردد مع نفسي، أو أقول لعشتار: «يا لهذه المدينة العجيبة؟ أهي عاصمة بالفعل؟ أية عاصمة هذه التي تنام مبكراً كالدجاج..؟ أين منها صخب العواصم الغربية مثل لندن وباريس وروما... و... و... و...؟». في القاهرة يسهر الناس في المقاهي والشوارع والملاهي حتى الصباح، وفي عمان، التي كنت أحسبها مدينةً خاملةً في الليل، كان باستطاعتي أن أشتري زجاجة خمر من وسط البلد الساعة الحادية عشرة، ومن سوق السيف وَي الساعة الثانية عشرة، في حين لا أجد هنا حلاً، في مثل هذا الوقت، إلا بالعبور إلى مدينة (هول) الصغيرة الملاصقة لأوتاوا لأشتري من أية محطة وقود فيها ما أحتاج إليه من كحول، كونها تابعةً لولاية (كبيك) ذات الأغلبية الفرنسية التي يختلف نظامها عن نظام ولايتنا

(أونتاريو). وقد نويت أكثر من مرة، في السنة الأولى لوصولي، أن أنتقل إلى هذه المدينة، لكنني كنت أتراجع دائماً لأننا كان يجب أن نبدأ بتعلم اللغة الفرنسية من الصفر، وهذا ما كنت لا أطيقه، رغم الإغراءات التي يوفرها نظام الولاية للمهاجرين الجدد، كانخفاض بدل إيجارات الشقق والمنازل، وزيادة عائدات الضرائب التي تمنحها الحكومة للأطفال.

انعطف دلشاد إلى بانك ستريت، وقد أصبح أكثر حذراً في قيادة السيارة. كثرة إشارات السير فيه، بسبب تقاطعه مع شوارع أخرى، ترغم السائق على تركيز انتباهه طوال الوقت. إنه من أهم الشوارع التجارية وأقدمها في المدينة، تترامى على أطرافه، من جهة بدايته، بنايات مرتفعة ذات واجهات زجاجية يقابلها على الجهة المحاذية للنهر مبنى البرلمان الضخم ذو الطراز القوطي، ولولا هذه البنايات لما صدق أحد أن هذه المدينة عاصمة فدرالية لدولة مترامية الأطراف، يختلف توقيت ساحلها الشرقي على المحيط الأطلسي بثلاث ساعات عن ساحلها الغربي على المحيط الهادي. كان الشارع أكثر حركةً من شارع الريدو لوجود بعض المطاعم اللبنانية والنوادي الليلية والبارات فيه، وكثرة البوهيميين والمشردين على أرصفته، حيث يتسللون في الليل من بوابة المبنى الحكومي المخصص لهم إلى الشوارع، وأغلبهم

شبان وشابات تركوا بيوت أهلهم، مفضلين حياة التشرد، وتناول المخدرات، واستجداء المارة، لكن قلما تصادف في هذا الشارع أناساً ثملين يترنحون.

طلبت أورسيلا صحنين من الشاورما لها ولدلشاد، أما أنا ففضلت صحناً من المشاوي المشكلة مع اللبن والسَلَطة. كان المطعم خالياً من الزبائن، عدا صوماليين اثنين يرطنان بلغتهما دون توقف، وامرأة ذات سحنة آسيوية في منتصف العقد الثالث من عمرها، يبدو عليها من ملابسها الفاضحة، ومكياجها المبالغ فيه، وحركاتها الماجنة أنها بائعة هوى من النوع الرخيص، وشابٍ طويل الشعر، دميم الشكل، ذي شفتين غليظتين مطليتين باللون الوردي الفاقع، ويتدلى من أذنيه قرطان حلزونيان، وهو يلتفت، بين لحظة وأخرى، إلى الصوماليين، ويؤشر لهما بغنج يفوق غنج عشر نساء مجتمعات، لكنهما لم يكونا يعيرانه أي اهتمام، فلم يستطع دلشاد أن يمنع نفسه من التعليق عليه «هذه القذارات أكثر ما تنفرني في هذا البلد.. هل ثمة حيوان يفكر بامتطائه؟ لابد أن يكون من صنف الحمير..». وكان يدخل بين حين وآخر إلى المطعم أحد سائقي التاكسي ليشتري سندويشة، ويمضي إلى حال سبيله بعد أن يرمق بائعة الهوى بنظرة فضولية. ومعظم الذين دخلوا من أصحاب هذه المهنة هم،

عادةً، من اللبنانيين، أو من فئة (البدون) الذين كانوا مقيمين في الكويت، فخرجوا منها خلال الحرب السابقة، ومُنعوا من العودة إليها فيما بعد.

أردت أن أستأنف الحديث مع أورسيلا عن البيرو، فسألتها إن كانت قد زارتها، قالت:

– لا.. لم أزرها، لكني أتمنى أن أزورها، وخاصةً خلال مهرجان الدم الذي يقام فيها سنوياً.

نظر إليّ دلشاد بدهشة، ثم سأل أورسيلا، مستنكراً:

– تقيمون مهرجاناً للدم في جبالكم؟ أعوذ بالله..

فهمت أورسيلا مغزى سؤاله، فأسرعت إلى القول:

– إنه احتفال سنوي باندحار الغزاة الاسبان اسمه (ياوار فيستا)، أقيم أول مرة قبل هزيمة ملك الأنكا على يد الغزاة الاسبان. وبعد ثلاثة قرون من الحكم الدموي استعادت البيرو استقلالها، وجرى نقل موعد المهرجان إلى اليوم الذي يصادف فيه الاستقلال. وخلال المهرجان يشارك نسر أميركي في مصارعة غريبة للثيران. وتكون ذروة المهرجان دمويةً بكل ما في الكلمة من معنى، إذ يقومون بخياطة أقدام نسر أميركي بظهر ثور، ويلجأ النسر إلى ضرب الثور بمنقاره الحاد محاولاً تخليص نفسه، في حين يقوم الثور الهائج بالدوران حول

حلبة مؤقتة. وفي اليوم الأخير من المهرجان يُطلق سراح النسر ليحلق عالياً في السماء. وهكذا يضمن السكان محصولاً جيداً، وشموخاً مستمراً لروح الأنكا. وكان هذا النزال في الماضي نزالاً حتى الموت، أما في هذه الأيام فإنه لا يستمر سوى بضع دقائق مع تزايد وعي القرويين وتعاطفهم مع الحيوانات..

– وماذا يمثل النسر الأميركي في هذه الأسطورة؟

سألتُ أورسيلا، فقالت:

– يمثل رسول الأنكا الإلهي إلى آلهة الجبال الأخرى، ويرمز إلى سكان البلاد الأصليين، ولا يزال الكثيرون يعتقدون بقواه الإلهية.

– والثور؟

– يرمز للغزاة.. ولهذا تجد النسر هو المنتصر..

تذكرت أسطورة إيتانا والنسر البابلية فقلت لها إننا عندنا أسطورة عن النسر والثور أقدم من أسطورتهم اسمها (إيتانا والنسر)، تدور أحداثها فى الأزمان الأولى عندما كان الآلهة يقومون بمهمة خلق الجهات الأربع، ويضعون مخططاً لبناء أول مدينة للبشر هي مدينة كيش... وحين انتهيت من رواية الأسطورة قالت أورسيلا مبهورةً:

– يا لها من أسطورة فظيعة..

ثم اختلست نظرةً إلى الشاب الدميم الذي لم ينقطع عن إيماءاته إلى الصوماليين، وأضافت:

– لكن نسركم يبدو إرهابياً على العكس من نسرنا!

قلت:

– مثل ثوركم الإرهابي تماماً.

فضحكت، وضربت كفها بكفي..

كانت الساعة تشير إلى الثانية والربع حينما أوصلني دلشاد إلى منزلي في سان لوران، ومضى مع صديقته ليبدآ سهرتهما الخاصة في شقته ببيشور. وجدت عشتار نائمةً فلم أستطع أن أسألها عن آخر أخبار الوضع هناك، ولم تكن عندي رغبة في تصفح الانترنيت، فتفقدت غرفة نوم سومر وسميرميس، وغيرت ملابسي واستلقيت، وأخذت أفكر بدلشاد وأورسيلا، فقادتني ذاكرتي إلى صديقتي اللبنانية إلهام، التي انقطعت أخبارها عني بعد أشهر من مغادرتي بيروت إلى عمان. لقد قضيت معها سنتين رائعتين من عمري قبل أن أتعرف إلى عشتار.. تذكرت اللقاء الثاني الذي جمعنا، كان يوماً ماطراً شديد البرودة تتخلله عواصف تهب بين حين وآخر من جهة البحر.. وكنت أشعر بوخزات ألم في كُليتي أرغمتني على ملازمة الفراش طوال النهار. اتصلت بي بعد مرور يومين على لقائنا الأول

في مبنى الصحيفة، وأخبرتني، وهي تكاد تطير من الفرح، أنها أعادت كتابة قصتها، وترغب في أن نلتقي مساءً كي أقرأها، فأسرعت إلى تناول حبة مسكن إضافيةً، واحتسيت علبتي بيرة لعلهما تساعداني في إيقاف الألم.. جاءتني إلهام بسيارتها البيجو الفرنسية الحديثة، مرتديةً فستاناً كستنائياً يغطيه معطف فرو فاخر، ووضعت على رأسها قبعةً ذات ملمس ناعم بلون شعرها النحاسي الغامق، فبدت كأنها ذاهبة إلى سهرة أرستقراطية. وشعرت بالخجل لأنني كنت أرتدي بدلةً كحليةً مستعملةً اشتريتها منذ مدة طويلة، وبلوزةً زرقاء ذات رقبة، مع معطف مطري يصل إلى ركبتي، فكان منظري في المرآة أشبه ببعض الممثلين في أفلام الستينيات!

دعتني إلهام إلى مطعم إيطالي في أحد فنادق شارع الحمراء، ورحت أقرأ القصة على أنغام الفصول الأربعة لفيفالدي، وكلما انتهيت من قراءة صفحة واحدة من صفحاتها السبع أخذت جرعةً من النبيذ الفينيسي المعتق، فتسارع إلهام إلى دس قطعة لحم في فمي، بعد أن تنتزعها من العود الغاطس حتى النصف في إناء الزيت الذي يغلي أمامنا. إنها أكلة العشاق، كما يسمونها، لأن من يطلبها عليه أن يضع قطعتين من اللحم فقط في كل مرة داخل الزيت، وينتظرهما

حتى تنضجا، ثم يقدم واحدةً للمرأة التي تجلس معه، ويأخذ الثانية له. وهكذا يستغرق تناول هذه الوجبة ساعتين أو أكثر.

حين انتهيت من قراءة القصة وضعت إلهام يدها على قلبها، وأغمضت عينيها كطفل ينتظر هديةً مفاجئةً، فأطبقت براحة كفي على يدها الثانية، وقلت لها إنها قصة جميلة مختلفة فنياً تماماً عن تلك التي قرأتها قبل يومين، وسأرشحها للنشر، ففتحت إلهام عينيها، وانفرجت أساريرها، وفاجأتني بقبلة ساخنة على خدي خمنت معها أن الليلة لن تمضي بسلام مع هذه المخلوقة التي اقتحمت حياتي الرتيبة بغتةً. وقد شجعتني تلك القبلة على دعوتها إلى حلبة الرقص، حيث بدأ عدة أزواج يرقصون مع الإيقاع الهادئ لموسيقى حالمة، وأجسادهم متلاصقة، فاحتضنتها بجوع حقيقي، وراحت أصابعي تتسلل إلى خصلات شعرها الناعم المنسدل على ظهرها، ويضغط صدري على ثدييها النافرين، وأنا أتخيلهما ينبضان كفرخين مفزعين يملآن كفي. واعتقدت أننا شُحنّا بما فيه الكفاية لقضاء ليلة هائئة أعوض بها عن الجفاف الطويل الذي ضربني، لكن الأمور سارت على عكس ما اشتهيت، فقد قادت سيارتها، بعد خروجنا من المطعم، عبر الشارع نفسه الذي يؤدي إلى شقتي، وحين وقفت أمام باب العمارة ودعتني بقبلة ثانية، وأخبرتني بأنها اختارت ذلك الفندق

بالذات لنسهر فيه لأنه المكان الذي كان يتردد عليه زوجها، وكانت تتمنى أن يراها معي تلك الليلة، فشكرتها على الدعوة، ووعدتها بأن أردها لها في أقرب فرصة، ووقفت أمام بوابة العمارة، ولوحت لها بيدي متحسراً، ثم طمأنت نفسي قائلاً «لا تبتئس يا سامر، فأول الغيث قطرة».

وضعت عشتار ذراعها على صدري، وهي تتفوه بكلمات غير مترابطة، فقطعت دفق ذكرياتي مع إلهام، وأيقنت بأنها غارقة في حلم سريالي. وقبل أن يدركني النعاس شعرت بوخزة ألم في كُليتي فتناولت حبة مسكن، وبقيت أتقلب في الفراش إلى أن خفّ الألم، ثم غفوت.

عشتار

فُجِعنا، أنا وسامر، في اليوم الثالث، من مشاهد النهب والسلب التي عمّت المدن كلها بصورة أشد فظاعةً مما حدث في مارس قبل اثني عشر عاماً.. كم تألمنا ونحن نشاهد الخراب الذي حلّ بالمتحف بعد أن سُرق منه ما سُرق، وتحطم ما تحطم في قاعاته ومخازنه من الكنوز الأثرية، ورحنا نتساءل بمرارة «هل يعي الجياع والحالمون بالثروة من لصوص التجمعات السكنية العشوائية بشاعة الجريمة التي ارتكبوها؟ من ذا الذي يضمن استرجاع قطعة أثرية واحدة إذا بيعت لتاجر في نيويورك أو روما أو بوينس آيرس...؟ ماذا نقول لأحفادنا في المستقبل؟ أنقول لهم إن أجدادكم استباحوا رموز حضارتكم في لحظة ضعف، وغفوة ضمير، وغياب وعي، وباعوها بأبخس الأثمان؟ وهل كان هدف المتسللين من الأطراف، ووراء الحدود ذوي الوجوه الثعلبية هو تحقيق الثروة أيضاً، أم دفعهم حقدهم الأسود، ورغبتهم في الانتقام، إلى إعادتنا إلى العام صفر، وتهشيم ذاكرتنا الجمعية، وتحويلها إلى صفحة بيضاء يسهل على الطارئين استبدالها بذاكرة جديدة؟».

لقد هزّ ذلك اليوم، وما تلته من أيام، كياننا، وضربنا في الصميم. وكانت الوحيدة التي أدركت مغزى ذلك الحزن هي صديقتنا الرسامة روزا، لأنها سمعت بالأخبار أيضاً، وأصابها ما أصابنا من إحباط. وفاجأتني بأن إحدى القطع الأثرية المسروقة هي الموناليزا السومرية التي سبق لها أن استثمرت شكلها في لوحة من لوحاتها، وأن وقع صدمة فقدانها في نفسها قاسٍ جداً لأنها لا تعوض بثمن. وكيف تعوض وهي واحدة من أقدم الرسومات لوجه امرأة في العالم؟ ثم راحت روزا تعدد لي أسماء قطع نادرة أخرى من بين عشرات الآلاف من القطع المسروقة مثل: زهرية الوركاء المقدسة، وهي زهرية نذرية مصنوعة من حجر الجير عمرها ثلاثة آلاف سنة، وربما تكون أهم نفائس المتحف، والنسخة النادرة من التوراة، ولوحات تمثل سبي اليهود في العصرالبابلي!

ومثلما أفزعتني صورة البلاد، وهي تتقاذفها أمواج الشمولية الدينية، فكتبت عنها قصيدةً كابوسيةً، فإن صورتها وهي تُنهب، ويُطفأ ضوءها استولت على ذهني، ودفعتني دفعاً إلى كتابة قصيدة ثانية أسميتها (اللقطاء) أثارت إعجاب سامر أيضاً، وخاصة ذلك المقطع الذي يقول:

«هل كان عدلاً أن تموت بلادي التي.....

وينهب اللقطاءُ بذرتها،
ومفاتيحَ طفولتها
لتحيا خلف غيومها:
أنصافُ بلادٍ
وأشـــــباهُ بلادْ؟»

حفزته القصيدة، هذه المرة، إلى كتابة مقالة غاضبة بدا فيها على غير ما اعتاد عليه من مقالات ثقافية هادئة، لكنها الضرورة، كما قال. وربما كان محقاً فيما فعل، فهَول الكارثة يفلق الصخر، ألا يكفي ما عشناه من نكبات وحروب ودمار حتى يأتي من يسرق ذاكرتنا؟

مرةً أخرى اتصل بنا أصدقاؤنا أنفسهم، لينقلوا لنا مشاعرهم الغاضبة تجاه ما يحدث، ويعبّروا عن حزنهم، الذي يعصر قلوبهم، وهم يشاهدون الخراب، وكان بعضهم يشتم قائلاً:

– أولاد القحاب والسحاقيات.. يقولون إنهم ذهبوا لتحريرنا، لكنهم كانوا يتفرجون كالدمى على المهزلة...

وأرسل أحد أصدقاء سامر في الدوحة رسالةً إلكترونيةً في اليوم التالي ذكر فيها معلومات تفطر القلب عن بعض القطع الأثرية

المنهوبة، وخاصةً قيثارة أور المصنوعة من الذهب، وتعود إلى أربعة آلاف سنة، وألواح حجرية منقوش عليها كتابات مسمارية، منها أول كتابة عرفها الإنسان على وجه الأرض، وتماثيل لملوك حكموا بلاد الرافدين في عصور تاريخية متعاقبة، ومسبحات وقلائد تعود إلى عهود السومريين والأكديين.

يا لها من جمعة حزينة.. بدلاً من أن يذهب هؤلاء الدهماء إلى الجوامع في هذا اليوم المقدس، ويسعوا إلى ذكر الله، ويذروا البيع، ليحمدوا ربهم، ويترحموا على موتاهم، ويرفعوا أيديهم إلى السماء داعين أن يصفي قلوبهم، ويحل السلام والطمأنينة في بلدهم، ويعجل من خروج القوات المحتلة من أرضهم... بدلاً من ذلك يحملون فؤوسهم ومعاولهم، ويدفعون عرباتهم، ويمتطون حميرهم وسياراتهم متجهين إلى ما حرّمته الشرائع والقيم الإنسانية من سلب وحرق وتدمير، وكأنهم كانوا يحلمون بهذا اليوم حتى ينقضوا كالجراد على الأخضر واليابس، مغطين، عن جهل أو تدبير، على الثعالب المتربصة على الحدود بانتظار هذه الفرصة لاستباحة ما هو ثمين ونفيس في خزائن البلد.

أنستنا هذه الأحداث المفجعة أننا كنا مدعوين في ذلك اليوم إلى بيت صديقتنا رشيدة أمزيان، وزوجها يشار أرسلان. ويبدو أنهما

كانا مطمئنين إلى حضورنا فلم يؤكدا على الموعد، رغم أنهما وجها لنا الدعوة قبل أسبوع من بدء الحرب، وأغريانا بطبختين شهيتين. ولا أدري كيف تذكر سامر الموعد بعد انتهائه من طباعة مقالته، فهاتفني وأنا في طريقي من المدرسة إلى البيت. عند الساعة الثالثة والربع كنا عند مضيّفينا في أورلينز، سالكين الطريق السريع لاختصار الوقت. حاولنا ونحن نطرق الباب أن نبدو طبيعيين لئلا ننكد عليهما فرحة وجودنا معهما، خاصةً أننا تعرفنا عليهما حديثاً، وهما يصغراننا سناً، وربما كانا غير معنيين كثيراً بالهموم التي نحملها أنا وسامر. رشيدة لم تبلغ الثلاثين بعد، نحيلة، طويلة الرقبة، دقيقة الأنف، لها غمازتان جذابتان، أمازيغية من مدينة خنيفرة المغربية التي يحلو لها أن تسميها عروسة الأطلس لطبيعتها الخلابة، وجبالها الشاهقة، ونهرها الحالم أم الربيع. تحمل شهادةً جامعيةً في الزراعة، ولذلك تفننت في تنظيم حديقة بيتها، وزرعت في أطرافها، إلى جانب الزهور، بعض أنواع الخضار والأعشاب، وهي التي ساعدتني في ترتيب حديقة بيتنا أيضاً، وتتحدث اللهجة العراقية بطريقة هجينة لأنها تعلمتها أصلاً من زوجها التركماني الذي يتحدث بها بلكنة واضحة، وهو أكبر سناً منها ببضع سنوات، وقد هرب إلى تركيا سيراً على الأقدام، كما قال، بعد تخرجه في الجامعة عام 1996

متخصصاً بالجغرافيا، ومن هناك وصل إلى ليبيا عن طريق البحر، فعمل مدرساً في أحد معاهدها، لكنه لم يطق الحياة الجافة فيها، فتركها بعد أشهر دون أن يحصل على مرتباته، ودبر طريقةً للدخول إلى المغرب، وكان ينوي الذهاب إلى اسبانيا، ومنها إلى بريطانيا، لكنه لم يستطع تحقيق حلمه، فاستقر سنتين في خنيفرة، تعرف خلالها إلى رشيدة وتزوجها، ثم حصل على اللجوء مثلنا فجاء بها إلى أوتاوا قبل خمس سنوات.

كانت طبخة يشار التي أراد أن يفاجئنا بها هي الرز المحشي في الكرشة مع رأس الخروف (الباچه)، وقد أضاف إلى الرز لحماً مثروماً ولوزاً وصنوبراً وبعض البهارات. قال إنه تعلمها من مطبخ أمه في كركوك، وهي من أشهر الوجبات التي يفضل التركمان تقديمها لضيوفهم. ورغم أنني سبق أن تناولتها في بيتنا بالبصرة فإن طريقة طبخ يشار لها ألذ بكثير، فأكلنا منها أكثر من (الكسكسي) التي أعدتها رشيدة. ولم يخطر لنا أنها ستفسّر ذلك بأنه انحياز إلى ابن بلدنا، وأردنا أن نجاملها ففضلنا الحلوى المغربية التي أعدتها على الحلوى العراقية. لكن لعبة الإحراج لم تنته عند هذا الحد، فاقترح يشار أن نسمع أغاني تركمانيةً وأمازيغيةً ثم نقول أيهما أفضل من الأخرى، وكأننا في سباق للثقافات، فأسمعنا شريطاً لمغنٍ تركماني

اسمه تحسين جومرد، في حين أسمعتنا رشيدة شريطاً لفرقة (أغبالو إزيان) الأمازيغية، يحوي أغانيَ جماعيةً تندرج ضمن فن شعبي يعرف بـــ (أحيدوس)، تُستقى أشعاره، كما قالت رشيدة، من الحياة اليومية التي يعيشها الإنسان الأطلسي. لقد انحزت أنا إلى هذا الشريط لأنني استمتعت بألحانه وموسيقاه الشعبية، رغم عدم فهمي للغة، فسألت رشيدة عنها، فقالت إنها تسمى (تمازيغت)، إحدى اللهجات الثلاث التي تمتد على الأطلسين الكبير والمتوسط، أما اللهجتان الأخريان فهما (تشليحت) التي يتحدث بها أهل سوس وما جاورها، و(تاريفت) التي تختص بها جبال الريف ومحيطها. ومال سامر إلى الشريط التركماني، وراح يردد معه بعض أغانيه التي تشبه المواويل العربية، وقال إن اسمها (قوريات)، وإنه يعرف المغني شخصياً. كان انطباعي عنه أنه حزين يبعث على الشجن مثل مطربنا البصراوي الراحل رياض أحمد، في حين كنت أنا في حاجة إلى إيقاعات تخفف الحزن عني، وهذا ما وجدته في الأغاني الأمازيغية التي تستخدم فيها آلة موسيقية واحدة هي البندير أو الـــ (تالونت)، ويرافقها دق على الأكف وأصوات نسائية ورجالية.

كان يشار يعمل حلاقاً في محل يملكه رجل من أصل تركي، يتقاضى ضعف ما يتقاضاه سامر، ولذلك لم يفكر بالعودة إلى العراق

على المدى القريب، بل يخطط لاستحضار أهله إلى كندا، وينوي القيام برحلة لزيارتهم حين تستأنف الرحلات الجوية إلى بغداد. كان مثلنا قلقاً عليهم، ولم يستطع الاتصال بهم، قال إنه يخشى من حدوث مذابح عرقية في كركوك شبيهة بالمذبحة التي حدثت أيام عبد الكريم قاسم، وقُتل فيها عمه، فسألته:

– هل تعني المصادمات التي جرت بين الأكراد والتركمان؟

أجاب:

– هذا ما أعنيه.. يقول أبي إن الشيوعيين قاموا بمسيرة في الذكرى الأولى لانقلاب الزعيم، وحدثت مواجهات دامية بينهم وبين التركمان، فاتهم الشيوعيون، وأغلبهم من الأكراد، جماعات من التركمان بأنهم طورانيون ورجعيون معادون للثورة، لكنه كان اتهاماً باطلاً.

تدخل سامر قائلاً:

– أدان قاسم المتهمين بتلك المذبحة، وأمر باعتقالهم وإحالتهم إلى المجالس العرفية العسكرية فحكمت عليهم بأحكام طويلة، وأرسلوا إلى سجن نقرة السلمان وسط الصحراء.

فرد عليه يشار:

– بعدما وقع الفأس في الرأس وقُتل من قُتل، وسُحل من سُحل من التركمان..

ثم تنهد وأضاف:

– لذلك لم أصادق أي كردي في حياتي.. أشعر بحاجز نفسي بيني وبينهم.

– هذا شعور خاطئ أتمنى أن تتخلص منه.. سأعرفك إلى صديق كردي رائع اسمه دلشاد، وستحبه من أول لقاء.. إنه من مدينتنا في الأصل..

– سمعت عنه.. لكن ماذا لو اكتشفت أن والده كان أحد منفذي تلك المذبحة؟

– اطمئن.. أنا أعرف والده مثلما أعرف نفسي.. إنه فلاح بسيط كان يعيش في قرية نائية في تلك الفترة.

كنت قد قرأت بعض ما كَتب عن تلك المذبحة من وجهة نظر أطراف مختلفة، فقلت:

– لا نستطيع إلقاء اللوم على جهة واحدة فقط.. كان المناخ السياسي آنذاك يمر بمخاض عسير، والكل يريد توجيه السفينة صوب الناحية التي تحقق أهدافه. وعسى أن يتعظ الجميع اليوم من ذلك الدرس.

فلوّح يشار بيده قائلاً:

– هل تريدون الصراحة؟ إنّ الأكراد يريدون أن يبتلعوا كل شيء.. وأخشى أن تشهد المدينة بسبب ذلك أياماً عصيبةً عما قريب؟

صمت سامر فقلت:

– أنا أيضاً أخشى أن تنفجر فيها نزاعات حول هويتها، ومشاكل التوطين، والتطهير العرقي الشبيه بما جرى في البلقان..

فقال يشار:

– كل طرف يلجأ إلى فبركة أدلة وشواهد تاريخية لإثبات الهوية التي يريد أن يضفيها على المدينة..

تطلّع سامر إلى الخارج من نافذة الصالة الواسعة.. كانت شمس الربيع مشرقةً، والشارع مكتظاً بالفتيات والفتيان الذين تكشف سحناتهم عن أصول مختلفة، غربية وأفريقية وآسيوية ولاتينية، يحتضن بعضهم بعضاً، ويتبادلون القبلات احتفاءً بعيد الحرية، ثم التفت إلى يشار قائلاً:

– أنا أسخر من الهوس الشوفيني هناك.. إنه نتاج مركّب من الغباء، وأيديولوجيا الإقصاء، وغياب ثقافة التعدد.. إن العولمة اليوم يا صديقي تقضي على مفهوم الهوية بمعناها الضيق، وتشطب على الحدود الثقافية بين شعوب الأرض، فأين من ذلك تفكير هؤلاء

البائسين؟ انظر إلى هذه الدولة التي نعيش فيها الآن، إنها لوحة فسيفسائية هائلة تعيش فيها عشرات الجماعات العرقية والدينية المهاجرة من جميع أنحاء العالم، في ظل دستور يعتز بتعدد أعراق البلد، ويمنع أي صور للتمييز بسبب اللون أو الجنس أو الدين. وحفاظاً على هذا التقليد أُنشئت وزارة لتعدد الثقافات، وغالباً ما تكون على رأسها امرأة، إشارةً إلى أن كندا بمثابة الأم للجميع.. والقانون يضمن لكل الجماعات حرية التعبير عن ثقافاتها، وممارسة معتقداتها دون رقيب.. ولذلك حتى الأغلبية الفرنسية في إقليم كبيك لم تستطع أن تنسلخ عن جسد كندا، وتنسج لنفسها كياناً مستقلاً، بل ظلت، شأنها شأن الأقاليم الأخرى، جزءاً من الدولة الفدرالية.. أتعرف لماذا؟ لأن قوة الإقليم من قوة كندا...

تركنا، أنا ورشيدة، زوجينا منهمكين في رسم صور متضاربة لمستقبل مدينتهما، وخرجنا إلى الحديقة لنجتر بعض الهموم النسوية. أردت منها أن تطلعني على سرّ عدم إنجابها، ففاجأتني بأنها تعاني من مشكلة عويصة في رحمها، وتحتاج إلى وقت طويل، ربما ثلاث أو أربع سنوات، كي تتعافى منها. كانت تتحدث بنبرة حزينة أضافت طبقةً أخرى من الحزن إلى الطبقات التي تراكمت في نفسي، وتلمّح بين حين وآخر إلى خوفها من تصدّع علاقة يشار بها، وتفكر بحلول

غامضة لتعويضه عن حرمانه. لكني لم أفهم قصدها، هل كانت تشير إلى الأطفال أم إلى شيء آخر يعكّر صفو حياتهما؟

حين عدنا إلى الصالة فوجئنا بأن سامراً ويشار قد أزاحا الطاولة المغطاة بغطاء من الدانتيلا عن مكانها وتربعا على السجادة مثل قرويين مهذبين، وهما يواصلان تشريح مستقبل مدينتهما، فقالت رشيدة، بشيء من الحيادية، محاولةً الإيحاء لهما بتغيير الموضوع:

– يا ناس ليس بلدكما وحده يعاني من المصائب.. نحن أيضاً عندنا مشاكل هويتنا الأمازيغية، والبوليساريو، والفقر. الله يكون في عون الجميع.. لكنكما شوقتماني إلى مدينتكما الملتهبة.

– هي فعلاً ملتهبة، فالنار الأزلية فيها مستعرة منذ آلاف السنين..

ردّ سامر، فقلتُ مازحةً:

– لو كنتم يا أهل كركوك مجوساً لألّفت بين قلوبكم.

ساهر

يئستُ، بعد محاولات كثيرة، من إقناع أمي بالعدول عن فكرة الهروب إلى القرية حينما ستنشب الحرب، فاضطررنا، قبيل شروق شمس يوم التاسع عشر من مارس، إلى حشر أمتعتنا في سيارة إبراهيم، وسرنا خلف طابور طويل من السيارات والعربات التي تجرها البغال، تاركين خلفنا دوي الانفجارات، ولهيب الحرائق المشتعلة في الأطراف الغربية من المدينة، حيث تتوزع معسكرات الجيش الكبيرة، وقواعد الصواريخ المضادة للطائرات. كانت النيران المنتشرة على امتداد القوس الواصل بين مقر الفيلق ومعسكر خالد يضيء ظلام الأحياء المحيطة بكركوك من الجهات التي تربطها بتكريت والحويجة، فباتت النار الأزلية في بابا كركر، شمال المدينة، تبدو لي مثل قزم جَنبَ حشد من العمالقة، واختفت الظلال المتراقصة التي كانت تبعثها على التخوم الشمالية والشرقية.

بعد مضي نصف ساعة على مغادرتنا لحقتنا أسرة أختي سلوى، وأبناء أختي الكبيرة، وبعض أقاربنا. كانت تتفرع من الطريق الترابي الوحيد الذي يقودنا إلى قرية «أم الحمام» طرق وعرة كثيرة يعرج

إليها بعض السائقين للوصول إلى القرى التي يسكنها أقرباؤهم أو معارفهم، فيقصر، لحسن الحظ، طابور السيارات شيئاً فشيئاً. لكن تلك القرى التي ظن الناس بأنها ستكون أمكنةً آمنةً، فلاذوا بها تشبثاً بالحياة، لم ينج بعضها من شرور الحرب، ومنها القرية التي لجأنا إليها «أم الحمام»، وهي مسقط رأس أبي. كانت بيوتها الطينية تقبع خاملةً بين غابة، يفترعها نهير ينبع ماؤه من المرتفعات الشرقية، وتل مرتفع تحتل قمته أطلال قصر تأوي إليها طيور مختلفة أغلبها حمام بري. ولسوء الحظ وجدنا مدفعاً مضاداً للطائرات مزروعاً داخل تلك الأطلال، فكان نذير شؤم لجميع أهل القرية، والمحتمين بها من الموت مثلنا، فقررنا، بعد ستة أيام على مكوثنا فيها، أن نعود أدراجنا خوفاً من أن تخطئ إحدى الطائرات، فتقصف القرية بدلاً من ذلك المدفع. وحدث ما خفنا من حدوثه بالفعل، فقد انحرف، ذات يوم، صاروخ أهوج عن مساره، وأصاب مدرسة القرية، التي لجأت إليها عدة أُسر، فأوقع مجزرةً كان من بين ضحاياها اثنا عشر طفلاً! وبعد ساعتين هجم أهل القرية على المدفع، ودفعوه إلى السفح ليتحول إلى حطام، وتتناثر أجزاؤه، ثم دفنوا في مكانه الجثث المتفحمة..

انقطعتُ عن الذهاب إلى العمل طوال أيام الحرب، في حين عاد إبراهيم إلى عمله بعد أسبوع، رغم توسلات أمي له بأن لا يغادر

البيت. وتركت أختي سلوى منزلها في حي تسعين المجاور لمبنى المخابرات، وأقامت معنا بعد رجوعنا من «تل الحمام». كنا نتوقع أن يقصف ذلك المبنى في أية لحظة، ولذلك هجر الكثيرون من جيرانه منازلهم، وحين عادوا إليها بعد توقف القصف وجدوا أن اللصوص لم يتركوا شيئاً من أثاث الموسرين منهم. وكما حدث في الحرب السابقة فقد هبّ أهل المدينة إلى الأسواق، وتبضعوا ما يزيد عن حاجتهم لسنة كاملة، أو أكثر، من المواد الغذائية التي يمكن تخزينها، رغم أنهم تركوا أغلبها في بيوتهم، وحملوا ما استطاعوا أن يحملوه إلى القرى التي آوتهم. واستغل التجار وأصحاب الدكاكين تلك الهبّة ليضاعفوا أسعار موادهم، ويكسروا ظهور الفقراء. لكن هؤلاء كانوا لهم بالمرصاد حينما تهدم جدار الخوف، وسقطت هيبة الدولة قبل ثلاثة أيام، فخرجوا على عرباتهم، متأبطين معاولهم وفؤوسهم، وانهالوا على عدد كبير من مخازن أولئك التجار، وحطموا أبوابها، بعد إفراغ مخازن الحكومة أولاً، ونهبوا محتوياتها.

أذهلني، مثلما أذهل غيري، الانهيار السريع والمفاجئ لكل شيء، ففي صبيحة اليوم التالي لاحتلال بغداد استسلمت المدينة عقب مقاومة هزيلة غير منظمة، و لم أسمع عن حصول مواجهات عسكرية حقيقية إلاّ في مناطق قليلة، منها حامية ليلان الواقعة على بعد

عشرين كيلومتر جنوب شرق كركوك، عندما حاولت قوات خاصة أميركية، ومقاتلون من البيشمركة السيطرة على المنطقة التي تشكل معبراً استراتيجياً، كما يقولون. كانت تتحصن فيها سرية مشاة لم تسمع بأنباء سقوط العاصمة حتى لحظة المواجهة ظُهر يوم العاشر من أبريل! وقد كثرت الأقاويل والتفسيرات حول هذا الانهيار، وكان أغرب تعليق سمعته عنها هو تعليق جارنا الأرمني آيدنجيان، فقد قال، بعد احتساء نصف قنينة عرق محلي، «دعك من هذه الترهات.. السبب الحقيقي ضائع مثل ضرطة في سوق الصفارين.. نخبك يا جاري! ».

حين سمعت إذاعة صوت أميركا تعلن النبأ أدركت أن كلّ شيء انتهى، ولا يفصلنا عن سقوط مدينتنا سوى ساعات. وفي صباح اليوم التالي خرج آلاف الناس من بيوتهم، وفي نفس كل واحد منهم غاية ما. ورغم إصرار أمي على بقائي في البيت تسللت خفيةً، وتوجهت إلى وسط المدينة، فقادتني قدماي، لا إرادياً، إلى الساحة الكبيرة التي ينتصب فيها تمثال الرئيس، مرتدياً العقال والعباءة العربية التقليدية. وجدت، في طريقي إليها، الشوارع التي كانت خاليةً من الحركة قبل يوم واحد، تغص بأجناس مختلفة من الناس والسيارات والعربات والدراجات، انهمك بعضهم بنهب كل ما تقع عليه يده

من أوراق نقدية، وقطع أثاث، وأجهزة كهربائية، ومواد غذائية واستهلاكية، وانشغل بعضهم الآخر بإطلاق الهتافات والزغاريد والرصاص، وإحراق صور الرئيس. وأكثر ما استفز مشاعري تمزيق الأعلام المرفوعة على المباني الحكومية، واستبدالها بخليط من أعلام أُخر. وكانت تمر أحياناً سيارات مكشوفة محملة بالشبان والصِبية ذوي الجباه المعصوبة بخرق ملونة تشير إلى الأحزاب التي يؤيدونها، وهم يلوّحون بصور لزعمائها، وبأوراق كبيرة رسمت عليها، بالأقلام الزيتية والألوان المائية، ثلاثة أعلام في آن واحد، هي أعلام أميركا وبريطانيا وكردستان. لقد ألفيت نفسي فجأةً وسط مناظر، وتصرفات متنافرة، انفجرت كقنبلة موقوتة، يجمعها انهيار حاجز الخوف الذي كان قائماً قبل أربع وعشرين ساعة: فرح، وسلب، وحرق، وغناء، ورقص، واستفزاز، وتحطيم، وهتافات، وإطلاق نار، وعربدة، وفوضى، وشغب... شعرت في لحظات تأمل واستبصار أن الذين يقومون بأعمال غوغائية، وأغلبهم من المحرومين والجياع والمهمشين، يمارسون تفريغاً نفسياً في سلوك جمعي أقرب إلى الطقس السحري، يوحدهم في لاشعورهم هدف أن لا يبقوا أثراً لمن كان يظلمهم، فوجدوا في ما يفعلونه أبلغ وسيلة تشفي غليلهم.

وصلت بعد ساعتين إلى الساحة التي قصدتها، فإذا بها ملغومة بعشرات المدنيين والمسلحين، وقد تسلق عدد من اليافعين التمثال، وهم يلفون الحبال حول رقبته وذراعه المرفوعة، في حين توزع عند قاعدته رجال من أعمار مختلفة، وانهالوا عليها تهشيماً بالمطارق والفؤوس. وخلال أقل من ساعة أسقِط التمثال الضخم على الأرض ليصبح أشلاء يركلها المتشفون والحانقون الذين أنهكت حناجرهم بهتافات تسخر من صاحبه، أو تعبر عن نقمتهم الشديدة عليه، ورفع بعضهم فوق رأسه رايةً بيضاء كتب عليها بالانجليزية *Thank you USA*. كنت أتطلع إليهم وفي داخلي إحساس مفجع بأن أغلبهم من تلك الشريحة الانتهازية التي صنعته...

سلكت في أثناء عودتي إلى البيت شارع أطلس لأنعطف من نهايته إلى شارع الجمهورية، فصادفت جمهرة من الأشخاص يتصايحون حول جثة رجل، بملابس عربية جنوبية، مرمية على الرصيف أمام بوابة السينما، التي تحمل اسم الشارع، وعلى مقربة منهم عجلة عسكرية أميركية محملة بجنود يحاولون التفاهم معهم بإشارات مبهمة، ويردون على صياحهم بتوجيه بنادقهم إلى صدورهم. ظننت، أول وهلة، بأن أحد هؤلاء الجنود أطلق النار على ذلك الرجل لسبب ما، وأن الرجال المحيطين بجثته يحتجون على قتله،

لكن فضولي دفعني إلى السؤال عن الحادثة، فرأيت شيخاً وقوراً يفترش الرصيف المقابل لمبنى السينما، وأمامه جريدة مفتوحة وضع عليها إناءً بلاستيكياً أبيض في داخله بضع أوراق نقدية. كتمت استغرابي من خروجه إلى الشارع للاستجداء في مثل ذلك اليوم، وتوجهت إليه، ووضعت ورقة خمسمائة دينار في إنائه، ثم أخرجت علبة سجائري من جيبي، وقدمت له سيجارةً، ووضعت الثانية في فمي، لكنه شكرني بكلمات مهذبة قائلاً إنه لا يدخن. أول مرة في حياتي أصادف شحاذاً يعتذر عن أخذ ما يُقدّم له! استأذنت منه بالجلوس إلى جانبه، فرحّب بي وكأنه يدعوني إلى الدخول إلى بيته. كان يتكلم بعربية فيها عجمة خفيفة لا تكاد تحس بها، فلم أستطع أن أتبين منها، أو من ملابسه، ما إذا كان عربياً أو كردياً أو تركمانياً، خاصةً أن الكثيرين من عرب المدينة المولودين في الأحياء المختلطة، ومنهم أقرباء لي، يتكلمون لغتهم بعجمة. بقيت صامتاً أراقب ما يجري أمامي، وبعد لحظات هبط ثلاثة جنود من عجلتهم، وأمسكوا بشاب ملتح غامق البشرة، كان أكثر المتجمهرين صراخاً، ولووا ذراعيه خلف ظهره، ودفعوه بعنف إلى داخل العجلة، وهو لا ينفك عن شتمهم بلهجة أهل الحويجة. وشعرت بأنني ربما أكون التقيته سابقاً، أو أعرفه معرفةً سطحيةً، وحاولت أن أعصر ذاكرتي

فلم أفلح في تذكّره. وبينما بدأ الجمع ينفضّ عن المكان جاءت سيارة إسعاف، وحملت الجثة، فلحقت بها عجلة الجنود. التفتُّ إلى الشيخ، وسألته:

– هل تعرف من قتله؟

فسألني:

– أأنت من أهل المدينة؟

– جدي وأبي من قرية مجاورة، وأنا مولود هنا.. لكن لَمَ هذا السؤال؟

– لو كنتَ غريباً لما أجبتك.

– وها أنا قد أخبرتك.

– بارك الله فيك يا ولدي.. اسمع مني إذاً هذه الحكاية، واستنتج مَن يكون القاتل، ومَن القتيل.. في قديم الزمان، قدِمت أسرة كبيرة، من الأسر الرحالة، لم يُكتب تاريخها، و لم يدوَّن في الصحف اسمها، ورمت أثقالها على سفح تل يقع على ضفاف نهر هادر، وسكنت مطمئنة البال، وفرحت لتوفر الماء والكلأ لمواشيها. أسندت ظهرها إلى ثالث التلال المطلة على النهر، وطاب لها العيش في أرضها الجديدة.

ذات يوم فكّر رب الأسرة ببناء قرية يستقر فيها أولاده، فجمعهم ليشاورهم في الأمر. استحسن الأولاد الفكرة، فقسمهم إلى أربع جماعات، وأمر كل واحدة منها أن تسير مسيرة ربع يوم صوب الاتجاهات الأربعة، وتضع علامةً في المكان الذي تصل إليه، فأنجز الأولاد الأمر، وعادوا إلى أبيهم. وفي اليوم التالي طلب منهم الأب أن يشيدوا سوراً من الطين يوصل بين العلامات التي ثبتوها ليكون أساساً لقريتهم، ثم انفرد بابنه البكر وأسرّ له سراً. شرع الأولاد بالعمل، وحين انتهوا من حفر الأساس وقف الأخ البكر وطلب من إخوته، طبقاً لأمر والدهم، أن يختاروا واحداً منهم لينشروا دمه على الأساس قرباناً للآلهة، ثم يدفنوا جثته تحت السور. أجروا القرعة فوقعت على شقيقهم الأصغر. لكن الطفل أخذ يبكي بحرقة، ويتوسل إليهم بأن لا يذبحوه، فرقّت قلوب أشقائه وحنت، واحتار الأخ الكبير ماذا عساه أن يفعل، وفيما هو غارق في التفكير أقبل إليهم من بعيد شخص غريب. انتفضوا كلهم، وكأن القادم هبة هبطت عليهم من السماء، وهجموا عليه وذبحوه، ونثروا دمه على الطين، ودفنوا جثته في الأساس، ثم بنوا عليها السور.

فرح الأب لإنجاز أولاده ما أمرهم به، لكنه اندهش واغتمّ لعودة أبنائه جميعاً سالمين دون نقصان، وسألهم، بألم وحدّة، عمن دفنوه في

الأساس، فأجابه الابن البكر بأنهم شاهدوا غريباً قادماً إليهم، فذبحوه ودفنوه في الأساس بدلاً من أخيهم الصغير الذي وقعت عليه القرعة. عندئذ بكى الأب بكاءً مريراً، وحزن حزناً شديداً، فاستغرب الابن البكر، وقال لوالده إنهم أكملوا بناء السور، ورجعوا إليه سالمين فلِمَ البكاء والحزن؟ فأجابه الأب: «يا بَنِيَّ لقد وهبتم بفعلكم الخاطئ خيرَ هذه القرية للغرباء.. ستشقون وتتعبون وهم يجنون ثمار جهدكم، وسيحسدونكم ويحاولون طردكم منها».

شكرت الشيخ على حكايته، وودعته، ورحت أفكر في مغزاها لعلي أمسك بجواب على سؤالي..

سامر

كان يوم الجمعة آخر أيام إجازتي. مرت بسرعة البرق في زحمة انشغالي بالأحداث والكتابة، وسهرتي مع دلشاد، ودعوة يشار.. خمسة أيام لم أذق فيها طعم الراحة إلاّ قليلاً، ولم تخل في بعض الأحيان من نوبات مغص مؤلمة في خاصرتي، رغم أنني طلبت الإجازة من عملي المضني لأرتاح بضعة أيام. لقد أحزنني تأجيل رحلتي إلى الهنود الحمر.. لكنه الموت مرةً أخرى.. آمل أن تتحقّق في أول الصيف.. ربما ستكون شبيهةً برحلة جلجامش بحثاً عن عشبة الخلود. وفي محاولة منها لتخفيف حزني اقترحت عشتار أن نقوم بسفرة قصيرة إلى مونتريال، وأقنعتني بأننا لم نرها من فترة طويلة، وأنني مدين لصديقي سرجون، المقيم فيها، بتقديم واجب العزاء له على وفاة أمه قبل حلول أربعينيتها.

المسافة بين أوتاوا ومونتريال ليست طويلةً.. قد تستغرق ساعةً ونصف الساعة أو أكثر، لكننا توقفنا في الطريق لتناول الإفطار في مطعم للوجبات السريعة. كان مزدحماً بالزبائن من مختلف الأجناس: أفارقة وآسيويين وعرب وأوروبيين ولاتينيين.. ورغم اعتدال درجة

الحرارة فإنّ بضع فتيات جميلات خرجن بالشورتات، والقمصان ذات الصدور المفتوحة والقصيرة التي تكشف عن الأجزاء السفلى من بطونهن، وظهورهن الموشومة بفراشات وطيور، ودياصورات، ودراجات نارية، ونجوم خماسية وسداسية، ورموز غريبة، وكأننا في صيف ساخن، فسمعت رجلاً يجلس إلى طاولة خلفنا يتحدث بالعربية، مستعيذاً بالله من الشيطان كلما مرت إحدى تلك الفتيات من جانبه، التفتُ إليه فوجدته رجلاً ملتحياً في منتصف العمر، يرتدي قميصاً حريرياً فضفاضاً، ومعه امرأة مجللة بالسواد كأنها غراب ضخم، تغطي وجهها بنقاب كثيف فلا يبرز منه إلاّ عيناها الزائغتان، وتدس الطعام في فمها دساً من تحت ذلك النقاب، ويتوزع حولهما ثلاثة أطفال في أعمار مختلفة، فراودتني رغبة في أن أسأله «من أين أنت يا أخا العرب؟ هل أنت من الجزيرة أم من أطرافها؟ وما الذي رماك إلى ديار الفسق والرذيلة؟ ولماذا تأكل أنت وبقرتك من طعام لا تعرف إن كان لحمه حلالاً أم حراماً؟»، لكني أقلعت عن الفكرة كي لا أدخل معه في حوار لا ناقة لي فيه ولا بعير.

قبل وصولنا إلى مونتريال أثارت فضولي أكواخ خشبية منتشرة على مسافة ليست بعيدة عن الطريق العام، وهي جزء من إحدى المحميات التي يقطنها سكان كنديون أصليون (هنود حمر)، يبيعون

فيها السجائر المصنوعة في محميتهم، والبضائع المهربة من أميركا بأسعار رخيصة، فقررت أن أعرج إليها.. تذكرت خلال تجوالنا فيها الأكواخ الخشبية التي كان ينصبها المهربون في كردستان على الطرق التي تربط المدن الكبيرة بالقصبات والمصايف، حيث يتبضع منها الجنود، الهابطون من وحداتهم العسكرية في الجبال إلى أهلهم أيام الحرب، منتجاتٍ إيرانيةً مهربةً تافهةً جداً مقارنة بمثيلاتها هنا. عرض عليّ أحد البائعين، بلطف شديد، وأنا أشتري منه قداحةً فاخرةً، كميةً صغيرةً من الحشيشة قال لي إنها من النوع الممتاز، فقلت له إنني لا أتعاطى المخدرات.. فالتفتَ إلى امرأة تجلس في إحدى زوايا كوخه، وتتطلع طول الوقت إلى عشتار بدهشة، ورطن معها بلغته بضع كلمات حدستُ أنه يسخر فيها مني..

مكثنا في مونتريال حتى المساء برفقة سرجون وزوجته ناتالي. ذهبنا أولاً إلى بيتهما، ثم خرجنا بعد الظهر معاً في جولة حول كنيسة سانت جونز، المجاورة لمركز الفنون الأدائية ومحطة المترو في وسط المدينة، وهي من طراز قوطي، ونموذج رائع للجمالية السامية في المعمار الكنسي الفيكتوري، صممها مهندس معماري اسمه وليم توتين توماس، وبنيت عام 1878. احتجنا إلى ثلاث ساعات للاطلاع على أسرارها الجمالية والروحية، وحين شعرنا بالتعب قادنا

سرجون إلى كازينو مطلة على نهر سانت لوران، كي يستمتع الأطفال بمنظر البط والنوارس ونقيق الضفادع.

كان سرجون صديقي أيام الدراسة المتوسطة في كركوك، ثم رحلت أسرته إلى بغداد بعد أن أنهينا البكلوريا، وبقينا نتراسل في أوقات متباعدة، لكن أخباره انقطعت عني فجأةً، وعلمت من أحد أقاربه أنه أصيب بمرض خطير، لم يكشف لي عنه، فأخذه والده إلى فرنسا للعلاج. بعد عودته مشافى اتصل بي هاتفياً، وأخبرني بأنه كان مصاباً بالسفلس نتيجةً لمعاشرته إحدى المومسات في بغداد. ثم توثقت علاقتنا حينما انتقلت إلى الدراسة الجامعية، وأصبحنا صديقين حميمين نلتقي أسبوعياً في النادي الآشوري الذي يديره أبوه، فكان يوفر عليّ ثمن المشروب لأشتري به بعض الكتب من مكتبات الباب الشرقي. كان ذا ميول ماركسية، ويعشق التمثيل، ويحلم أن يكون نجماً سينمائياً، ويتباهى دائماً بأنه يشبه عمر الشريف، وبسبب ذلك أجبرني على مشاهدة فيلمه دكتور جيفاكو خمس مرات، وهو يقول لي، في كل مرة، إن والدته تنبأت له عند ولادته بأنه سيكون مشهوراً. وحين ذكّرته بذلك الفيلم قال لي إنه شاهده اثنتي عشرة مرة، ولا يزال يحتفظ بشريط فيديو له، ثم سألني إن كنت راغباً في مشاهدته من جديد لنستعيد ذكرياتنا، فقلت له

أتمنى ذلك لكن وقتي لا يتسع. وراح يحدثني عن فيلم عمر الشريف الجديد، السيد إبراهيم وأزهار القرآن، الذي لم ينته منه بعد، قائلاً إنه فيلم يقوم على حكاية فلسفية حول الصداقة واكتشاف الآخر، وأتمنى أن نشاهده معاً.

رغم ولع سرجون بالسينما فإنّ والده أصرّ على أن يتخصص في التاريخ، ويكمل دراسته العليا، ويحصل على الدكتوراه في موضوع التاريخ الآشوري، فدخل كلية الآداب، دون رغبة، وكلما سألته عن رأيه في دراسة التاريخ أجابني بأنه «يتمنى أن يبول عليه»، وقد قرر وهو في الصف الثالث أن يهاجر إلى الخارج ليحقق حلمه الذي حرم منه، ويترك شلمنصر الأول ينطح شلمنصر الثاني، وتجلاتبليزر الثالث ينطح تجلاتبليزر الرابع إلى يوم تقوم الساعة.

قبل بدء الحرب الأولى بعدة أشهر حزم أمره على الرحيل، وكأنه كان يشم رائحتها تأتي من تحت إبط نبوخذ نصر الجديد! وفي الأسبوع الأول من العطلة الصيفية طار إلى بيروت، تاركاً إياي حائراً بين شراء الكتب وشراء الخمرة، وأنا أعاني من ضعف دخلي الذي لا يتعدى أربعين ديناراً في الشهر، أقبض نصفها من الحكومة ونصفها الآخر من أبي الذي أثقل كاهله العمل في النجارة. لم يمكث في بيروت طويلاً، فجاء إلى كندا بدلاً من أن يذهب إلى فرنسا لأن

عمه المقيم في مونتريال أقنعه بأن فرص الدراسة، وقبول طلب الهجرة هنا أفضل من هناك، وحصل له على التأشيرة وتذكرة الطائرة، وأرسلهما له بالبريد. بقينا نتراسل أنا وسرجون باستمرار، ومازلت أحتفظ ببعض رسائله، ويحتفظ هو ببعض رسائلي، ولعلني سأفيد منها في كتابة روايتي، وخاصةً تلك الرسائل التي كنت أصف له فيها الحياة القاسية والخطرة في جبهات الحرب التي أكلت من عمري ست سنين، جرحت خلالها مرتين، ونجوت من الموت بأعجوبة مرات عديدةً. وقد طلبت منه أن يستنسخ لي تلك الرسائل لأحتفظ بها.

حدث لقائي الأول بسرجون، منذ أن افترقنا قبل أربعة وعشرين عاماً، في اليوم الثاني لوصولي إلى أوتاوا. اتصلت به من دار الاستقبال التي تشبه الأقسام الداخلية للطلاب، وتنحشر في غرفها العشرين أُسر لاجئة من شتى القارات، فجاءني بسيارته الجيب شبه المصفحة، وخرجنا إلى وسط المدينة أولاً، ثم تجولنا في أنحاء مختلفة منها، فتشكلت في ذهني أولى الانطباعات عنها، وهي في أغلبها انطباعات سلبية، وحاول سرجون إقناعي بتركها والانتقال إلى مونتريال، التي يسميها الكيبكيون بجوهرة الفرانكفونية في شمال أميركا، حيث سيسهل لنا وجوده فيها الكثير من الأشياء، وعرض عليّ أن أعمل معه. لكن ذلك لم يحدث، وتلاشى التفكير به بعد ولادة سومر

وسميرميس، وحصولي على عمل في أحد المتاجر، رغم أنّني ما زلت أحمل بعضاً من تلك الانطباعات في ذهني، وقد رسخها بمرور الزمن اصطدامي بعدد من الحثالات القادمين من بلدي، الذين يشوهون يومياً صورتها بوضاعتهم وتخلفهم. وقد نبهني إليهم سرجون في وقت مبكر، وحذرني من التعامل معهم إذا توفر لي الخيار، لكن الصدف أحياناً، والانخداع، وسوء تقدير المواقف كانت تضعني وجهاً لوجه مع بعضهم، وتسبب لي المشاكل ووجع الرأس.

اكتشف سرجون، بعد وقت قصير من مجيئه، أن رغبته في دراسة السينما بدأت تضمحل، فانكب على تعلم اللغة الفرنسية، ووجد له عملاً في إحدى المكتبات، فأتيحت له فرصة ذهبية للقراءة. كان يغيظني في بعض رسائله قائلاً إنني في الوقت الذي أحمل فيه روحي على راحة يدي، وتنهمر الحمم والقذائف على مقربة من موضعي العسكري عند حافة هور الحويزة، أو أسفل قمة جبل رأس العبد في الشمال، أو خلف ساتر ترابي في مندلي، يقرأ هو ديوان أزهار الشر لبودلير بلغته الأصلية، ويتصفح المجلات المتخصصة بالأدب والفن والعري، دونما رقيب، ويرطن بالفرنسية مع أحلى الفتيات في المكتبة والمراقص والأسواق.

بعد أعوام من العمل في عدة مكتبات استطاع سرجون أن يدخل شريكاً مع صاحب واحدة منها في شارع روتردام، ثم حصل على قرض من البنك واشترى حصة شريكه، فأصبحت ملكاً له، وتعرّف خلال عمله فيها إلى ناتالي، وهي فرنسية الأصل تجيد اللغة الإيطالية وقليلاً من الإنجليزية والعربية، وأصبحا صديقين، وعاشا في شقة واحدة حتى ولادة طفلتهما الأولى، فتزوجا زواجاً كنسياً، ومنذ ذلك الوقت وهما يديران المكتبة بالتناوب.

كانت ناتالي، مثل سرجون، ضد الحرب، متأثرةً بالموقف الفرنسي الرسمي، لكن سرجون كان يعتقد بإمكانية تجنيب البلد كارثة الاحتلال لو أن الرئيس تخلى عن السلطة وخرج لاجئاً، فاعترضت ناتالي قائلةً إن الاحتلال كان سيقع في جميع الأحوال.. لأن أميركا حين ترسل جيشها إلى مكان ما لا ترسله للنزهة.. ولو حدث أن تخلى الرئيس عن السلطة، وترك البلد للجأت إلى إشعال نزاعات دموية بين مكوناته لتسوغ لنفسها احتلاله. إلاّ أن عشتار كان لها رأي آخر، فقالت:

– أنا لا أتفق معك.. بل ربما كانت ستشكّل حكومةً عميلةً لها تحقق أهدافها..

– أنتِ إذاً لا تعرفين أميركا جيداً.. انظري إليها ماذا تفعل الآن في بلدكم.. لماذا تترك أعرق رموز حضارتكم للنهب والتدمير، إن لم يكن لها يد في ذلك أصلاً؟ ثم تأتي لتقول ببراغماتية سخيفة إن أعمال النهب مرفوضة، وهي رد فعل طبيعي لسنين من القمع!

قلت:

– هل هذا يعني أن أميركا وحدها تتحمل جريرة ما يحدث من فواجع؟

– خذها عن لساني يا سامر.. إن المارينز لم يدخلوا بغداد حاملين مشعل الحرية، و لم تذهب أميركا إلى العراق كي ترضع شعبه من ثديها المدرار بالحليب المجاني، بل لتهبه صندوق باندورا المشؤوم.

لكن رد ناتالي هذا التبس على سرجون، فبدلاً من أن يقول «الحليب المجاني» قال «حليب المارينز»، فأثار دهشتنا أنا وعشتار، وتبادلنا نظرات مستغربةً، مشككةً جعلت ناتالي تخمّن أن سرجون لم يكن دقيقاً في ترجمة كلامها، فطلبت منه أن يعيد لنا ترجمته مرةً أخرى. وحينما انتبه سرجون إلى الالتباس الذي وقع فيه ضحك وقال:

– حليب المارينز اشلون رهمت وياي؟ هم زين ما قلت حليب الماعز..

فأجابته عشتار بغبطة مفاجئة كمن عثر على كنز ثمين:

– بالعكس تماماً.. إنه التباس رائع سألتقطه عنواناً لقصيدة..

كان المساء قد حلّ علينا ونحن منهمكون في النقاش، وكأننا جئنا إلى مونتريال للمشاركة في ندوة سياسية، ولم نتوقف إلاّ حينما بدأت قطرات من المطر الربيعي تتساقط على رؤوسنا، رغم كثافة الأشجار التي تظللنا. وشعر الأطفال بالتعب، وتركوا طيور النوارس تتصايح متنافسةً على فتات الخبز التي كانوا يرمونها لها، واستكانوا هادئين بانتظار أن نغادر المكان.

في طريق العودة كنت أفكر وحدي بالشيخ الذي رأيته في المطعم، وخمنت أنه يخفي تحت لحيته الكثة كل شياطين الأرض، ولو أتيحت له الفرصة للاختلاء بواحدة من الصبايا اللواتي كان يلعنهن لضاجعها بوحشية. أما عشتار والأطفال فقد استسلموا، متعبين، لإغفاءة عميقة.

حين وصلنا إلى البيت كنت مرهقاً جداً، وأشعر بألم في أسفل ظهري، فأخذت حبة مسكن، وشربت على عجل كوباً من شواش الذرة المغلية، وغفوت نحو ساعتين استعدت خلالهما بعضاً من حيويتي، وزال الألم عن كُليتي، ولما استيقظت منتصف الليل تناولت فنجان قهوة، ثم صببت قليلاً من زجاجة الكونياك الكبيكي التي

أهداني إياها سرجون، في كأس مترعة بالثلج، وجلست في مكتبي، وأخذت أنسج بعض خيوط روايتي المتشابكة.

آنيا

وصلت مع جثمان أخي جون رسالة كتبها لي قبل موته بساعات، كما قال صديقه مارك وود، وكان ينوي إرسالها لولا أن الموت عاجله، فعثروا عليها في حقيبته، وسلموها لوود مع كاميرا، وأدوات حلاقة، وكتاب عن آثار بلاد ما بين النهرين، وبعض الأوراق التي كتب فيها يومياته خلال رحلته المشؤومة، وميدالية ذهبية تحمل على وجهيها صورتين صغيرتين لأمي وأبي. حين أخبرت سامراً بمحتويات الحقيبة طلب مني أن أعطيه نسخةً مصورةً من الرسالة واليوميات ليوظفها في روايته التي ينوي كتابتها عما جرى في بلده، فوعدته بأن أنسخها له بعد انتهاء مراسم الدفن. يقول جون في رسالته:

عزيزتي آنيا

إليك قبلاتي..

أنا أعرف أنك ستغضبين جداً حين تعلمين أين أنا الآن.. وأشعر بأسف شديد لأنني ارتكبت حماقةً بعدم استشارتك في الخطوة التي أقدمتُ عليها، وآمل أن تغفري لأخيك الصغير هذه الحماقة،

وتعديني بأن لا تخبري والديّ بأي شيء. حسناً يا عزيزتي آنيا.. أنا الآن في بغداد وسط حرب مدمرة تنهمر فيها القذائف والصواريخ ليل نهار على هذه المدينة الكبيرة التي يقطنها نحو خمسة ملايين من البشر، كما يقولون هنا، ولا بد أنك تتابعين أخبارها.. وكل ما أرجوه أن يجنبني الله من أي أذى لأعود إلى أوتاوا وقد اكتسبت تجربةً فظيعةً.

سافرت مع اثني عشر كندياً، من ضمنهم صديقي الحميم مارك وود، للانضمام إلى فريق كبير يسمونه (الدروع البشرية)، جاء من مختلف دول العالم ليمنع، كما قالوا، وقوع الحرب، ويجنب شعباً عريقاً من الفناء له فضل على الإنسانية باختراعه الكتابة والقوانين والفنون والعلوم قبل ستة آلاف سنة. كنا متحمسين جداً لأداء هذا الواجب وإراحة ضمائرنا، خاصةً أن كندا أعلنت مع دول كثيرة في الأمم المتحدة وقوفها ضد الحرب. ولا أخفيك أنني تخيلت الاستقبال الرائع الذي كنتم ستقومون به لو أننا نجحنا في مهمتنا.. وكانت ستتاح لي فرصة ذهبية للاطلاع على آثار ميزوبوتاميا المنتشرة هنا مثل انتشار الغابات والبحيرات في بلدنا.. لكن ما حدث للأسف كان على الضد مما قالوه، أو تخيلته، فقد شنت جارتنا، بمساندة بريطانيا، الحرب، وها هي تحصد الأرواح، وتدمر المنشآت، وتعطل

الحياة بكل تفاصيلها.. وقد لا تتخيلين أنني أكتب الآن هذه الرسالة على ضوء شمعة وفرتها لنا إدارة الفندق، وآمل أن أحصل على جهاز كومبيوتر لأبعثها لك بالبريد الإلكتروني إن كانت شبكة الانترنيت في منأى عن القصف.

عزيزتي آنيا..

اعذريني لأنني لم أخبرك بهذه الرحلة الشاقة لئلا تمنعيني من السفر، ولم أشأ أن أتلفن لك بعد وصولي خوفاً من أن تُسمعيني كلمات قاسيةً. لكن اطمئني.. لقد وعدونا بأنهم سينقلوننا إلى مكان آمن، أو يعيدوننا إلى الأردن في أقرب فرصة. وأود أن أخبرك بأنني كتبت بعض اليوميات التي سأطلعك عليها حينما أعود، فربما تعدلين فيها بأسلوبك الصحفي الرائع، وتنشرينها في الجريدة مع بعض الصور التي التقطها لي وود.

اعذريني ثانيةً..

تحياتي إلى روزا وسامر وعشتار..

ولك مني قبلاتي ومحبتي.

جون ماكنيس

بغداد 5 أبريل 2003

في طريقنا إلى المطار لاستقبال الجثمان كان سامر، وعشتار، وروزا يشاركونني في حزني على مصابي وكأننا من أسرة واحدة، ويحاولون، كلما رأوني أبكي، تهدئتي بكلمات صادرة من قلوبهم، ومواساتي بمشاعر نبيلة وصادقة. وكانت أمي، التي قطعت رحلتها وعادت مع أبي من دبلن، قد انهارت لحظة دخولها إلى البيت، وارتفع ضغطها، فأدخلناها إلى المستشفى، ولم يسمح لها الأطباء بالخروج لمرافقتنا. أما أبي فكان يحاول أن يكتم حزنه، ويحبس دموعه بإرادة فولاذية، إلا أنني كنت ألحظه يمسح عينيه بمنديله بين حين وآخر، دون أن يدع الآخرين يحسون به، بل كان يأخذني بين أحضانه حينما أضع رأسي على صدره وأنشج، ويطلب مني أن لا أزعج روح جون بالبكاء، وأتحلى بالصبر، وأدعو ربنا وإلهنا يسوع المسيح أن تكون مشيئته كما في السماء كذلك على الأرض، وأصلي له ليكون مثواه في السماء حيث القديسون يتمتعون بمشاهدة الخالق.

كان ينبغي أن أعتذر لسامر لأن مقتل أخي المفاجئ حال دون سفرنا، أنا وإياه، للحصول على الدواء الذي يبحث عنه منذ سنين طويلة.. فقد اهتدينا إلى عنوان الهندية، التي تنفرد في تحضيره، في شمال ألبرتا، وخططنا قبل بضعة أشهر للقيام برحلة إليها في عطلة نهاية الأسبوع التي صادفت اليوم الثالث لوصول النبأ المشؤوم.. لكَم

كنت سعيدةً ومبتهجةً لأنني سأرافقه وحدي إلى الريف الهندي على ضفاف بحيرة أثاباسكا لنبحث عما يعيد الحياة إلى كُليته الضامرة، وينهي قلقه إلى الأبد، وأستمتع بصحبته الرائعة.. وقد وعدته بأن نتفق على موعد آخر ربما يكون في أول الصيف.. فأنا متلهفة أكثر منه رغم أنه لا يعلم..!

اللعنة.. هل كان ضرورياً أن يتزوج قبل مجيئه إلى كندا؟

عشتار

منذ عودتنا من مونتريال وأنا أفكر في كتابة قصيدة (حليب المارينز).. كتبتُ بضعة أبيات منها وسأحاول إكمالها حينما يصفو ذهني، ويذهب عني ملل الوحدة الذي أشعر به. لقد بدأ ينتابني إثر تركي عملي في السفارة قبل ستة أشهر. كل صباح يأخذ سامر الأطفال إلى المدرسة، ويتركني ذاهباً إلى عمله في متجر الملابس النسائية، وهو يكرر شكواه، كلما خرج، من هذه المهنة التعيسة، فأسكت على مضض لأنه محق.. وألعن في سري الظروف القاسية التي أرغمتنا على الاغتراب.. وأضحك أحياناً لأن أصدقاءنا وأقاربنا في العراق يتخيلون أننا نعيش في نعيم العالم الغربي، ونغرف من ثرواته، وهم يتجرعون المعاناة هناك..

أنهي أعمال البيت في أقل من ساعتين، أقرأ بعض الكتب، أكتب حينما تحاصرني فكرة قصيدة جديدة، أشاهد التلفزيون فتعصر أخبار البلد قلبي، لكن الوقت لا ينتهي فأضطر إلى الاتصال بآنيا أو روزا أو رشيدة حتى تقترب عقارب الساعة من الرابعة موعد عودة سامر والأطفال، فأجهز لهم الغداء.

حين تركت العمل في السفارة قال لي المستشار العلمي فيها، وهو رجل محترم إلى حد ما، إنني الموظفة الوحيدة التي استمرت سنتين ونصف السنة في العمل، فكل الموظفات اللواتي سبقنني في هذه الوظيفة كنّ يتركنها بعد أشهر قليلة، وعدّ ذلك بطولةً أستحق عليها التكريم، لكنني لم أحرجه في السؤال عن السبب لأنني كنت أعرفه، إنه السفير نفسه، ذلك الجلف الذي لا تسقط الشتائم عن لسانه.. و لم تهذبه سنون خدمته الطويلة في العمل الدبلوماسي. ورغم تفاهته كان يأمل أن يكون وزيراً، لا لكفاءته، بل لصلة القربى بينه وبين رئيس بلده. كنت طوال فترة عملي أتحاشى الاحتكاك به، وأؤدي واجباتي بمنتهى الإتقان كي لا أمنحه فرصةً للتطاول عليّ، أو فتح فمه بكلمات بذيئة.

رأيت اليوم في جريدة (شمس أوتاوا) صورةً لذلك السفير وهو يوقع مع وزير التعليم في أونتاريو على بروتوكول للتعاون العلمي، وتحتها مباشرةً صورة لجندي أميركي يشير بيده إلى آثار قديمة تقع إلى جانب موضعه العسكري، وقد كُتب أسفل الصورة تعليق افتراضي على لسانه يقول «هنا كانت مدينة أوروك التي حكمها جلجامش قبل خمسة آلاف سنة.. سآخذ بعض الأحجار التذكارية منها، وأهديها لصديقتي في عيد ميلادها عوضاً عن زجاجة شمبانيا».

أزعجتني الصورة، واستفزني التعليق كثيراً، فبصقت على الجريدة ورميتها في سلة القمامة.

تذكرت أمي المسكينة يوم جاءوا بجثمان أخي أوروك. كنت في الخامسة عشرة من عمري، وقد عدت تواً من المدرسة، فرأيت الناس متجمهرين أمام البيت، وثمة تابوت لصق الجدار، أسفل شباك غرفتي، فشهقت من الخوف ظناً مني أن أمي ماتت، وركضت كالمجنونة، وخلفي تجري صديقتي وابنة جارنا، وهي تحذرني من السيارات في الشارع.. حين دخلت إلى البيت سمعت نواح أمي وسط بكاء النسوة، فعرفت أن الميت شخص آخر من أسرتي، فمن يكون؟ ارتميت في حضنها وانفجرت بالبكاء من غير أن أسألها عما إذا كان الميت واحداً من إخوتي أو واحدةً من أخواتي، وكان لي أربعة منهم في جبهات الحرب.. لكن سرعان ما كشفت عن اسمه وهي ترثيه بصوتها المبحوح..

لو كان أوروك حياً الآن لاحتفل بعيد ميلاده الواحد والأربعين قبل شهرين، وربما كان لاجئاً مثلي في دولة غربية، فأراه كل يوم على الإنترنيت، وأبعث له قصائدي، ونتحدث عما جرى، ويسألني عن البصرة، وعن محمد خضير وروايته (كراسة كانون)، فأقول له «أنا مثلك لا أعرف شيئاً عن البصرة غير ما تنقله لنا الأخبار عنها،

أما محمد خضير فهو حي، ومابرح مواطناً بصرياثياً أبدياً، وأنتظر أن تتحسن الظروف هناك لأطلب من الأهل أن يبعثوا لي نسخةً من روايته..». يا إلهي.. كان سيحب سامراً، ويقول لي «متى سيباشر بكتابة روايته الخامسة.. أنا انتهيت من إعداد مجموعتي القصصية الثالثة للنشر».

كان مأخوذاً بقصص محمد خضير، وقد حضّني على قراءة (المملكة السوداء)، و(في درجة 45 مئوي)، وأنا في الصف الثالث المتوسط، وحين كنت أجد صعوبةً في فهمهما يقول لي «لا بأس.. استمري.. إنهما أفضل ألف مرة من ترهات المنفلوطي..». ذات يوم أخذت المجموعة الأولى معي إلى المدرسة، ووضعتها على الطاولة أمامي إلى جانب كتاب النصوص لأتباهى بها، فلمحتها مدرسة اللغة العربية الست خديجة، وسحبتها دون استئذان، وأخذت تتصفحها وهي تسير باتجاه السبورة، ثم رفعتها فجأةً، وقالت مخاطبةً الطالبات «بنات..أنا نبهتكنّ في بداية الفصل.. المطالعة يجب أن تختصر على المؤلفات المقررة مثل: مؤلفات المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وطه حسين، ومن لفّ لفهم.. أما أن تختار إحداكن على هواها مثل هذا الكتاب فإنه يتعارض والمنهج التربوي..». رأيت الطالبات يلتفتن إليّ ويتضاحكن، فنهضت، دون استئذان أيضاً، وقلت «أخي نصحني

بأن أقرأ هذا الكتاب، وقال إن مؤلفه أفضل من المنفلوطي ألف مرة..»، فغضبت الست خديجة، ورمت المجموعة على الطاولة كما لو أني وجهت لها إهانةً، وصرخت في وجهي «من يكون أخوك حتى يصدر مثل هذا الحكم..ها؟ أهو العقاد أم محمد مندور؟ عال والله عال! كل من هب ودب صار يتطاول على عمالقة الأدب.. ما تحصيل أخيك الدراسي؟»، قلت لها «سينهي كلية الآداب هذا العام.. ست»، فقالت ساخرةً «هل سمعتنّ بنات؟ مازال طالباً.. ماذا كان سيقول لو أنه نال الشهادة؟».

حين أخبرت أوروك بما حدث قال لي «مدرستك هذه بليدة وحمقاء.. إن قصة الأسماك وحدها أفضل من كل عبرات المنفلوطي، وخطراته، وزيزفونه..». لقد كان متمرداً، ذا مزاج حاد.. عرفت ذلك فيما بعد عندما قرأت قصصه التي كتبها، وخاصةً تلك التي جعل أبطالها جنوداً ناقمين على الحرب، حالمين بعوالم آمنة مفعمة بالحرية، ولذلك باءت بالفشل كل محاولاته لنشرها في الداخل، فحملتها معي حين رحلت إلى الأردن عقب تخرجي في الجامعة، ونشرت بعضاً منها..

«ليتك يا أخي العزيز ما قُتلتَ وأنت في عنفوان شبابك.. ليت الرصاصة التي اخترقت قلبك الغض تحولت إلى محض دخان.. ليت

عينَي قاتلك أصيبت بالعمى وهو يصوّب عليك بندقيته.. ليت عاصفةً هوجاء اقتلعته ورمته في بحر الظلمات.. ليت صاعقةً أضرمت في جسده النار.. ليت الأرض خُسفت تحت قدميه وابتلعته.. ليت أصابعه شُلّت قبل أن يضغط على الزناد.. هوسك الجنوني بالأدب، وإلحاحك عليّ بأن أقرأ وأنا صبية، وحلمك بأن أكون كاتبةً مثلك، هو الذي دفعني إلى الكتابة.. لكنني لم أسر على خطاك، بل وجدت ضالتي في الشعر.. ومثلما شغفت أنت بعوالم محمد خضير، وبورخيس، وبوتزاتي، ويوسف إدريس، فقد شغفت أنا بالسياب، وسعدي يوسف، وأدونيس، وريلكة، وبيرس، وغيرهم.. لقد بكيت بحرقة يا أوروك يوم نشروا لي أول قصيدة مهداةً لك.. بكيت لأنك لم تقرأها.. ووددت أن أنقشها على شاهدة قبرك، لكنني لم أستطع..».

لكم كان سامر نبيلاً معي حين اقترح عليّ أن أسمي ديواني الأول (أحزان أوروك)، وأن أهديه لك وحدك.. يا إلهي ماذا كان سيحدث لو أنك عشت إلى هذه اللحظة لتشهد الزلزال الذي حدث؟ الاحتلال.. السلب والنهب.. الفواجع التي تحمل في رحمها أياماً شديدة الخطورة.. هل كنت ستكتب قصةً طويلةً عنها؟ أنا أعرفك.. كنتَ ستقول «وهل تتسع قصة واحدة لسرد آلامنا ومآسينا؟ بل سأكتب روايةً بحجم الدون الهادئ، أو موبي دك..

أريدها أن تستوعب أحداث ثلاثة عقود ونصف.. لا تترك شيئاً من الماضي والحاضر إلاّ وتكشف عنه..»، فأقول لك «لكن روايةً كهذه ستكون وثائقيةً حتماً وأنت لا تطيق مثل هذه الأعمال..»، «لمَ لا»، ستقول، «إن حياتنا أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع»..

هتف سامر وهو يدخل برفقة طفلينا:

– يبدو أنكِ نسيتِ اليوم إدخال البريد، ها قد وصلت المجلة التي نشرت قصائدك. هل ثمة أخبار جديدة؟

قلت:

– رامسفيلد يقول لن تقوم حكومة في العراق يتزعمها رجال دين موالين لإيران..

– وعلى ماذا يراهن هذا الغبي؟

– يراهن على أن العراق دخل في حرب مدة ثماني سنين مع إيران، وليس من المعقول أن يقبل الشعب بحكومة موالية لتلك الدولة..

– ألم أقل لكِ إن معرفة ابن القحبة هذا بمجتمعنا لا تتعدى معرفة جدتي بالجغرافيا!

آنيا

لم ألتقِ سامراً خلال فترة الحداد إلاّ مرة واحدة، زرته في مكان عمله وسلّمته نسخةً مصورةً من رسالة جون ويومياته. كان المتجر مزدحماً بالزبائن فلم أمكث عنده أكثر من ربع ساعة. بعد انتهاء الحداد جمعتنا سهرة في منزل روزا، حيث كانت عشتار على موعد معها لترسم لها بورتريها. وكاد اتصال شاهين بي يفسد متعة لقائي بأصدقائي، فقد راح يسألني أسئلةً تافهةً عما إذا كنت مستاءةً من تصرفاته الأخيرة معي؟ وهل أنا في البيت أم خارج البيت؟ وإذا كنت خارج البيت فمن هم الناس الذين أجالسهم؟ فاضطررت إلى الذهاب إلى الحمام لأردّ عليه بما يستحق من خشونة، وحذرته من الاستمرار في ابتزازي، فأخذ يلمّح إلى تزايد لقاءاتي بسامر، ويسمعني كلاماً سيئاً عنه، فانفعلت وتكلمت معه بقسوة، وطلبت منه أن يكفّ عن تلميحاته الرعناء، وصارحته بأنني لن أتخلى عن علاقتي بأي صديق من أصدقائي..

كانت روزا الصديقة الوحيدة التي تعرف سر علاقتي الكريهة بشاهين، وتشاركني باستمرار في البحث عن وسيلة للتخلص منه.

تعرّفت إليها منذ سبع سنوات حين حضرت أحد معارضها في غاليري التنين المفاجئ، وأجريت معها حواراً صحفياً عن لوحاتها. وبمرور الأيام توطدت علاقتي بها وأصبحنا صديقتين تجمع بيننا أشياء كثيرة. ولطالما شعرت بالاعتزاز لأن سامراً وعشتار تعرفا إليها في عيد ميلادي الثامن والعشرين قبل أربع سنوات. في تلك الليلة ظلت روزا ملتصقةً بهما طوال السهرة تتجاذب معهما الحديث، وتصغي إليهما وهما يحللان الأوضاع التي يمر بها العراق، ودعتهما إلى بيتها ليتعرفا على أبويها العجوزين اللذين يحنان إلى ماضيهما وذكرياتهما في بغداد.. وكانت لفتةً رائعة من سامر حينما كتب مقالةً عن معرضها الأخير كشف فيه عن تأثرها بفنون وادي الرافدين، وقد اعترفت له بأن أمها مارست دوراً كبيراً في توجيه اهتمامها بتلك الفنون، وأنها تحتفظ في مكتبتها بمجموعة من الكتب التي تحتوي على صور لكنوز فنية من العصور السومرية والبابلية والآشورية.

حين أكملت روزا تخطيط البورتريه لعشتار صعدت إلى مكتبتها في الطابق العلوي.. ثم عادت بعد دقائق حاملةً كتاباً مجلداً وقدمته لي قائلةً:

– هل مازلت راغبةً في قراءة أساطير الإلهة عشتار؟ خذي هذا الكتاب الذي وعدتك به.. اعتني به جيداً لئلا يتلف أو يضيع.. فيه عدة نصوص أسطورية عنها.

أخذت الكتاب منها وفتحته فإذا به يحمل عنوان (نصوص الشرق الأدنى...)، ورحت أتصفحه على مهل، فعثرت بين طياته على صورة لرجل في الثلاثينيات من عمره، فانتبهت روزا إليها وسحبتها من الكتاب، وشرعت تتأملها كأنها تراها أول مرة، ثم قلبتها وقرأت ما كُتب على ظهرها وقالت:

– إنها صورة طليقي بنحاس الذي انفصلت عنه قبل عشر سنين.. هذه قصة لا تعرفونها.. هاجر إلى إسرائيل وتزوج هناك بعد طلاقنا.. لم يستمر زواجنا أكثر من ستة أشهر.. بدأت المشاكل حينما أصرّ على الهجرة، طالباً مني أن أرافقه، إلاّ أنني رفضت، وخيّرته بين البقاء هنا أو الطلاق، فاختار الحل الثاني وسافر وحده. إنه من أصل مغربي، هاجر معظم أهله إلى إسرائيل، وجاء هو إلى كندا للدراسة. كنا في نفس الجامعة، لكن تخصصه يختلف عن تخصصي، درس الفيزياء ونال الماجستير في الذرة، رغم أنه كان موهوباً في الرسم.. كان يقول إن الفيزياء تنفعه في الحياة العملية، أما الرسم فهو هواية يستطيع ممارستها من غير دراسة.. عمل بعد تخرجه في أحد مختبرات الجامعة، لكن روحه كانت معلقةً هناك.. وشجّعه على السفر موظف في السفارة الإسرائيلية.. وحاول هذا إقناعي أنا أيضاً فرفضت..

راح سامر وعشتار يناقشان روزا حول هجرة اليهود من الدول العربية إلى إسرائيل، ويقارنان بينهم وبين اليهود المهاجرين إليها من الغرب.. وكانت معلوماتي عن الموضوع قليلةً فبقيت أصغي إليهم مثل تلميذة صغيرة تكتشف الأشياء..

قالت روزا:

– كان والدي عضواً في الحزب الشيوعي العراقي الذي أسّس في الثلاثينيات، عصبة مكافحة الصهيونية، وكانت قيادة هذه العصبة بيد أعضائه اليهود..

– ألذلك أسموك روزا.. تيمناً باسم روزا لوكسمبرغ رفيقة لينين؟

سأل سامر ضاحكاً، فهزت روزا رأسها مبتسمةً وواصلت:

– يقول أبي إن عملاء الصهيونية عمدوا إلى إلقاء المتفجرات أمام عدد من الكُنس، وممتلكات يهودية أخرى في بغداد.. وآتت هذه الأعمال ثمارها، واشتدت وتيرة إسقاط الجنسية والهجرة، ورافقتها حملة الحكومة في ملاحقة الشيوعيين واعتقالهم.. فأُجبر هو وأمي على مغادرة بغداد إلى طهران.. ومن هناك إلى تل أبيب.. لكنهما لم يتقبلا فكرة العيش في إسرائيل، فاختارا الرحيل إلى هنا بعد سنتين..

و لم ينقطعا منذ ذلك الوقت عن حنينهما إلى العودة، وقد تلبسني أنا أيضاً، وأخذت أرسم في مخيلتي شتى الصور لبغداد...

استمرت روزا في كلامها عن بغداد، وصارت تضفي عليه بعض الغموض، فشعرت بأنها ربما تخفي عني شيئاً ما، ولذلك عمدتُ إلى تغيير مجرى الحديث سائلةً إياها، ونظراتي تكاد تتجه إلى سامر:

– هل أفهم من كلامك أنك تفكرين أيضاً في السفر إلى العراق؟ قولي لي أرجوك.. لا أريد أن أفقد أحداً منكم بعدما فقدت أخي..

– سأسافر.. لكن ليس الآن.. حين تستقر الأمور نهائياً.

كان سامر منشغلاً بفتح زجاجة نبيذ ثانية فوضعها على الطاولة، والتفت إلى عشتار بنظرة تشوبها الدهشة، ثم إلى روزا، وقال:

– أتريدين أن تذهبي إلى بغداد؟ كيف؟

– أليس أهلي وأجدادي عراقيين مثلكم؟

– لا أعني ذلك، أقصد كيف ستستطيعين أنت المرأة المتحررة أن تتحملي الحياة هناك؟

– ربما بعد أربع أو خمس سنوات..

– ولا حتى بعد عشر سنين..

عندما تهيأنا لمغادرة منزل روزا سألني سامر على انفراد إن كان بإمكاني أن أقدّم موعد رحلتنا إلى بحيرة أثاباسكا أسبوعين أو أكثر،

فقلت له إنني أتمنى ذلك أكثر منه، لكنني لن أفرغ قبل بداية الصيف..
وشعرت بأن موجة حزن غمرته.. ودهمتني رغبة في تقبيله من شفتيه!

سامر

كنت أنتظر هذه اللحظة بلهفة.. أهلي كلهم بخير! وسيكون بمقدوري الآن أن أباشر بكتابة روايتي.. كان قلقي يزداد عليهم يوماً بعد آخر.. بل ساعةً بعد ساعة منذ بدء الحرب.. كنت أخشى أكثر ما أخشاه أن تصدمني مفاجأة مؤلمة كتلك التي صدمتني بعد انتهاء الحرب السابقة.. يوم نقل لي أبي خبر مقتل أختي الكبيرة بإحدى قذائف الجيش التي أمطر بها كركوك في مارس.. كانت قد خرجت صباحاً إلى حديقة بيتها، وهي تحمل حفيدتها في حضنها، فباغتتها القذيفة الطائشة، وانفجرت على مقربة منها.. لم تمنحها أية فرصة لتودع أولادها وبناتها، فقد مزقت رقبتها إحدى شظاياها، وجعلت دمها يتدفق على العشب مثل الذبيحة. يومها كنت في مخيم صفوان مع مئات النازحين من الناصرية، وأطرافها صوب القوات الأميركية، هرباً من القصف الشديد الذي تعرضت له المدينة لانتزاعها من المتمردين. وكان ذهابي إلى الناصرية قبل انتقال الشرارة إليها بيوم واحد مغامرةً شديدة الخطورة، بل جنوناً ما بعده جنون، لكني كنت ملزماً، وفاءً لعلاقتي المتينة بصديقي الكاتب مهدي الناصري، الذي

فقد نصف أسرته دفعةً واحدةً في حادث مفجع، بأن أعزيه وجهاً لوجه.

أتذكر أنني وصلت إلى المدينة عصر اليوم الثالث للعزاء، الذي أقامه عمه في منزله، وكان يوم جمعة، فوجدت في المنزل حشداً من الرجال الغارقين في لغط يصم الآذان، وما إن دعوتهم إلى قراءة الفاتحة حتى تحولت أصواتهم إلى بسبسات وتمتمات خافتة لم تستغرق سوى ثوانٍ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى لغطهم، فتبينت، وأنا أصغي إليهم، أنهم بدلاً من أن يترحموا على أرواح الموتى، أو يذكروا محاسنهم أخذوا يتجادلون حول مسائل سياسية ومذهبية، ودهشت أيما دهشة حينما التقطت أذناي شتائم لاذعةً للسلطة لم أعتد على سماعها من قبل في تجمع عام، فأدركت أن الوضع في المدينة مقبل على الانفجار بين لحظة وأخرى.

كنت غادرت كركوك في ساعة الغسق دون أن أأبه لاعتراض والديّ على سفري خوفاً من تعرضي إلى مكروه في تلك الظروف الحرجة. وخطر لي أن أحمل معي جواز سفري المزور، الذي حصلت عليه بصعوبة من كردستان مقابل مبلغ كبير، لعلني أستطيع الهرب إلى الخارج من جهة القوات الأميركية المرابطة في غرب الناصرية، وجنوبها، فأحقق حلمي. لكن صديقي مهدي بقدر ما كان ممتناً

لمجيئي فإنه كان غير مسرور لقيامي بتلك المغامرة، وفضّل، صراحةً، أن أعود بعد بضع ساعات من وصولي خشيةً من أن يلتهب الوضع فيتعذر عليّ مغادرة المدينة، وأخبرني أن بلدات قريبة كالفهود، والطار، والكرمة، وسوق الشيوخ قد خرجت عن سيطرة الحكومة، وأن مئات المسلحين فيها سيدخلون إلى الناصرية تحت جنح الظلام، لكني كنت على يقين بأن السلطة ستسحق أي تمرد مهما كان حجمه إذا لم تسانده أميركا، فتحججت بأنني متعب جداً، ولا أقوى على السفر قبل صباح اليوم التالي. وكي أقنع صديقي بحجتي طلبت منه أن يقودني إلى أقرب مكان للنوم، فأخذني إلى بيتهم المجاور لبيت عمه، وجلب سريراً ثانياً إلى غرفته، في الطابق الثاني، المطلة على شارع سلبت منه إضاءته، وزادته غيوم مارس المتحركة عتمةً.

قبل أن آوي إلى الفراش ألقيت نظرةً خاطفةً عبر زجاج الشباك المغلق، فلمحت من بعيد أقواساً من رصاصات التنوير المتوهجة في السماء، دون أن يصحبها أي صوت. ولأنني كنت معتاداً على رؤيتها أينما ذهبت، فإنها لم توحِ لي بشيء غير اعتيادي، ولذا أخفيت أمرها عن مهدي، وأسدلت الستارة، وتبادلت معه حديثاً قصيراً عن الجنود المنكسرين الحفاة، والجياع الذين شاهدتهم يفترشون الأرض في كراج النقل الموحد، وهم يستجدون المسافرين

لشراء سندويشات، أو لدفع أجرة السفر، وكانت آخر جملة نطق بها مهدي هي أن الناصرية أمست تشبه عربةً محملةً بالقش بانتظار عود ثقاب فقط يصل من الأهوار عبر سوق الشيوخ. ثم استسلمنا للنوم قبيل انتصاف الليل.

عند الفجر أيقظنا صوت طرقات على الباب الخارجي، ففتح مهدي النافذة وأخرج رأسه، وسأل عمن يكون الطارق، فسمعت أحدهم يعلن، بصوت مبحوح، قيام الثورة، ويحرّض على المشاركة فيها. استدار مهدي إليّ وخزرني بنظرة قاسية، من غير أن ينبس بكلمة، وخرج ليوقظ أهله. نهضت من السرير متثاقلاً، فشعرت بوخزة ألم في أسفل ظهري، وارتديت ملابسي، ووقفت أمام الشباك، ورحت أتطلع إلى المدينة، فوجدت أن السكون المريب والموحش مازال يلفها، وفكّرت في أن ذلك قد يكون السكون الذي يسبق العاصفة، كما يقال، وحين عاد مهدي بعد دقائق أخذ يؤنبني لعدم سماعي كلامه، وأخبرني بأن الحصول على وسيلة نقل إلى بغداد أصبح أمراً مستحيلاً بعد النبأ الذي وصلنا. وحاولت عدة مرات أن أتصل بأهلي، لكن شبكة الهاتف خذلتني، فبقينا ننتظر ما ستؤول إليه الأمور.

في الساعة العاشرة والنصف صباحاً هدر فجأةً صوت رخيم من مكبر صوت في الشارع يدعو الناس إلى حمل السلاح، ومهاجمة دوائر الأمن، ومقرات الجيش، وأوكار الحزب، وما كاد ينهي دعوته حتى بدأت أصوات الرشاشات والقذائف تنتشر في أماكن مختلفة من المدينة، فطلب مني مهدي أن آخذ بعض الكتب من مكتبته وأنزل إلى الطابق الأرضي، وحذرني من مغادرة البيت نهائياً، فسحبت على عجل ثلاثة كتب أحدها رواية (الساعة الخامسة والعشرون) التي سبق أن قرأتها وأنا في الجامعة، وكانت في نفسي رغبة شديدة في إعادة قراءتها.

حاولت مرتين خلال الأيام الثلاثة، التي أجبرت فيها على ملازمة البيت، أن أخرج إلى وسط المدينة، فلم تسمح لي أم مهدي أن أتعدى حدود الشارع الذي يقيمون فيه. وهكذا بقيت أستقي الأخبار من مهدي، الذي كان يتركني مرةً أو مرتين في اليوم، ويغيب عدة ساعات، ثم يأتيني بأخبار مفصلة عما يجري في المدينة، ومنها أسر قائد الجيش في المنطقة، وهو برتبة جنرال، بعد إصابته، وإجراء عملية جراحية له في المستشفى الرئيسي، ومقتل المحافظ، وانتشار شائعة حول هروب الرئيس ولجوئه إلى الجزائر.

كان أكثر ما يزعجنا، ويثير قلقنا، أنا ومهدي، تلك الهتافات الملغومة ذات النزعة الطائفية التي تطلقها جماعات ذات سحنات غريبة في الشوارع، وقد سمعتها بنفسي حينما مر بعضها من أمام البيت، حاملاً رايات ملونة.

حينما سمح لي صديقي بمرافقته في اليوم الرابع إلى شارع الحبوبي، الذي قصدته لرؤية تمثال الشاعر محمد سعيد الحبوبي، نصحني بأن لا أخبر أحداً من المسلحين بأنني من كركوك إذا ما سألني عن هويتي. وقفت قبالة التمثال، وتخيلته وهو يرفع، بحزن، عكازته عن الأرض، ويشير بها إلى النساء والصبيان الذين يدفعون بأيديهم عربات خشبيةً محملةً بأكياس المواد الغذائية، والأجهزة الكهربائية التي غنموها من مخازن الحكومة، محذراً إياهم من أيام عصيبة تتربص بهم. ولم يكد ينقضي أسبوعان حتى جاءت تلك الأيام حينما شن الحرس الجمهوري هجوماً كاسحاً على المدينة، مدعوماً بالأسلحة الثقيلة، والطائرات المروحية التي لم تكتفِ بإطلاق حممها النارية، بل أثارت الذعر في نفوس الجميع برش الطحين، والجص على العديد من المناطق، والأحياء السكنية لإيهامهم باستخدام السلاح الكيمياوي.

لم يكن لي، ولمهدي وأسرته المؤلفة من أمه وشقيقتيه الشابتين وأخيه الصغير، من خيار أمام ذلك الهول الجهنمي سوى النزوح إلى خارج المدينة، فحملنا ما خف حمله، وسرنا هائمين مع آلاف السائرين صوب الجنوب. وقد أعلمني مهدي بعد ذلك بخمسة أعوام، حينما اتصل بي من أستراليا، التي قبلت لجوءهم، أن بيتهم كان من بين سبعة بيوت في الحي أصابتها صواريخ مدمرة.

تعرّف مهدي عند جسر يقع في المدخل الجنوبي للمدينة، يعرف بجسر الواحة، إلى سائق شاحنة صغيرة محملة بعدد من أفراد أسرته، فوافق بعد نقاش قصير معه على أن ننحشر بينها، فاعتبرناها هديةً هبطت علينا من السماء. قادنا السائق عبر طريق الناصرية- البصرة السريع المحاذي للصحراء، فأخذنا، أنا ومهدي، نتطلع إلى المدينة التي تركناها خلفنا لنشاهد وميض القذائف المتطايرة في سمائها، وألسنة النيران المنبعثة من أحيائها، وأعمدة الدخان التي جعلت الأفق شاشةً رماديةً.

كان بعض الجنود الأميركيين الذين يجتازوننا بعربات الجيب، وصهاريج الوقود، والشاحنات الكبيرة يرسم بأصابعه علامة النصر، نكايةً بنا، فيرد عليه الأطفال بإخراج ألسنتهم.

مع هبوط الشمس إلى الأفق وصلنا إلى منطقة تل اللحم الصحراوية، حيث ما زالت وحدات من الجيش الأميركي تحتفظ بالمواقع التي احتلتها، وما إن اقتربت قوافل النازحين إلى مواضعها حتى خرج الجنود من تحت الأرض شاهرين أسلحتهم. وبعد أن تأكدوا من أنها قوافل مدنية هاربة من القصف سمحوا لها بالانتشار في محيط الموقع العسكري.

استطعنا، لحسن الحظ، الحصول على أحد الكرافانات المتروكة من بقايا شركة بولندية. لكن كان علينا أن نبذل جهداً كبيراً لتنظيفه من القذارة المتراكمة في داخله، وخصصناه لنوم الأسرة، أما أنا ومهدي فأعددنا، تجنباً للدغات الأفاعي والعقارب، سريرين من الألواح الخشبية المنتزعة من صناديق العتاد الفارغة، ووضعناهما أمام الكرفان في العراء، ونمنا عليهما طوال الليالي الثلاث التي قضيناها في تلك الصحراء. كانت أسوأ ليلة هي الليلة الأخيرة، فقد انهمرت علينا في الفجر زخات مطر قوية مصحوبة بريح قادمة من بادية السماوة، فأرغمنا على الدخول إلى الكرفان، الذي نفذت من شقوقه خيوط من الماء، وسالت على أرضيته الخشبية، فحرم الجميع من مواصلة النوم. ومما زاد الوضع سوءاً اقتراب ذئب جائع إلى مسافة بضعة أمتار عن الكرفان. سمعنا عواءه فقط، و لم نستطع أن نتبينه من

النافذة بسبب العتمة الشديدة. وكاد الخطأ الذي ارتكبه مهدي يوقعنا في تهلكة، فقد أضاء مصباحاً فسفورياً أحمر قرب النافذة، اعتقاداً منه بأنه كفيل بإبعاد الذئب، لكن الحيوان المفترس وثب إلى سطح الكرفان، وأخذ يزمجر، ويهرش الخشب بأقدامه، فأسرعتُ إلى إطفاء الفانوس الزيتي، وهمست لهم بأن لا يصدروا أي صوت. بقي الذئب يدب على السطح بضع دقائق ثم هبط إلى الأرض، وواصل عواءه، لكنه صمت فجأةً بعد نحو نصف ساعة مع رشقة رصاص لم نعرف مصدرها. وحين طلع النهار عثرنا على بقعة دم كبيرة، أما الذئب فلا أثر له.

تبعنا الوحدات العسكرية الأميركية المنسحبة من تل اللحم إلى الجنوب، وكان ضباط وجنود عرب يرافقونها قد حثوا النازحين إلى إخلاء المنطقة، والتوجه إلى صفوان التي تتوفر فيها حماية، ومساعدات غذائية، وطبية. تعرفت هناك إلى نقيب كويتي اسمه راشد، علمت بالصدفة أن أمه من أصل عراقي، بل تنتمي إلى نفس الأسرة التي أنتمي إليها، فتعاطف معي وأسرّني بأنني سأنال حق اللجوء إلى إحدى الدول الأوروبية فور نقلنا إلى مخيم في السعودية، واستطعت أن أحصل بفضله، لي ولأسرة مهدي، على خيمتين، فنصبناهما في

الباحة الخارجية لفندق صفوان، الذي شغل نازحون آخرون جميع غرفه قبل وصولنا.

حينما جرى نقلنا إلى مطار عسكري داخل الأراضي السعودية، لنطير منه إلى مخيم رفحاء، أوصى راشد ضابط استخبارات سعودياً بأن يعتني بي، وبأسرة صديقي، وقد ادعيت حين سألني ذلك الضابط عن علاقتي بالنقيب راشد بأنه ابن خالتي! و لم أكن أتصور مطلقاً أن صلة القرابة المختلقة تلك ستنقذني من جحيم الحياة في المخيم، فبعد مرور أسبوع على وصولنا إلى ذلك المكان، الذي يبعد نحو خمسة وعشرين كيلو متراً عن مدينة رفحاء، والمحاط بأسلاك شائكة، وحراسات مشددة، ودبابات، وعربات عسكرية، طلب الضابط السعودي، واسمه فارس الحازمي، أن أمثل أمامه، فقادني إليه أحد الجنود، وبينما كنا نتحدث عن الأوضاع في المخيم دفعني الفضول إلى أن أسأله عن اسم آمر المخيم، فإذا باسم أسرته يذكرني باسم أديب سعودي تربطني به علاقة وثيقة، ومراسلات مستمرة، منذ أن تعارفنا في بغداد قبل سنوات خلت، وما إن ذكرت له أن اسمه حاتم الزهراني حتى فغر فاه مندهشاً، وقال لي إنه شقيق الآمر، ويعمل استاذاً في الجامعة، فشعرت بغبطة كبيرة مثل أي جندي يحظى بوساطة مؤثرة عند آمره، وفكّرت على الفور في أن أستغل تلك

الوساطة للخلاص نهائياً من ذلك المخيم/ المعتقل، خاصةً أنني أصبحت موقناً بأن البقاء فيه سيطول أشهراً وربما سنوات، كما حدث لمهدي وأسرته، وأن ما قاله النقيب راشد لم يكن إلاّ خاطراً، أو معلومةً كاذبةً نقلها له أحد الضباط الأميركيين.

كتبت رسالةً في اليوم نفسه إلى صديقي الزهراني، وتطوع ضابط الاستخبارات بإيصالها إليه مع أحد الجنود. وكم كانت مفاجأتي عظيمةً حينما وجدت نفسي بعد بضعة أيام وجهاً لوجه معه في مكتب أخيه الآمر. وكان ذلك اللقاء هو حبل النجاة الذي انتشلني، ومحا اسمي من سجل اللاجئين في المخيم إلى الأبد، ورماني في الأردن بعد ثمان وأربعين ساعة فقط.

كان الزهراني النبيل أول من اتصلت به حين وطأت قدماي الساحة الهاشمية في عمّان، ثم اتصلت بأهلي في كركوك، فصدمني والدي بنبأ مقتل أختي. وكنت أخشى أن أصدم في خاتمة الحرب الثالثة بنبأ مفاجئ عن فاجعة ثانية، لكن، لحسن الحظ، لم يحدث ذلك، وكان المتصل هذه المرة أخي ساهر، جاءني صوته عبر الانترنيت من السليمانية، في حين كنت أنتظر سماعه، بفارغ الصبر، عبر الهاتف. وتكاملت فرحتي اليوم مع فرحة عشتار التي فاجأها أخوها أيضاً بمكالمة من البصرة، عبر هاتف الثريا المحمول، وطمأنها

على أهلها.. وكان علينا أن نحتفل بحضور دلشاد، فاشترط أن لا يأتي بمفرده ما دامت السهرة عائليةً، فقلت له «لك أن تأتي بكل نساء أميركا اللاتينية»، واقترحت عشتار أن ندعو بقية أصدقائنا أيضاً، خاصةً أن اليوم كان سبتاً، وفي اليوم التالي سيكونون في حل عن أي عمل، فوافقتها واتصلت بهم، وفوجئت بقبول سرجون للدعوة، واعتذار زوجته عن الحضور معه..

خرجت بعد الظهر لشراء مستلزمات السهرة، فوجدت الشوارع مكتظةً بالسيارات.. أغلب أهل المدينة يتسوق في مثل هذا اليوم.. حاولت التخلص من المأزق بأن أسلك الشوارع الفرعية، لكن جسرَي سانت لوران المؤديين إلى السوق المركزي للخضار كانا سيسحبانني كالمغناطيس مرةً أخرى إلى الشارع الرئيسي. واتتني عند تقاطع شارع لانكستر مع رَسل فكرة التخلي عن ذلك السوق، والتوجه إلى المجمع التسويقي القريب إلى بيتنا، حيث يمكنني، رغم غلائه، أن أتسوّق منه كل ما أحتاجه، وهي أيضاً فرصة لزيارة المكتبة فيه لعلني أجد رواية دان براون المثيرة (شيفرة دافنشي)، التي أوصيت صاحبتها باقتنائها لي. كنت متلهفاً لقراءتها لأرى كيف أثار فيها غضب الفاتيكان، وجعل ملايين المسيحيين في حيرة من أمرهم تجاه ما تكشفه من أسرار تنقض العقيدة المسيحية.

لم أعثر على موقف أركن فيه سيارتي إلاّ في الجهة المقابلة للمكتبة فوجدتني مضطراً إلى جعلها محطتي الأولى. كانت صاحبتها السيدة الخمسينية القصيرة القامة كاترين منهمكةً في ترتيب بعض الكتب التي غيّر الزبائن أماكنها على الرفوف، وهي عادة سيئة كثيراً ما ألاحظها، فأجد أن بعضهم قد سحب مثلاً كتاباً عن السحاق من خانته ودسه في خانة الكتب الدينية، أو التقطَ كتاباً عن رياضة التزلج ووضعه بين الروايات أو الدراسات النقدية..

تعرفت إلى هذه المرأة، التي تتحدث الإنجليزية بلكنة فرنسية، أول مرة قبل بضعة أشهر، يوم جاءت إلى المتجر الذي أعمل فيه لتشتري بعض الملابس الداخلية، وفاجأتني حين أخرجت رأسها من كابينة القياس، وطلبت مني أن أعطي رأيي في الطقم الذي اختارته، كنت معتاداً على مثل هذه الحركات، لكن بين الشابات الصغيرات، لا النساء في مثل عمرها، عدا بائعات الهوى منهن، فأبديت، من باب المجاملة، إعجابي بطراز الطقم، ولونه المناسبين للموضة.. وزارتني بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً، ودعتني لزيارتها في المكتبة حينما عرفت أنني كاتب.. ففعلت.

سلمت على المرأة وأنا أدلف من الباب، فتركت عملها وجاءت إليّ مسرعةً، واستقبلتني بمودة حميمة:

– عزيزي سامر!.. أين كنت مختفياً طوال هذه المدة؟

شكرتها على لطفها معي، فقالت لي إنها سعيدة جداً لرؤيتي، وقد اقتنت لي الكتاب الذي طلبته، وكانت تنوي أن تأتي به إليّ، ومدت يدها إلى درج مكتبها، وأخرجت نسخةً من رواية (شيفرة دافنشي)، وفتحتها، وكتبت على صفحتها الأولى إهداءً جميلاً. حين هممت بتوديعها أصرت على دعوتي إلى تناول القهوة في الكافتيريا المجاورة للمكتبة، فقلت لها إنني مستعجل، وسألبي دعوتها في وقت آخر، إلاّ أنها أمسكت يدي وقالت:

– عدني أنك ستشرب معي كأساً من العرق بدلاً من القهوة التي رفضتها.

فبقيت مبهوتاً، لا أكاد أصدق ما سمعت.. «فرنسية وتحب العرق؟»، لكنها سرعان ما بددت حيرتي بقولها:

– كان طليقي لبنانياً.. وهذا مشروبه المفضل.. أليس هو المشروب القومي للعرب؟

– لا أدري ... ربما...

و لم تدعني أخرج إلاّ بعد أن انتزعت مني وعداً.. وقالت لي:

– سأسقيك عرق توما.. إنه نوع فاخر ومعتق منذ عشر سنين..

تذكرت صديقي الكاتب الراحل حسن، الذي حدثني ذات يوم عن قروية تشرب العرق، وتوصيه، كلما ذهب إلى كركوك، بأن يشتري لها قنينةً.. وقد ثملت ذات ليلة بعد أن أتت على نصفها، وحملت النصف الثاني، وخرجت من بيتها عند الفجر، وقادتها خطواتها إلى بيت خطيب الجامع، الذي كان يلعنها، ويشهّر بها باستمرار، فطرقت بابه بكعب القنينة، وحين خرج إليها بلباس النوم، دون أن يضع نظارته على عينيه، لم يتمكن من معرفة ملامحها في الظلمة، فسحبته من قميصه، ورمته على الأرض، وأفرغت القنينة على رأسه، ثم عرّفته بنفسها وتركته. ومن يومها لم يتجرأ على لفظ اسمها.. لا على المنبر ولا في أي مجلس.. ولا أدري إن كانت حكاية حسن حقيقيةً أو نسجها مخياله القصصي.. آه يا صديقي.. لو لم يعدموك لحدثتك الآن عن كاترين التي تهوى الكتّاب والعرق.. وربما كنتَ الآن معي لاجئاً في أوتاوا فعرفتك عليها.. وقد تغنيك عن العمل إذا صادقتها أو تزوجتها، وتصبح عندك مكتبة تضم خيرة الكتب التي تحلم باقتنائها.. وتتفرغ لمغامراتك السردية. من يدري.. ربما كنت ستقنعها بأن تمولك لتأسيس دار نشر باسم (أورا)، أو (دابادا)، روايتيك الجميلتين، فتأخذك طيبتك القروية إلى نشر مخطوطات أصدقائك المحرومين من النشر، وتبيعها بسعر التراب كي

تروّج لها.. لكن حذارِ من ذلك يا حسن.. فستدفع المرأة إلى حافة الإفلاس، وتخسر علاقتك بها!»..

- مرحباً سامر..

فاجأني صوت خشن من خلف ظهري وأنا منهمك في انتقاء الفواكه، والخضار، واستذكار حسن، فالتفت إليه وإذا بي أواجه شاهين صديق آنيا.. «ياللحظ النحس.. أخلص من كاترين الطلابة لأعثر بشاهين الدبق..». قال لي إنه هنا بالصدفة، ويريد أن يأخذ قليلاً من وقتي ليحدثني عن موضوع يشغل باله منذ مدة، وأخذ يسألني عن طبيعة علاقتي بآنيا، ويكشف عن عدم ارتياحه لكثرة لقاءاتنا، ويلمّح لي بأنها قد تتعرض إلى بعض المشاكل بسبب ذلك. لم يخفِ عني غيرته من مودتها الزائدة لي، فانزعجت منه، وكدت أطلب منه أن ينصرف عني، ولا يريني وجهه مرةً ثانيةً، إلاّ أنني تمالكت أعصابي لئلا يجد نفسه مصيباً في هواجسه، ورحت أبين له خطأ ما يدور في رأسه، موضحاً له أن ما يربطني، أنا وزوجتي، بآنيا لا يتجاوز العلاقة الثقافية والصداقة البريئة، وذكّرته بأنه، رغم كونه ينحدر من أسرة عربية، مولود في كندا، ويُفترض أن يكون متحرراً مثل الآخرين.. لكنني حين رأيت الحيرة تملأ وجهه حدثته عن السهرة التي أنوي إقامتها لأصدقائي، ودعوته إلى الحضور برفقة آنيا

إذا رغب. ورغم استجابته فقد كانت نبرة صوته وقسماته تشير إلى أنه ما انفك يحمل ضغينةً تجاهي، ويخفي أمراً ما.

اتصلت، بعد انصراف شاهين، بآنيا، ونقلت لها ما حدث، فجن جنونها، وأخذت تكيل له الشتائم! وكأنه عدوها اللدود لا صديقها، ورفضت أن تصطحبه معها رفضاً قاطعاً، وقررت أن تنهي علاقتها به إلى الأبد، وطلبت مني بمودة بالغة أن أنسى أمره، وأن لا أفتح الموضوع أمام أصدقائنا خلال السهرة..

دفعني موقف آنيا المفاجئ من شاهين إلى الاستغراب من تغير مشاعرها تجاهه إلى ما يشبه البغضاء، فتساءلت مرةً أخرى عن سر ارتباطها به أصلاً.. «كيف ارتكبت هذا الخطأ؟ إنها ما زالت شابة جميلة.. وهي امرأة مثقفة وحساسة.. في حين أن شاهين رجل عادي جداً.. بل جلف وصفيق لا يطاق.. عالمه يختلف تماماً عن عالمها، ولا صلة له بأي اهتمام من اهتماماتها الثقافية.. ما الذي يجمع بين صحفية وتاجر سيارات مستعملة لا ينظر إلى الحياة إلاّ نظرة ربح وخسارة، ولا يتعامل إلاّ مع الأرقام، والتلاعب بعدادات السيارات لاستغفال الزبائن القادمين حديثاً إلى البلاد؟ وفوق ذلك لا يحمل من طباع الرجل الغربي أكثر مما يحمله رجل آتٍ من عالم متزمت.. إنها مفارقة عجيبة.. شخصيتان متناقضتان إلى أبعد الحدود.. فكيف تأتى

لهما أن يكونا صديقين، دونما حواجز كل هذه المدة؟ لابد من لغز يغلف علاقتهما..».

لم أحاول يوماً ما أن استوضح الأمر من آنيا احتراماً لحريتها وقناعتها، رغم أنها كانت تشعر بما في داخلي من تساؤلات حول علاقتها به. إن خواء شخصيته هو السبب الأساسي لغيرته المريضة، وشكوكه العمياء.. ترى كيف ستكون ردة فعله لو علم أن آنيا سترافقني في رحلتي الأسبوع القادم؟.. «ليذهب إلى الجحيم.. حسناً فعلت بقرارها الشجاع إنهاء علاقتها به».

حين خرجت من المجمع وجدت شاهين ينتظرني. كان متوتر الأعصاب، ومبتلاً، وبين أصابعه سيجارة يشفط دخانها بطريقة غريبة، فاستوقفني ليعترف لي، وهو يلوح بيده، بأن آنيا رفضت مرافقته لها إلى بيتي، وأهانته وأنهت علاقتها به.. ثم طلب مني أن أدعوه وحده رغم أنفها لأثبت له أن علاقتها بي بريئةً، فاعتذرت عن تلبية طلبه، وأوضحت له أن حضوره سيسبب لي مشكلةً أمام أصدقائي.. ودعوته إلى تسوية مشكلته مع آنيا دون أن يشركني فيها. لكن شاهين حاول أن يستوقفني مرة ثانية فلم أعره اهتماماً، واتجهت إلى سيارتي مسرعاً لأهرب من زخات المطر التي ازدادت وكأن الشتاء عاد أدراجه من جديد..

بقيت جالساً بعض الوقت منتظراً أن يخف المطر.. دخنت سيجارةً، وأنا أتطلّع إلى المكتبة من خلف الزجاج، فرأيت كاترين، التي عادت إلى ترتيب كتبها، وقد بدت ملامحها غير واضحة، وخيل لي وهي ترفع ذراعها إلى الرف أنها أصبحت أكثر طولاً مما كانت عليه قبل قليل، فدهمتني فكرة جهنمية مباغتة.. لماذا لا أستغل اندفاعها إليّ، فأمنحها ما تريد ثم أعرض عليها رغبتي في العمل معها بحجة أن أظل قريباً إليها، فها هنا سيكون عالم الكتب مريحاً لي أكثر من عالم قمصان النوم، والفساتين، والمعاطف النسائية، وأنا في الأخير كاتب، وهذه الثروة من الكتب ستجعلني قادراً على أخذ كل ما أحتاج منها إلى البيت لقراءته.. ليس أنا فقط بل عشتار أيضاً.. لكن ماذا لو علمت بعلاقتي الجنسية مع هذه الفرنسية؟ لا توجد امرأة في العالم يمكن أن تتسامح في مسألة كهذه حتى لو قدرت دوافع زوجها البراغماتية.. ستقول لي «أنت لست مرغماً على هذه العلاقة لأنك لست عاطلاً عن العمل.. وكيف تسوّغ لنفسك أن تنام مع امرأة أخرى؟». شطبت الفكرة من رأسي وقدت سيارتي إلى البيت.. لكنها سرعان ما راودتني مرةً أخرى.. وأخذت تغريني على الأخذ بها، والكف عن مقاومتها، وصارت تبدي لي مفاتنها بصور شتى مثل فتاة لعوب، وكدت أصدم شاباً يقود دراجته أمامي لولا أنه انحرف

عن السيارة قليلاً، فخففت من سرعتي، ولعنت كاترين وأجدادها.. ثم تساءلت مع نفسي «إن حبل الجنس قصير مثل الكذب.. فمن يضمن أن لا تشبع هذه المرأة المزاجية ظمأها مني، ثم تملني بعد بضعة أشهر؟ هل سأستمر موظفاً عندها وهي ليست في حاجة إلى عملي أصلاً؟ أشك في ذلك.. ستطردني شر طردة حينما تجد شخصاً آخر يوافق طبيعتها ويملؤها ملئاً.. ألم تهجر زوجها الأخير و لم يمض على زواجهما سوى أشهر؟ إن امرأةً قصيرةً كهذه تحب النكاح كثيراً.. والله وحده يعرف كم من الرجال عاشرت».

أطلعت عشتار على لقائي بشاهين، فقالت إن آنيا اتصلت بها وأخبرتها بكل شيء، وقادهما الحديث إلى كشف جزء من سر علاقتها به، لكنها الآن غاضبة عليه جداً، ولا تريد أن تراه ثانيةً..

قلت:

– رجل فارغ ووضيع.. ليذهب إلى الجحيم.. هل من جديد؟

– لا شيء سوى أن ممثل العراق السابق في الأمم المتحدة قال وهو يغادر مكتبه إن اللعبة قد انتهت..

فضحكتُ، وقلت:

– هذا خبر قديم.. لكن ما أراه أن اللعبة لم تنته، وأشكّ في أنها ستنتهي.

روزا

عثرتُ في حقيبة قديمة لأبي على أوراق مصفرة مكتوبة باللغة العربية، فخمّنت أنها مكتوبة بخط يده، وأيقنت بأنها لابد أن تكون مهمة وإلاّ لما احتفظ بها كل تلك السنين.. لم أستطع قراءتها بالطبع لأنني لا أجيد القراءة بالعربية، فحملتها إليه وسألته عنها.. أخذ يتصفحها ورقةً ورقةً، وقال بصوت واهن تكاد تخنقه العبرة «كتبت هذه الأوراق بعد ولادتك بأعوام قليلة... إنها جزء من مذكرات لم أكملها». كنت متلهفةً جداً لمعرفة محتواها، فقررت أن أعرضها على سامر أو عشتار لترجمتها لي.. فكرت في أنها ربما تصلح للنشر إذا رغب أبي، فحملتها معي، وذهبت إلى بيت سامر في تلك الليلة التي لبى فيها عدد من أصدقائه دعوته، ابتهاجاً بخروج أهله سالمين من الحرب..

سألني سامر وهو يستقبلني في الباب:

– هل لا زلتِ تفكرين في الذهاب إلى العراق؟

فأجبته:

– فكرت طويلاً بكلامك فعدلت عن الفكرة، إلاّ إذا جاءت حكومة علمانية منتخبة..

فطبطب على يدي وقال:

– وهذا يعني أنك لن تسافري أبداً..

ضحكتُ وسرت في الممر المؤدي إلى حديقة البيت، وبينما كنت ألقي نظرةً، عبر الباب الزجاجي، إلى الضيوف الذين سأجالسهم فوجئت بوجود يشار ضمن المدعوين، مندمجاً في حديث جانبي مع فتاة تبدو ملامحها أنها من أميركا اللاتينية. كنت مستاءةً جداً منه لأنه تحرش ذات يوم بواحدة من صديقاتي في معرضي السابق، فأهنته بأسلوب مهذب جعله يغادر القاعة من غير أن ينبس بكلمة.

تراجعتُ والتفتُ إلى سامر وقلتُ له:

– أنا آسفة.. لا أطيق مجالسة هذا التركماني.. سأمكث هنا في الداخل نصف ساعةٍ وأغادر.

فاستغرب سامر، وسحبني من يدي إلى مكتبه، وحين بينتُ له سبب انزعاجي شعر بالحرج، ورجاني أن أقبل اعتذاره بدلاً من يشار، فصمتُّ قليلاً ثم استدرتُ إلى المكتبة، والتقطتُ من أحد رفوفها تمثالاً صغيراً من الخشب لرأس امرأة، وأخذت أتأمل وجهها الذي بدا على ملامحه شيء من الترقب والتوتر، ثم قلت:

– يصعب علي أن لا أكتفي باعتذارك..

فضلتُ أن لا أعرض الأوراق على سامر أمام المدعوين، وأنا أتعرّف إلى بعضهم أول مرة، فانتهزت فرصة انشغاله، هو وعشتار، في المطبخ لأحدثه عنها، فطلب مني أن أطلعه عليها.. قرأها أول مرة لنفسه على عجل، ثم قال مبتسماً:

– ليس فيها ما يمنع أن يطلع عليها الأصدقاء.. إنها شهادة حية تعزز ما تحدثنا به في بيتكم عن هجرة اليهود من العراق.. وربما كان دلشاد أجدر مني في ترجمتها إلى الإنجليزية بدقة..

ترددتُ بدايةً في قبول اقتراحه ثم وافقت.

حين جلست إلى جانب آنيا لاحظت أن يشار يتحاشى وقوع عينيه في عينيّ، لكنه ما إن شرب كأسه الأولى حتى بدأ يبصبص كالمشدوه على فخذي آنيا.. بعد مضي نحو ساعة استأذن سامر من أصدقائه بأن يقرأ لهم الأوراق، طالباً من دلشاد، أن يتولى الترجمة:

«ولدت في بغداد ذات يوم بارد من أوائل يناير 1918، وكانت ولادتي في بيت مجاور لكنيس مئير، غير بعيد عن سوق الشورجة. انتقلت بعد ذلك أسرتي إلى حي قنبر علي، ثم إلى شارع التوراة قرب كنيس حسقيل، واستقرت أخيرا في البتاويين.

في أواخر 1949 وصلنا إلى تل أبيب.. كانت رحلةً شاقةً من طهران تجرعنا فيها معاناةً شديدةً.. لكننا لاقينا ما هو أشد منها عند وصولنا.. التمزق النفسي والعائلي الذي أصابنا، واللامبالاة التي جوبهنا بها، والاحتقار الذي كان سمة كل من استقبلنا هناك.. كنت أتجول بين القادمين كلما منحت لي الفرصة، وأبحث عن أقربائي وأصدقائي ومعارفي.. لقد تحول الجميع إلى أعزاء قوم ذلوا، واستبيحوا مرتين: مرةً بيد حكومة العراق، ومرةً بيد حكومة إسرائيل التي لم تدرك خطورة ما قامت به تجاه طائفة يهودية من أعرق الطوائف بالعالم..

تعرضنا هناك إلى حرب حضارية سافرة.. كان الجهل يخيم على عقل كل من قابلناه.. الجهل بنا وبماهيتنا هو الإهانة الكبرى التي شعرنا بها ونحن نتجول كأشباح، فنرصد الأعمال، ونبحث عن أمكنة سكن ملائمة، أو نقضي أوقاتنا في معسكرات الاستقبال، أو فيما يسمى بالمعابر التي أخذنا نسميها (المقابر) ونحن في منتهى الجد.. وظهرت للجميع مخاطر من نوع لم يحلموا به، ولم يفكروا بإمكانية وجوده أصلاً.. كان أعظم هذه الأخطار وأشنعها هو خطر انهدام وحدة العائلة، فقد اضطر الآباء إلى الاعتماد على الأبناء البالغين، وخرجت النساء إلى العمل القاسي.. وأصبح

للمسافات قيمتها.. تفرقت العائلات أيدي سبأ، الشباب مجندون، البنات والأولاد يعملون كل على مسافة من البيت أو التخشيبة، وأما الأب فإما أن يكون قد هبط إلى الأرض يعمل فيها بالفأس بعد أن خسر تجارته، ونسي مهنته القديمة، وإما أقعده الهول والمرض عن ذلك، فاكتفى من الغنيمة بمساعدات الأبناء...».

توقف سامر عن القراءة، ودعا ضيوفه إلى ملء كؤوسهم، وهو يتطلع إلى وجوههم التي أصابها ما يشبه الوجوم، وخاصةً آنيا ولوبيتا صديقة دلشاد، أما أنا فبقيت أنتظر ما ستكشف عنه الصفحات التالية.. أخرج دلشاد آلته الموسيقية من غلافها، ووضعها في حضنه ريثما تتاح له الفرصة ليبدأ بالعزف، و لم يكفّ يشار عن التحديق إلى فخذي آنيا كلما باعدت بينهما بعفوية.

ارتشف سامر نصف كأسه ثم واصل القراءة:

«لقد أصبح القادمون مهاجرين مشتتين حقاً، فقد تركوا ديارهم خالية الوفاض من كل شيء.. وتبين لنا في تلك الأيام أن أحداً في إسرائيل لم يكن ينتظر أن نأتي إلاّ هكذا.. وأننا بالنسبة للجميع يجب أن نأتي هكذا.. كنا نتذكر مؤسساتنا العظيمة، وآثارنا المجيدة في العراق ونحن نتبادل نظرات خرساء، وعندما كنا

نتقدم إلى الوسط الإسرائيلي الثابت الأركان، بحكم كونه قد وصل قبلنا، وضرب جناحيه قبلنا، فقد كنا نتبادل نظرات نكراء لم يكن أحد طرفيها يفهم الطرف الآخر.. إن أعجب ما صعب علينا هضمه هو أن البلاد التي قدمنا إليها لم تكن تعرفنا مثلما كنا نحن نعرف أنفسنا وتاريخنا، وتعزز لدينا الاعتقاد، وبمرور الزمن، بأنّ الجهل لم يكن جهلاً بل تجاهلاً مقصوداً، وفي كل دراسة طالعناها عن يهود أوروبا الشرقية كنا نحمل على الاعتقاد بأن هؤلاء فقط هم يهود العالم، ولا مكان بينهم لليهود العرب، والقادمين من الشرق، المعروفي الأصل والفروع..

كان مؤلماً ومهيباً معاً أن تخلو الكتب المدرسية من تاريخنا، ومن ثقافتنا، ومن أسماء كتّابنا ومثقفينا وحاخامينا وعلمائنا وشعرائنا ووجهائنا، نحن الذين أنتجنا في القرن الأخير فقط طائفةً من أحسن كتاب العراق وقضاته ومفكريه.. كنا نستجدي هناك اعتراف البلاد بنا، فشعرنا بأننا كالأيتام على مائدة اللئام.. نتذكر بحزن أن حكام العراق آنذاك كانوا يصفوننا بأننا يهود، وقد تركنا العراق كيهود، ووصلنا إسرائيل كعراقيين.. المنظر مأساوي ومضحك في الوقت نفسه، فقد ساعدنا حكام العراق على تثبيت هويتنا، في

حين أن أبناء ديننا ساعدونا مرةً أخرى على تأكيد عراقيتنا وتثبيتها.. كان الشعور مؤلماً ومثيراً للحزن في آن معاً...».

لم نمكث طويلاً في إسرائيل.. غادرناها إلى أميركا أولاً، ثم استقر بنا المقام هنا في كندا.. لقد اتضح لنا تماماً أن قلعنا من جذورنا كان مؤامرةً خبيثةً..

ذات يوم من أيام يوليو عام **1952**، وأنا في نيويورك، قرأت اعترافاً صريحاً بتلك المؤامرة على لسان ديفيد بن غوريون، رئيس الوزراء، في جريدة (كمفر) الناطقة باليديشية يقول فيه «إنني لا أخجل من الاعتراف بأنني لو كنت أملك، ليس فقط الإرادة، بل القوة أيضاً، لانتقيت مجموعةً من الشباب الأقوياء والأذكياء والمتفادين والمخلصين لأفكارنا والمشتغلين بالرغبة، للإسهام في عودة اليهود إلى إسرائيل، ولأرسلتهم إلى البلدان التي بالغ فيها اليهود بالقناعة الآثمة، وستكون مهمة هؤلاء الشباب أن يتنكروا بصفة أناس غير يهود، ويرفعوا شعارات معاداة السامية. إنني أستطيع أن أضمن أنه من ناحية تدفق المهاجرين إلى إسرائيل من هذه البلدان سوف تكون النتائج أكبر بعشرات آلاف المرات من النتائج التي يحققها آلاف المبعوثين الذين يبشرون بمواعظ عديمة

الجدوى...». ورغم أن بن غوريون حاول في هذا الاعتراف أن يعبر عن التمنيات، ويخفي الأفعال، فإنه في الواقع نفذها عندما أرسل مبعوثيه إلى العراق والمغرب ليقتلع اليهود من هناك بالقوة والأعمال الإجرامية، حتى تمكن من جلب مئات الألوف منهم بعد أن عاش أجدادهم وآباؤهم في تلك البلاد قروناً طويلةً...».

حين انتهى سامر من قراءة الأوراق كانت رشيدة، الجالسة إلى جوار زوجها المستغرق في نظراته الشبقة إلى آنيا، أول المعلقين، قالت لي:

– رغم أن أباك على حق في قوله إن اليهود عاشوا قروناً طويلة في المغرب، فإن مواطَنة الكثير منهم ضعيفة.. وأستطيع القول إن المئات منهم كانوا براغماتيين إلى أقصى درجة، ففي عهد الملوك المغاربة كانوا يتقربون إلى هؤلاء الملوك بتقديم هدايا من ذهب يسيل لها لعابهم، وعندما احتل الفرنسيون المغرب هللوا لهم، وكانوا في طليعة الداعمين لهم. وبعد إنشاء إسرائيل تورط الكثير منهم في قضايا تجسس لصالحها، لكن الحكومات المغاربية لا تريد أن تفصح عن هذه الملفات.. ولا زال العديد من اليهود الباقين في المغرب يواصل تقديم خدمات سخيةً لها.. أما هجرتهم فلم تنقطع حتى الآن.. بل ازدادت بعد تفجيرات 16 مايو الأخيرة، والاعتداءات المتفرقة التي

كان بعض اليهود من بين ضحاياها.. وقد استغلها الموساد في إشاعة الخوف في نفوس الجالية لدفع شبابها إلى الهجرة..

لم أنزعج من تعليق رشيدة، لكني وجدت فيه بعض المبالغة فقلت:

– ربما كانت مواطَنة بضع مئات منهم ضعيفةً في المغرب، وليس أكثرهم.. أما بالنسبة للتجسس فثمة عرب مسلمون ومسيحيون جواسيس أيضاً.. وفي رأيي أن هجرة اليهود المغاربة الآن خطأ كبير، والأعمال الإرهابية باسم الدين الإسلامي تخدم مخططات الموساد..

لكن سرجون الذي بدا أنه قد ثمل قليلاً قاطعني بحدة:

– المسيحيون ليسوا جواسيس مدام روزا..

– لم أقل جميعهم، بل بعضهم..

– أتحدّاكِ أن تذكري لي اسماً واحداً.

– لا يحتاج الأمر إلى تحدٍ.. منير روفا مثلاً..

– ومن يكون روفا هذا؟

– أحقاً لم تسمع باسمه وهو مسيحي عراقي؟ إنه الطيار الذي فرّ بطائرته الميغ إلى إسرائيل في الستينيات..

قبل أن يرد سرجون تدخل سامر بأسلوب دبلوماسي لينهي الموضوع:

– لا يوجد شعب على وجه الأرض، بغض النظر عن ديانته، ليس فيه أفراد تجندهم أو تورطهم أجهزة مخابرات دول أخرى في أعمال جاسوسية مضادة لمصالح بلدهم.. كل يوم نسمع عن ملفات التجسس في الاتحاد السوفييتي السابق، وألمانيا، وأميركا، وفرنسا، وفيتنام، وكوبا، وفلسطين، ومصر...

بيد أن دبلوماسية سامر لم تلقَ آذاناً صاغيةً، فتدخل الآخرون أيضاً في الجدال الذي احتدم على نحو غير متوقع، و لم يقطعه إلاّ رنين جرس هاتفه.. كان المتحدث صديقاً مقرباً له يقيم في معسكر للاجئين غير الشرعيين في ألمانيا.. نقل خبراً عن إعلان مجموعة من الدول الأوروبية خطةً لإعادة عشرات الآلاف من العراقيين إلى بلدهم بحلول نهاية يونيو.. وطلب مساعدة سامر في إيجاد طريقة يصل بها إلى كندا للتخلص من المأزق.. لكن سامر لم يعده بشيء، وظل يفكر عدة دقائق، ثم قال وكأنه اهتدى إلى حل ما:

– توجد طريقة وحيدة لنقله إلى كندا هي أن يتزوج زواجاً شكلياً من امرأة كندية.. لكن أين أجد امرأةً مستعدةً للذهاب إلى ألمانيا كي تعقد قرانها عليه؟ ومن يتكفل نفقات كل ذلك؟

صمت الجميع فبادرتُ قائلةً:

– أنا أتبرع بتحمل النفقات، وعليك أن تحل مشكلة المرأة..

قالت آنيا:

- المرأة موجودة..

فحدّق الجميع إليها بنوع من الدهشة:

- من أجلك يا سامر..! سأذهب أنا.. لكن بعد عودتك من رحلتك إلى الهنود الحمر..

رمقتني عشتار بنظرة خاطفة، ففهمتُ أن آنيا أرادت أن توحي لأصدقاء سامر بأنه سيسافر وحده، وتراجع يشار إلى الخلف وقد ارتسمت على وجهه أمارات الضيق!

يشار

هل أخطأت حين اعترفت لسامر بأنّ آنيا أثارتني؟ لقد كان رده مواراباً، وربما مبطّناً إلى حد ما، لكنني لم أرد أن أزعجه في تلك الليلة وهو يحتفي بنا ابتهاجاً باطمئنانه على أهله. لا أظن أنني أخطأت، فجسد تلك المخلوقة الممشوقة القوام يثير أي كائن حتى لو كان من نسل الملائكة، فكيف بي أنا الكائن الأرضي المفطوم عن جسد زوجتي منذ عامين؟ آه من المرض اللعين الذي ابتليت به.. يقول طبيبها إنه نادراً ما تصاب به امرأة في مقتبل العمر، لكنه الحظ الأعمى حين يهبط على المرء بغتةً كما تهبط عليه قذيفة هاون خرساء. مرةً شكوت لطبيبها معاناتي، فاقترح عليّ، دونما خجل، أن أفعلها من الموضع الآخر، فقلت له إنني أمقت هذا الأمر، وحتى لو اضطررت إليه، فرضاً، فإن عقدةً في حياة رشيدة تجعل منه شيئاً مستحيلاً. وسألني إن كنت راغباً في إطلاعه على تلك العقدة، فأخبرته بأنها تعرضت، وهي في الثانية عشرة من عمرها، إلى اغتصاب جماعي من الموضع الذي يقترحه، وما برحت ذكراه الأليمة تنغص عليها نومها في بعض الليالي.

رغم حب رشيدة الكبير لي فإنها منحتني العذر، على مضض، في معاشرة امرأة أخرى إلى حين شفائها من علتها، شريطة أن تكون صديقةً لا مومساً شرها أكثر من نفعها، ولذلك لم تشعرني باستيائها عندما لاحظتني أركز بصري على آنيا، بل همست في أذني، بعد انتهاء دلشاد من ترجمة مذكرات والد روزا، متسائلةً «يبدو أنك متيم بجسدها؟»، فظنت عشتار أنها وبختني على تصرفي غير اللائق، لكن تهذيبها جعلها تشرق بابتسامة بدلاً من ضحكة تجلب انتباه الآخرين، وأشارت بيدها إلى حلقة الزواج في إصبعي ملمحةً إلى أن ما أفعله أمر مثير للاستغراب، إلاّ أن الأمر المثير للاستغراب بالنسبة لي كان موقف آنيا نفسها، فلم تبدر منها أية ردة فعل، ولا أدري إن كانت تتجاهلني أو أنها لم تحس بي، خاصةً حينما ثملت بعد الكأس الثانية، وطفقت تتمايل في مقعدها صوب روزا تارةً، وصوب سرجون تارةً أخرى، فاسحةً المجال لفستانها القصير بأن يكشف المزيد من عري فخذيها اللذين ينتهيان بكنز تستره خرقة شفافة داكنة الحمرة.

طلبت من رشيدة في اليوم التالي للسهرة أن تجر لسان عشتار إلى الحديث عن حياة آنيا، فأطلعتها على كل ما يهمني من أمرها، ووجدت أن علاقتها الملتبسة بشاهين لن يكون مدخلاً مناسباً

للتقرب إليها، بل سفرها إلى ألمانيا، وخططت للسفر معها في الرحلة نفسها بحجة زيارة أختي المقيمة هناك لأمر طارئ. لكن كيف سأعرف موعد سفرها وعلاقتها بنا لا تتعدى حدود التعارف الأولي؟ ومن يضمن أن روزا لم تحدثها بسوء عني؟ وهل سأخفي الأمر عن رشيدة أم لا؟ فكرت في دعوتها إلى حضور افتتاح معرض تشكيلي لابن خالتي كي تكتب عنه في الجريدة، ومن ثم أعرض عليها دعوةً ثانيةً إلى وجبة عشاء، وبذلك أبدأ أول فصل من فصول الصداقة التي أطمع بها. نفذتُ الفكرة، فاستجابت آنيا للدعوة، وحضرت بفستان كهرماني من نسيج خاص يسمح بنفاد الهواء إلى جسدها، ويليق بسهرة راقصة، فأضرمت في داخلي شهوةً جامحةً، وتمنيت أن أحملها بين ذراعي، وأهبط بها إلى قبو المبنى، وأخلع عنها فستانها، وأمددها على البلاط البارد، وأغوص في بحرها العذب. مكثت في المعرض نحو ساعة، جلسنا خلالها على انفراد لتناول القهوة، والحديث عن اللوحات الفنية المعروضة، إلاّ أنها تملصت عن الدعوة الثانية، متعللةً بأنها تنتظر في البيت زيارةً من روزا. ورغم أن شعوراً حاداً بالخيبة ساورني أمّلت نفسي بأن أختلق مناسبةً أخرى لدعوتها. وبعد بضعة أيام اهتديت إلى تلك المناسبة، إنها مناسبة نشر مقالها عن المعرض! اتصلت بها في الجريدة، ورحت أطري على ما

كتبته بتملق شديد وكأنها أفضل ناقدة فنية في العالم، فغمرتها الفرحة، وأسرّتني بأنها لم تسمع من قبل إطراءً كالذي سمعته مني، فاستغليت ذلك لأقول لها إن ما عبّرتُ عنه أقل بكثير مما تستحقه، ويسعدني أن ألتقيها لأبوح لها بكل ما تركته مقالتها من أثر في نفسي، فسألتني أين أفضل أن نلتقي، فأجبتها بأن ما أفضله هو على مائدة عامرة على سطح يخت يشق مياه نهر الريدو. اتفقنا على أن يكون لقاؤنا في عطلة نهاية الأسبوع، لكن الحظ الأسود تربص بي مرةً أخرى، فقد اتصلت آنيا قبل الموعد بساعات لتخبرني بتعرض والدتها إلى انتكاسة صحية، واضطرارها لمرافقتها إلى المستشفى. وهكذا بدلاً من أن ألتقيها في مكان رومانسي التقيتها في عالم المرضى الذي أكرههه أكثر من أي مكان آخر، وهناك وجدتني أمام مفاجأة لم أكن أتوقعها، كان سامر وعشتار وروزا قد سبقوني إلى المستشفى. ورغم أن سامراً لم يسألني كيف عرفت بدخول أم آنيا إلى المستشفى، فإنني قرأت ذلك في عينيه، وغادرت قبلهم بحجة عيادة مريض آخر من معارفي.

كان يجب أن أنتظر أسبوعاً ثانياً حتى تتاح لي فرصة تجديد دعوة آنيا، وكنت أتصل بها يومياً في المستشفى للاطمئنان على صحة

والدها. وحين أخبرتني بأنها تماثلت للشفاء، وستغادر المستشفى عرضت عليها مشروع لقائنا في اليخت النهري، ففاجأتني قائلةً:

- أفضل أن نلتقي في تم هورتن.

تنهدت بعمق وقلت:

- كما تشائين..

فصفعتني بقولها:

- ستكون فرصةً جيدةً لأتعرف على زوجتك مرةً أخرى.

فكرت قليلاً، وقلت:

- كنت أُفضِّل أن نلتقي وحدنا.. على أية حال سأسألها إن كانت راغبةً..

قطع ردها الذي ملأني غيظاً الشعرة الرفيعة بيننا، فلم أحاول أن أتصل بها مرةً أخرى، وقررت أن أبعدها عن ذهني نهائياً، وأبحث عن امرأة غيرها، فكان دلشاد خير معين لي في ذلك. وثقت علاقتي به أكثر فأكثر، فوجدته، مثلما قال سامر بالفعل، لطيفاً جداً، وشكوت له مشكلتي، وصارحته بحاجتي إلى صديقة تعوضني، فتعرفت من خلال إحدى صديقاته إلى فتاة صينية جميلة تدعى تشانغ، ولم أكشف لها أمر زواجي. صحبتها، ودلشاد وصديقته لوبيتا إلى سهرة

رائعة في اليخت، دفعت فيها ربع ما أتقاضاه من عملي خلال شهر. وصرت أختلي بها بعد ذلك في شقة دلشاد كل أسبوع تقريباً.

في أول رقصة لي مع تشانغ اختطلت في أنفي رائحة عطرها برائحة غريبة في شعرها تشبه رائحة السمك! فهمست في أذنها:

– يذكرني عطرك برائحة شبيهة برائحة السمك..

ابتسمت، وقالت:

– أنا آسفة جداً.. يبدو أن رائحة السمك لا زالت عالقةً في شعري.. كان الوقت ضيقاً اليوم فلم أغسله..

قلت:

– مصادفة غريبة! أنا اليوم أيضاً تغديت سمكاً؟

ضحكت بصوت عالٍ أثار انتباه الراقصين في الحلبة، وقالت:

– أنا لم أتغدّ سمكاً، بل كنت أبيعه طوال النهار..

– أتعملين بائعة سمك؟

– في مسمكة والدي بشارع سمرسيت المعروف بالحي الصيني.

– يا لها من مفاجأة! لقد اعتدت أن أشتري من ذلك الشارع سمك الزبيدي.

– أوه.. بالفعل إن أغلب الزبائن الذين يطلبونه من العرب.

– إنه سمك رقيق مثلك، لكنه يموت بمجرد أن تصطاده شباك الصياد وهو في الماء.

ضحكت مرةً أخرى، ووضعت رأسها على كتفي، وقالت:

– لنرَ إذاً إن كنتُ سأموت حين تصطادني..

– بل ستنتعشين يا سمكتي.. آه لو أنك زرتني اليوم في الصالون لغسلت شعرك وسرحته لك أحلى تسريحة..

أصرت تشانغ عقب انتهاء السهرة على أخذ حمام في شقة دلشاد لتزيل الرائحة عنها، وعندما بدأنا نتجرد من ملابسنا تحت ضوء الصالة الشاحب أحسست في البداية كأنني أتجرد من طبقات متراكمة من الكبت، لكني ما إن رأيتها عاريةً أمامي حتى انقلب إحساسي فجأةً إلى شعور تتداخل فيه الرغبة والقلق والإثم، وخيّل لي أن رشيدةً تراقبني من خلف ستارة الشرفة، ودموعها تنهمر بصمت على وجنتيها، بقيت جامداً أحدّق إلى الزجاج الذي يعكس جسدينا الشبحيين، فظنت تشانغ أنني أعاني من مشكلة ما، وسحبت يدي ووضعتها على صدرها، وقالت:

– أتفهّم قلقك يا صديقي.. لقد كان زوجي أكثر منك ارتباكاً ليلة زواجنا..

فقلت مندهشاً:

- زوجك؟

- كنت متزوجةً والآن حرة. كان ذلك قبل عامين.. تزوجت شاباً يعمل في الجيش.. كنت لا أزال عذراء، فاكتشفت ليلة الزواج أنه لم يمارس الجنس من قبل بسبب أسرته المحافظة. كان أبوه أسقفاً أرثوذكسياً لقنه تربيةً دينيةً صارمةً ترى أن أي استمتاع حسي بلذات الحياة ومباهجها ليس إلاّ خطيئةً كبرى وإثماً عظيماً. وبإلحاح من ذلك الأب المتزمت حاول زوجي إرغامي على التحول من الكونفوشيوسية التي يدين بها أهلي إلى المسيحية الأصولية، فرفضت الاستجابة له، وانقلبت حياتنا بسبب ذلك إلى جحيم لا يطاق، فقررت أن أتركه وأعود إلى أسرتي.. أما هو فقد أراد أن يداري فشله بالهروب إلى أفغانستان لمحاربة الإرهاب، حيث انضم إلى وحدة عسكرية كندية في قندهار..

- هل ما زال هناك حتى الآن؟

- لا.. قُتل بعد شهرين إثر تعرض وحدته لقصف بالقنابل الحارقة من طائرة أميركية.

- أنا آسف.. هل حزنت عليه؟

- في البداية فقط.. ثم شعرت بأنني تحررت من زواج فاشل.

استلقت تشانغ على الأريكة مستعدةً لاستقبالي برغبة شديدة، فأنستني إحساسي بالقلق والإثم، ورحت أداعب جسدها العشريني

بمثابرة، وهي تسترخي تحت أصابعي، وتتلوى، وتطلق تأوهات ذات إيقاع متصاعد يصل إلى أسماع دلشاد، ولوبيتا المندمجين في عالمهما الخاص على بعد خطوات عنا، رغم أنهما أغلقا باب غرفة النوم التي يسميها دلشاد بغرفة العمليات!

كانت معلوماتي عن الكونفوشيوسية لا تتعدى كونها ديانةً أرضيةً ترجع إلى الحكيم كونفوشيوس، وحين صاحبتُ تشانغ حدثتني في إحدى الليالي قائلةً إن مؤسسها لم يكن نبياً، ولم يدّعِ هو ذلك، لكن المؤمنين به يعتقدون أن السماء فوضته ليقوم بإرشاد الناس وهدايتهم. كان يسعى إلى تحقيق المدينة الفاضلة، وهي مدينة مثالية طبعاً، إلاّ أنها تختلف عن مدينة أفلاطون الفاضلة بكونها مدينةً مثاليةً في حدود الواقع الممكن التحقيق، أما مدينة أفلاطون فإنها تجنح إلى مثالية خيالية بعيدة عن مستوى التطبيق البشري القاصر. استغربت لمقارنتها بين أفلاطون وكونفوشيوس وهي بائعة سمك، فسألتها عما إذا كانت تقرأ الكتب الفلسفية، فقالت إن تخصصها الجامعي هو الفلسفة، لكنها لم تجد وظيفةً تعنى بها ففضلت العمل في مسمكة والدها! ثم استأنفت حديثها عن كونفوشيوس، وأنا أصغي إليها مثل تلميذ جاهل، قائلةً إنه دعا إلى إحياء الطقوس والعادات والتقاليد الدينية التي ورثها الصينيون عن أجدادهم، مضيفاً إليها من فلسفته وآرائه في الأخلاق والمعاملات والسلوك القويم. وتقوم مبادئه

على عبادة إله السماء، الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد. تذكرتُ حماها الأسقف فسألتها إن كان كونفوشيوس متشدداً مثله أم مرناً، ففركت براحة يدها شعر صدري وقالت إن نظرته إلى علاقة الرجل بالمرأة تأثرت، كما يبدو، بكونه ثمرةً لزواج غير شرعي، فقد تزوج وهو دون العشرين، وأنجب ولداً وبنتاً، لكنه فارق زوجته بعد سنتين لعدم قدرتها على تحمّل دقته الشديدة في المأكل والمشرب والملبس، فطبعتُ قبلةً على رقبة تشانغ الملساء وسألتها:

– ألا ترين أن ثمة تشابهاً بينك وبين تلك الزوجة؟

– ربما ألتقي معها في عدم تحمل الضغوط..

– أنت إذاً من النوع الذي لا يساوم أبداً؟

– أنا لم أرفض تغيير ديانتي لأنني أومن بها، بل لأن حريتي أهم من كل الأديان.

– هذا يعني أن حريتك تتقاطع مع الكونفوشيوسية؟

– أكيد يا صديقي.. لأنها مثل سائر الأديان الأخرى محافظة وتقليدية إلى أبعد الحدود، فالإنسان في تصورها ليس إلاّ نتيجةً لتزاوج القوى السماوية مع القوى الأرضية، أي لتقمص الأرواح السماوية في جواهر العناصر الأرضية الخمسة، لذا وجب عليه أن

يتمتع بكل شيء في حدود الأخلاق القويمة من وجهة نظرها، وهي أخلاق تتقاطع مع حريتي.

كنت أعرف سابقاً أن ثمة أربعة عناصر في الكون هي النار، والهواء، والماء، والتراب، وأن للإنسان خمس حواس، وخمسة أصابع في كل من يده ورجله، وخمس فتحات في جسده، وليس لي علم بوجود خمسة عناصر أرضية، فضحكت تشانغ حينما أحست بعلامات الحيرة في عيني، وقالت:

– العناصر الأرضية حسب الكونفوسيوشية خمسة: المعدن، والخشب، والماء، والنار، والتراب. والأضاحي والقرابين خمسة، والموسيقى لها خمسة مفاتيح، والألوان الأساسية خمسة، والجهات خمس: شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، ووسط. ودرجات القرابة خمس: الأبوّة، والأمومة، والزوجية، والبنوّة، والأخوّة. والكتب الأساسية في الفكر الكونفوسيوشي خمسة: كتاب الأغاني، أو الشعر، وكتاب التاريخ، وكتاب التغييرات، وكتاب الربيع والخريف، وأخيراً كتاب الطقوس. فتعجبت من أهمية الرقم خمسة، وتذكرت فجأةً أنه ينطبق على اسمها أيضاً، فقلت:

– أنت فيلسوفة داهية يا تـــ (1)..شـــ (2)..ا (3)..نـــ (4)..غ (5)!

حينما استيقظتُ متأخراً في ظهيرة اليوم التالي قالت لي رشيدة:

- ماحكايتك مع الرقم خمسة؟ لقد كنت تهذي في نومك طول الوقت بأن النجمة تتكون من خمسة أضلاع، والأعضاء الدائمين في مجلس الأمن خمسة، والفنادق الراقية ذات خمس نجوم، وأيام العمل خمسة، والصلاة في الإسلام خمسة أوقات، ولقشلة كركوك خمسة أبواب، ولكاسترو خمسة أولاد من زوجته المخفية، وأركان الإسلام خمسة، والتدخين يقتل خمسة ملايين شخص سنوياً، وخمسة مليارات طن من التربة تتآكل سنوياً في الصين، والأطفال العرب معرضون للخطر بنسبة خمسة أضعاف نظرائهم من اليهود، وخمسة أكواب يومية من الماء تقي من سرطان القولون والثدي والمثانة، وقطع الشجر أرخص خمس مرات من وقود النفط، والحضارات الإنسانية الكبرى خمس: حضارة الشرق الأقصى، والحضارة الهندية، والحضارة المسيحية، والحضارة الإسلامية، ثم الحضارة الغربية، وخمسة عوامل تجعل شركتك كياناً لا يُستغنى عنه.. أنا غاضبة جداً عليك..

- تغضبين لأنني حلمت؟

- بل لأنك ذكرت كل تلك الخمسات ولم تذكر أن اسمي يتكون من خمسة أحرف.. لماذا؟

فتثاءبتُ، وقلت:

- ستحتاجين يا رشيدة إلى خمسة أيام لتستوعبي هذه الفلسفة!

سامر

همست عشتار في أذني، وهي تودعني في المطار «اتصل بي عند نزولك من الطائرة مباشرةً.. ولا تنسَ.. أنت في غرفة وهي في غرفة.. ولا تكثر في المشروب لأنه لا أمان له..». كانت آنيا تقف على مسافة بعيدة عنا نوعاً ما، فرأيتها تنظر إلينا نظرةً غريبةً وكأنها حدست ما يجول في ذهن عشتار..

في الطائرة اقتحمتني فجأةً رائحة عطرها المثير جداً فشعرت كأنني ثمل.. لا أدري متى وضعته فأنا لم أشمه على الاطلاق وهي إلى جانبي حتى دخولنا إلى الطائرة.. ربما أخرجته من حقيبتها حين سبقتني إلى الجلوس قرب النافذة وأنا منشغل في دس أمتعتي في الرف.. «لكن لمَ أفكر في هذا الأمر؟ إن كل النساء يتعطرن دون مناسبة أحياناً.. ربما لأنني لم ألاحظها تستعمل مثل هذا العطر المثير سابقاً؟ لابد أنها تجده العطر المناسب للسفر!.. على أية حال يصعب على الرجل أحياناً إدراك ما تفكر به المرأة»..

بعد مرور دقائق على بدء الرحلة طواني نعاس ثقيل بسبب سهرتي الطويلة التي امتدت حتى الفجر مع عشتار في الليلة السابقة،

وقد زادته شدةً رائحة العطر المسكرة، وخضة الطائرة، فأغمضت عيني واستسلمت للنوم، وسرعان ما وجدت نفسي أحلم.. لكن يا له من حلم! إنه أقرب إلى التخيّل، أو إلى حلم اليقظة منه إلى ما يراه النائم في نومه، وكأنه امتداد حقيقي للّحظات التي سبقت إغفاءتي.. كل الأشياء نفسها: آنيا تجلس إلى جانبي في الطائرة.. نسافر معاً إلى أدمنتون.. رائحة العطر.. المسافرون.. المضيفات..

التفت إليّ آنيا وقالت بصوت رقيق لا يخلو من لمسة غنج غريبة:

- هل تشم رائحة عطري؟

«مستحيل! هل حدست بما يدور في خلدي؟».. تساءلت مع نفسي أولاً، ثم أجبتها:

- إنها مثيرة جداً..!

ضحكت آنيا، ومررت أصابعها بين شعرها التيتياني النحاسي، وسألتني، وكأنها غير مصدقة، أو أنها تمهد لشيء ما، بجرس زادته إغراءً:

- حقاً سامر أنها تثيرك؟

فكرت أن أتلافى موضوع الإثارة فقلت:

- أعني أنه عطر فاخر.. كم سعره؟

زمت آنيا شفتيها، وسحبت أصابعها من شعرها، وراحت تفرك بها راحة يدها الثانية، وقالت:

– إنه أغلى عطر فرنسي.. وهذه هي المرة الأولى التي أستعمله فيها.

«هل أرادت بجوابها هذا أن ترمي حجراً في بركة راكدة.. أو أنني أفسر الأمر على نحو مختلف؟ لكن ألا يبدو أنه جواب حمال أوجه؟ لأنتظر حتى ينجلي مقصدها..»، قلت:

– يبدو أن للسفر قيمةً خاصةً في نفسك؟

فقالت وهي تتطلع إلى السماء عبر النافذة:

– ليس كل أنواع السفر..

«جواب مبهم مرةً أخرى.. لكني سأفترضه حسن النية..»، وقبل أن أستوضح منها طلبت من المضيفة التي مرت من جانبي أن تجلب لنا قهوةً محلاةً بقليل من السكر، لكن آنيا أسرعت في تصحيح الطلب مفضلةً علبة بيرة.. «لم يكن من اللائق أن لا أسألها عما ترغب.. لكن لماذا البيرة ونحن مازلنا في وقت الضحاء؟».

– أفهم من ذلك أن للسفر بالطائرة طقساً خاصاً بالنسبة لك؟

ابتسمت آنيا، ورمقتني بطرف عينيها اللتين خيل لي أنهما أصبحتا أقل بريقاً مما كانتا عليه قبل قليل:

– ما دمت قد فهمت الأمر هكذا فلستَ بحاجة إلى توضيح!..

«ها قد اتضح كل شيء، فهل أستجيب لها أم أهرب كما هربت من صاحبة المكتبة؟ لكن أين الثرى من الثريا.. إن إظفر آنيا يساوي تلك الخمسينية المدعوكة.. وكلّما نظرت إليها ذكّرتني بإلهام، جسدها الرشيق الشبيه بجسد عارضة أزياء، وجهها الطري، نهديها العامرين كتفاحتين صينيتين، فخذيها اللفّاوين، كأنهما نضيد الجمّار، اللذين تنحسر عنهما تنورتها القصيرة إلى آخر مداها، وشعرها الذي ينافس الحرير في نعومته.. إذاً لا بدّ أن عشتار كانت محقةً.. وربما ذاك التافه شاهين أيضاً، إلاّ أنّ دوافعهما كانت مختلفة حتماً. أنا على يقين بأن عشتار دفعها حسها الأنثوي إلى أن تحتاط للأمر ليس إلاّ، ولو كانت قد لمست شيئاً مما في نفس آنيا تجاهي لتصرفت بشكل آخر، أما شاهين فلا بد أن تكون غيرته مني ناتجةً عن موقف بدر منها هي في لحظة سكر أو صحو.. فلتة لسان.. إعجاب مبطن.. أو غير ذلك.. لكن ما الذي يجعلها تغرم بي وأنا أكبر منها بأكثر من عقد ونصف؟.. لا لا.. هذا ليس عائقاً.. دلشاد في عمري ورغم ذلك فإن له دزينة من الصديقات اللواتي يصغرنه بعشرين عاماً أو أكثر أحياناً.. لقد مضى على علاقتنا بها أنا وعشتار ما يزيد على أربع سنوات و لم ألاحظ خلالها أي تصرف يوحي بأنها تفكر فيّ..

وكيف يحدث ذلك وأنا رجل متزوج وزوجتي صديقتها أيضاً؟»..
لو أن يشار علم بسفرها معي لجن جنونه.. لم يخفِ إعجابه بها حين رآها أول مرة في بيتي.. قال لي ليلتها على انفراد إنها أثملته أكثر من الويسكي، واعترف بأنه يعيش جفافاً جنسياً منذ مدة طويلة بسبب مرض نسائي ألمّ بزوجته، لكني حذرته من التلميح لها بذلك في بيتي، ونبهته إلى علاقتها بشخص عربي.

فتحت آنيا حقيبتها، وأخرجت منها كتاباً، وشرعت في قراءته، لم أستطع أن أتبين عنوانه، فشغلت نفسي بتصفح جريدة تناولتها من جيب المقعد، فاستوقفتني كالعادة أنباء البلد «المارينز يوزعون الأغذية على منازل الفلوجة صباحاً، ويمطرونها بالقنابل ليلاً.. اكتشاف مقبرة لمتطوعين عرب أعدموا بالعراق.. إقالة جميع السفراء العراقيين الذين كانوا في الخارج.. عضو في مجلس الشؤون الخارجية الأميركي يقول: الولايات المتحدة لا تعمل لإدارة العراق إنما لإدارة الفوضى فيه..».

حين توقفت آنيا عن القراءة بعد أقل من نصف ساعة وضعت الكتاب على الطاولة أمامها فإذا به رواية بعنوان (شُدّني إلى الأعلى.. شُدّني إلى الأسفل)، وصورة غلافها لرجل وامرأة عاريين يحتضنان بعضهما في فراش وثير. وما إن انتهت من شرب بيرتها حتى طلبت

علبةً ثانيةً، ورفعت الكتاب لتضعها مكانه، ودسته بيني وبينها، وهي تقول:

– رواية ممتعة جداً.. بدأتها قبل أسبوع، وربما سأكملها الليلة إذا لم أنشغل بشيء آخر مهم..

تجاهلت الرواية وسألتها:

– ما الذي سيشغلك؟

قالت:

– ألا تريد أن نسهر..؟ كم أود أن أرقص معك سامر...

أيقظني مطب جوي حاد، ففتحت عيني مذعوراً، وأمسكت بذراعي مقعدي. احتجت إلى ثوانٍ كي أتأكد من أنني كنت أحلم. نظرت إلى ساعتي، فتبين لي بأنني نمت نحو خمسين دقيقة. ولشدّما كانت دهشتي حينما رأيت كتاباً في يد آنيا وهي منهمكة في قراءته، وعلى طاولتها علبتي بيرة فارغتين.. اختلست نظرةً إلى غلاف الكتاب، فإذا به يحمل عنوان الكتاب نفسه الذي رأيته في الحلم.. «أمر عجيب.. هل أسألها عما إذا كنت نائماً؟»..

استغرقت الرحلة من أوتاوا إلى أدمنتون ساعتين ونصف الساعة.. توجهنا إلى الفندق مباشرةً، فوصلناه في أقل من نصف ساعة.. سائق التاكسي الذي أقلنا كان عربياً.. وحينما أعلمته أني من العراق ظل

يثرثر طوال الطريق عن الغزو الأميركي وأسفه لسقوط بغداد في قبضة المارينز (وصفهم بأنهم لوطيون وأبناء قحاب وسحاقيات)، وتمنى لو لم تحدث خيانة لناكَهم جنود الحرس الجمهوري واحداً واحداً في شوارع بغداد.. وحين سألتني آنيا، وهي تسند رأسها إلى كتفي، وتريح ذراعها على فخذي، عمّ يتكلم السائق همست في أذنها بأنه يتحدث عن جمال المدينة، وأماكن الترفيه والسياحة فيها.. فظلّت صامتةً، وهي تمد بصرها عبر زجاج السيارة إلى جبال الروكي الشاهقة، التي لا زال الثلج يغطي قممها، فتبدو من بعيد كأنها ثمرات فطر عملاقة.

كان فندق (الأرض الفانتازية)، الذي قادنا إليه سائق التاكسي، يعج بأفواج السائحين المتجمهرين خارج بوابته، فعلمت منه أنه أمر طبيعي في موسم الاصطياف، فالمدينة فيها أكبر مركز تجاري في العالم يجذب في فصل الصيف نحو مليوني سائح شهرياً، وخشيت أن لا نجد فيه مكاناً يأوينا، ولمتُ آنيا لأنها لم تؤمّن لنا حجزاً مسبقاً، فأعطانا السائق رقم هاتفه، وقال إن بيته مفتوح لنا إذا عجزنا عن إيجاد مكان، فشكرته على كرمه. جلست في صالة الاستقبال وتركت مهمة الحجز لآنيا، فتطفلت عليّ هندية حمراء، وأخذت تثرثر، وتسألني بعض الأسئلة كما لو كانت بيننا معرفة سابقة،

فأهملتها واتصلت بعشتار. عادت آنيا بعد ثلث ساعة لتخبرني بأنها بالكاد استطاعت أن تحصل على غرفة واحدة، وليس أمامنا حل آخر لأن موظفة الحجز أخبرتها بأن جميع فنادق المدينة محجوزة...

تبعنا موظف الاستقبال إلى غرفتنا.. كانت غرفةً فسيحةً ومضاءةً إضاءةً رومانسيةً تصلح لشهر عسل لذيذ، وهي بسرير واحد فخم، طبعاً. لم تمهلني آنيا أن أسألها إن كانت تفضل النوم على الأرض أم على السرير، فقد ألقت نفسها عليه بسرعة، وقالت لي إنني أستطيع أن أستخدم الحمام قبلها إلى أن تأخذ هي قسطاً من الراحة.

قضيت وقتاً طويلاً في الاستحمام، ثم ارتديت أحد البرانس المعلقة على ظهر الباب، ورششت رقبتي وصدري بقليل من الكولونيا وخرجت، فوجدت آنيا لا تزال مستيقظةً، وقد غيرت ملابسها، وارتدت قميص نوم أحمر شفاف يبرز مفاتن جسدها الأخاذ، وهي تسند ذراعيها إلى حافة النافذة المفتوحة، وتعطي ظهرها إلى الباب، متأملةً فضاء المدينة المحاط بالجبال والمروج الداكنة الخضرة، فاستدارت على الفور، وأمطرتني بابتسامة تصرخ إغراءً، وكأنها تسألني عن رأيي بجمالها وأنوثتها في تلك اللحظة، ثم ملأت كأسين من زجاجة مارتيني بلون قميصها موضوعة على الطاولة، وقدمت لي واحدةً، وقالت:

– نخبك يا عسلي..

لا أدري إن كانت جلبت الزجاجة معها أم أخذتها من البراد في الغرفة.. يبدو أنها قد حبكت كل شيء على غرار الرواية التي تقرأ فيها.. أحقاً هذه آنيا التي أعرفها منذ بضع سنوات؟ هل تريد أن تبدأ سهرتها من الآن؟ يا لها من امرأة بارعة.. أين كانت تخفي رغبتها كل هذه المدة؟ جلسنا إلى الطاولة كعاشقين اختليا بعد طول غياب.. تذكرنا سائق التاكسي الذي كاد انهماكه في الثرثرة يتسبب في حادث على جسر نهر ساس كاتشوان، والهندية التي تحدثت معي، متوهمةً أنني من المكسيك، حيث تنحدر أمها من قبائلها الهندية.. وقبل أن أنهي كأسي ملأتها آنيا ثانيةً ومضت إلى خزانة الملابس، وأخرجت مسجلاً صغيراً وفتحته، فانبعثت منه أغنية راقصة تؤديها مجموعة أصوات نسائية، فإذا بها الأغنية ذاتها التي سمعتها حين رافقت دلشاد إلى نادي التعري.. وأخذت تتمايل مع إيقاعها كفراشة غضة لا تقوى على التحليق.. ثم مدت يدها وسحبتني لمشاركتها.. لا أدري كم من الوقت استغرقنا في الرقص.. تلاشى إحساسي بالزمن وهي تلتصق بي، وتشبك أصابعها على ظهري، وتغرس حلمتيها النافرتين في صدري.. وفجأةً شعرت بمغص حاد في كُليتي، فتراجعت إلى الخلف، وضغطت بيدي على أسفل ظهري، وارتميت على السرير

متخشباً كأن جسدي قد شُل عن الحركة، فأسرعت آنيا وأغلقت المسجل والنافذة، وأعادت الستارة إلى وضعها، وهرعت إلى حقيبتي، وجاءتني بحبة مسكن، ورفعت رأسي ووضعتها في فمي، ثم بللت منشفةً من مناشف الحمام بماء ساخن ولفت بها خاصرتي، ودثرتني ونامت لصقي..

فتحت عيني بعد نحو ثلاث ساعات، فلم أحس بأي أثر للألم.. وجدت آنيا جنبي نائمةً على بطنها، وهي تشخر بصوت خافت. كانت مثانتي ملأى، فنهضت على مهل، وذهبت إلى الحمام، ثم ارتديت ملابسي وخرجت من الفندق...

سرت في الشارع هائماً على وجهي، دونما هدف محدد، مثل أي زائر تطأ قدماه المدينة أول مرة، فاكتشفت أن الهنود الحمر فيها أكثر من أقرانهم في أوتاوا، حيث كان عدد غير قليل ممن صادفتهم ثملاً تفوح منه إما رائحة خمرة رخيصة، أو رائحة لسترين، وهو يرتدي ملابس رثةً وممزقةً كأنه جاء تواً من بلد تطحنه المجاعة. استوقفني أحدهم، وعرض عليّ علبة دخان محلية الصنع غير مرخصة، ولأنني كنت جربت سيجارةً منها سابقاً، ولم أستسغها، فقد اعتذرت منه، لكنه ظلّ يلاحقني محاولاً إقناعي بشرائها، فاضطررت إلى أن أضع في يده خمسة دولارات وأرمي العلبة في صندوق القمامة.

واصلت سيري في الشارع نفسه إلى نهايته، ثم انعطفت إلى شارع ثانٍ لا يقل عنه حركةً وصخباً، فلفت انتباهي بوتيك للأزياء النسائية يشبه في تصميمه إلى حد بعيد البوتيك الذي أعمل فيه، تديره حسناء فارعة ترتدي تنورةً مخمليةً بقصر تنورة آنيا، وربما أقصر، كاشفةً عن ساقيها المنحوتتين بدقة كأنها تمثال مرمري.

أنهيت جولتي قبل حلول المساء وعدت إلى الفندق، ودلفت إلى الكافتيريا. جلست إلى طاولة ذات كرسيين متقابلين لصق الواجهة الزجاجية الصقيلة، ورحت أتطلع إلى الخارج، حيث بدأت السماء تتلبد بغيوم رمادية ثقيلة تنذر بهطول المطر بين لحظة وأخرى، وثمة ريح قوية شرعت تهب من جبال الروكي، وأخذت تهز الأشجار عند مدخل الفندق، والشارع الرئيسي الذي خفّ الزحام فيه، وأضيئت مصابيحه. كانت الكافتيريا الواسعة تمتلئ تدريجياً بالنزلاء الذين دفعهم تغير الطقس المفاجئ إلى قطع تجوالهم في المدينة، والعودة إلى الفندق، وشيئاً فشيئاً أصبح الحصول على كرسي، أو طاولة شاغرة أمراً صعباً. دنت مني الهندية، التي أهملتها في بداية وصولنا إلى الفندق، وسألتني إن كان بإمكانها أن تتطفل على وحدتي، فرحبت بها ودعوتها إلى الجلوس. أول هندية حمراء أصادفها في كندا بهذه الأناقة، قامتها عبلاء، وشعرها الأسود المظفور يصل إلى مؤخرتها،

وعيناها الدعجاوان تضفيان على وجهها الدائري المائل إلى الصفار شكل لبؤة شرسة. بقيت صامتة بعض الوقت ثم قالت:

– المكان مزدحم لذا تطفلت عليك.. اعذرني ربما تنتظر أحداً..

– أبداً.. لا أعرف أحداً هنا..

– أنت مثلي إذاً.

– ألستِ من أدمنتون؟

– لا.. لكني آتي بين حين وآخر إلى هنا بحثاً عن فتاة تستهويني.. أقطع مسافةً طويلةً بسيارتي كي أستمتع.. أنا من شمال شرق ألبرتا.

تنفست الصعداء وقلت لنفسي «الحمد لله أنها لا شأن لها بالرجال»، ثم سألتها:

– إذاً لا بد أنك تعرفين المناطق المحيطة ببحيرة أثاباسكا؟

– أنا مولودة في قرية اسمها كينيوسو تقع في الساحل الجنوبي للبحيرة، وقد رحل أهلي عنها قبل سبع سنين إلى مدينة لا تبعد عنها كثيراً، وما زال أقربائي يسكنون فيها.. لكن أين الفتاة الجميلة التي كانت معك؟

– يا لها من صدفة عجيبة..

– لماذا؟

– لقد جئت من أوتاوا إلى هذه القرية خصيصاً.

– حقاً؟

– يقولون إن فيها مداويةً عجوزاً تنفرد بتحضير دواء من عنب الهنود الحمر سكوا فين لعلاج مجموعة أمراض منها ضمور الكلى، وقد قرأت إنه نبات عشبي زاحف يفترش الأرض كالسجاد، وله أوراق مدورة لامعة، وأزهار بيضاء، وثمار عنبية ذات لون أحمر زاهٍ.

– هل تشكو أنت من هذا المرض؟

– ما كنت سآتي لولا معاناتي منه.

– لا أدري ماذا أقول لك..

نظرت إلى مدخل الكافتيريا بعينين شاردتين، وقالت:

– هل ستأتي فتاتك..؟

لكني تجاهلت سؤالها:

– لا بد أنك تعرفين هذه العجوز، أو سمعت بها..

ترددت لحظةً، ثم قالت:

– أعرفها جيداً.. لكن..

– ماذا؟ لا تقولي لي إنها رحلت أيضاً..

– هي بالفعل رحلت.. لكن إلى العالم الآخر.

– أتقصدين أنها ماتت؟!

– للأسف نعم.. ماتت قبل ثلاثة أشهر..

– يا إلهي..!! ألا يوجد في القرية أحد غيرها يستطيع تحضير ذلك الدواء اللعين؟

– للأسف لا.. كانت الوحيدة المهووسة بتحضير الأدوية النباتية.. آما الآخرون فقد تخلوا عن هذه الاهتمامات منذ زمن بعيد..

– لكن عنبكم اللعين لم يمت بموتها..

– أقدّر غضبك.. إنه موجود بكثرة، لكن دواءك ربما يحتاج إلى تحضير معقّد..

صمتت، وراحت توزع نظراتها إلى أرجاء مختلفة من الكافتيريا، وقالت:

– كانت معك فتاة جميلة أين ذهبت؟!

أظلمت الدنيا في عيني، ودهمتني كآبة لم أشعر بها منذ سنين خلت، فاستأذنت من الهندية، وخرجت متثاقلاً كأن جسدي يجر خلفه كومة رصاص، وقررت أن أعود إلى أوتاوا في اليوم التالي.

في الخارج رشقتني زخة مطر أشاعت البرودة في أوصالي، فهرعت إلى الصالة، ونفضت الماء عن شعري وقميصي، ثم اتجهت إلى البار، وجلست في زاوية خافتة الضوء، وطلبت من النادل أن يحضر لي كأساً من الويسكي. قبل أن أنتهي من احتساء الكأس

فاجأتني آنيا بدخولها لابسةً فستاناً قصيراً ناصع البياض، عاري الصدر، كأنها ذاهبة إلى حفلة راقصة.. كان وجهها مشرقاً، وعيناها تنبضان بالحيوية.. ربما لو رأتها الهندية للحقت بها. أردت أن أخفي عنها خبر موت العجوز بعض الوقت لئلا أفسد فرحتها واستعدادها للسهرة.. لكنها لاحظت تعكر مزاجي وشرود ذهني، فألحت عليّ لمعرفة الأمر، وحين أخبرتها انتابها الحزن، وتبخرت إشراقة وجهها، وأخذت تعض على شفتها، وهي تمسك يدي، وتغرس عينيها في عيني، ثم خاطبتني بصوت ناعم متقطع:

– لا تيأس سامر.. أنا واثقة من العثور على غيرها.. أين تلك الهندية؟

– تركتها في الكافتيريا..

نهضت آنيا، من غير أن توضح لي ما الذي ستفعله، وغابت عني بعض الوقت، ثم عادت مستبشرةً:

– لقد كذَبت عليك، سنسافر غداً إلى كينيوسو.

عشتار

حلمت ليلة أمس بمدينتي، فراودتني فكرة كتابة قصيدة عنها، لكن أخبار البلد في اليوم الثاني لسفر سامر آلمتني مرةً أخرى، وخاصةً مأساة ذلك الراعي الذي فقد سبعة عشر شخصاً من أفراد أسرته: زوجته، وأولاده العشرة، وأحفاده الخمسة، وقطيعاً كبيراً من الغنم، وسيارته، بعدما قصفت طائرة أميركية بيت الشعر الذي نصبه في الصحراء، هارباً من منزله في القرية ليكون بمأمن من القصف العشوائي. وها هو الشيخ السبعيني المكلوم الذي كان يستعد للصلاة على بعد أمتار عن الحادث لحظة وقوعه يوكل محامياً لإقامة دعوى ضد وزير الدفاع الأميركي، وقائد القوات المحتلة.. لقد أبكاني حين رأيت عينيه الذابلتين تمتلئان بالدموع، وهو يقول «كنت أتمنى أن أموت معهم حتى لا أشعر بالعذاب والألم والحسرة..». لكن بماذا سيعوضونه؟ أيعيدون إليه سبع عشرة روحاً إنسانيةً، ومائتين من أغنامه التي أزهقها طيار نذل بلمسة أصبع في لحظة غرور، وإحساس بالتفوق..؟ ألا يشبه هذا الأرعن أياكس الإغريقي الذي كان يملك قوةً عظيمةً أعمت بصيرته، فهاجم قطيعاً من المواشي معتقداً أنه

العدو؟ يا إلهي أنا فقدت واحداً من أسرتي قبل سنين بعيدة ولما تزل ذكراه العزيزة ماثلةً في نفسي.. فكيف بأيوب هذا..؟ أي شخصية تراجيدية ترقى في فجيعتها إلى فجيعته؟ لو كان راعي بقر أميركياً لصنعت هوليود من مأساته عشرات الأفلام.. أهذه هي الحرية التي يعدوننا بتحقيقها..؟

في ذروة حزني رن جرس الباب، ظننته ساعي البريد يحمل رسالةً مسجلةً ففتحته دون أن أسأله.. لكنني فوجئت بشخص آخر أجهله يتحدث بالعربية.. اعتذر لأنه لا يعرف رقم هاتفنا، وسأل عن سامر، فطلبت منه أن يعرّف بنفسه، قال:

– اسمي شاهين.. ربما سمعت به من آنيا.

شعرت بالقلق، فقلت:

– وماذا تريد من سامر؟

– لاشيء.. أردت فقط أن أسأله إن كان يعرف إلى أين سافرت آنيا.

ازداد قلقي، فقلت متوترةً:

– لماذا لا تسأل أهلها.. نحن لا علم لنا أصلاً بسفرها..

– سألتهم.. قالوا إنها لم تخبرهم بوجهة سفرها..

– لكننا لسنا أكثر من أهلها قرباً إليها حتى نعرف كل خطواتها.

– هل أستطيع أن أكلم سامر؟

– آسفة إنه نائم.. لديه إجازة من العمل بسبب مرض طارئ ألمّ به.

كنت قد هيأت مسبقاً هذا العذر تحسباً لأمر كهذا، وطلبت من سامر أن يخبر صاحب المتجر الذي يعمل فيه بمرضه خوفاً من أن يحصل شاهين على عنوانه.. وأنا واثقة من أنه سيذهب إلى هناك.. وقد فعلنا حسناً حين غيّرنا رقم هاتفنا، وأبلغنا الشركة بحجبه عن المتطفلين، بعد المضايقات التي تعرضت لها من أشخاص مجهولين قرأوا قصيدتي، فأثارت امتعاضهم، وأسمعوني كلاماً جارحاً تعبيراً عن اعتزازهم بهامشيتهم.. هؤلاء قلوبهم مع البلد وسيوفهم عليه...! «لكَم أخشى على مدينتي العزيزة من أمثالهم في الداخل.. ماذا لو استغلوا لامبالاة قوات الاحتلال، وفرضوا نمط الحياة الأسود عليها؟ سينطفئ وهجها الذي ظل يقاوم القهر.. أواه يا حبيبتي.. هل سأراك ثانيةً كما أتمنى أن أراك، أم سيحولونك إلى كابوس؟».. أمس حلمت نفس الحلم الذي حلمه صاحب بصرياثا.. **«حلمت بجفاف المياه في الشط، وانحسارها في المنخفض الواسع الذي تركه النهر عن الصخور والنفايات المختلفة والهياكل الغريقة. تراجع الزمان ورأيت نفسي صبيةً مع مجموعة من الصبايا نجوس خلال الأعماق**

الجافة، وننتقل بين الصخور المتآكلة، ونلتقط ما خلفه النهر في القعر من نقود وعلب ومفاتيح وقطع أخرى لا أتذكرها، كما لا أتذكر حالة انتشائي، أو أميز تعبيراً آخر يدل على تعاستي أو استغرابي. كان حلماً محايداً، رؤيا بيضاء من رؤى النهر الكثيرة...»..[*] التي لا تشبه رؤاي السريالية، كما يحلو لسامر أن يصفها.. ربما استبطنها لاشعوري بعدما أعدت قراءة بصرياثا، واستغرقني التفكير في مصير مدينتي التي باتت تشغلني كثيراً بعد اختراق أوباش عيلام لها وإطفائهم لمصابيح تحضرها، مثلما تشغل سامر مدينته الملتهبة. القصيدة مختمرة في رأسي، لكني أريد أن أغذيها بصور إيحائية عما يجري فيها الآن، وأتخيل حياتها المظلمة المقبلة عليها.. نفسي لا تطاوعني على رسم أفق مغاير للأفق الذي أتمناه لها.. هل أخدع نفسي أم أطلق العنان لهواجسي، وحدوسي؟ «أنت يا سامر كتبت عن نبض مدينتك وارتحت، أما أنا فسأظل قلقةً، مشدودة الأعصاب حتى أنتهي من الكتابة عن مدينتي.. لقد أصبحت متشائمةً أكثر منك..».

بعد انصراف شاهين نويت أن أتصل بسامر لأخبره، لكني خفت

---

[*] مقطع من كتاب بصرياثا، لمحمد خضير، ص 51.

أن أسبب له قلقاً، وهو ذاهب للبحث عما ينهي قلقه.. وبقيت أنتظر أن يبشرني بحصوله على العلاج من العجوز الهندية. قال لي في الليلة التي سبقت سفره إنه سيعود إليّ حاملاً نبتة الحياة مثل جلجامش، فقلت له حذار من أن تسرقها الحية.. أحكم إخفاءها جيداً.. ولا تسبح في بركة ماء في الطريق.. ولا تجلس تحت شجرة..

ترى هل أخذ سامر بوصيتي؟ لم أشعر بالغيرة مثلما شعرت بها هذه المرة.. أعرف أنه يحبني، إلاّ أن الرجل مهما كان عفيفاً، فإنه نادراً ما يستطيع مقاومة إغراء امرأة جميلة تعرض عليه مواتاها، رغم أن آنيا ليست من هذا النوع، فلم يبدر منها حتى الآن ما يوحي إلى عكس ذلك.. لكن ما أدراني بما في داخلها، خاصةً أن علاقتها التي انتهت نهائياً مع شاهين كانت علاقةً ملتبسةً. لقد قرفت من شذوذه معها.. أسرتني بذلك في سهرتنا الأخيرة.. كانت مستاءةً جداً منه فشربت كثيراً.. لم أرها ثملةً من قبل مثلما رأيتها في تلك الليلة. قالت وأنا أقودها إلى الحمام لتفرغ معدتها:

– كم أنا نادمة على انصياعي لرغباته الحقيرة.. قلت له عشرات المرات إن هذا الذي تفعله معي يؤذيني أكثر مما يريحني.. لكنه كان يساومني مستغلاً نقطة ضعفي معه.

– ليذهب إلى الجحيم.. هل لديه دليل يدينك به؟

– كان معه فانتزعته أخيراً.

لم أحاول أن أعرف منها نقطة ضعفها معه بالضبط، ولا الدليل الذي يدينها وهي في ذلك الوضع.. ربما ستخبر سامراً بأمره.. ولا أستبعد أن يكون شاهين قد اكتشف ضياعه منه ولذلك جن جنونه، وبات يبحث عنها في كل مكان.. إلاّ أنه سيكون هو الخاسر في كل الأحوال إن فكّر بإيذائها، فالقانون هنا إلى جانب المرأة أكثر من الرجل، والويل له إذا تجرأ على مسها بسوء.. كيف صبرت آنيا الوديعة عليه طوال هذه المدة؟ كانت تخاف من الدخول إلى السجن فتحملت شذوذه.. يا له من رجل خسيس.. دفعتها الصدفة إليه، فأهداها سيارةً أول الأمر حينما جذبها جمالها إليه، وعرف أنها صحفية، ثم خدعها مدعياً بأنه كان صحفياً أيضاً قبل أن يهاجر إلى كندا.. وما إن توثقت علاقتها به حتى اكتشفته على حقيقته، وقررت أن تبتعد عنه رغم هوسه بها.. لكنه دبر لها مكيدةً تلقي بها في السجن حتماً إذا ما كشف أمرها، فتراجعت عن قرارها، وخضعت لمساومته..

لا أدري.. ربما تكون تجربة آنيا المرة هذه هي التي أوحت لي باحتمال انبثاق رغبة ما في داخلها تجاه سامر.. رغبة تعوض ما لحق بأنوثتها من إساءة .. إنه مجرد احتمال.. و لم لا؟ إن مئات النساء هنا

في عمر آنيا يفضلن الرجل الذي يجمع بين الخبرة الجنسية والثقافة حتى لوكان أكبر منهن بكثير.. هذه جارتنا الشابة ليليان تعيش مع صديقها الذي لا يقل عمره عن عمر سامر، وتقول إنها منسجمة جداً معه، ولا تخجل من مصارحتي بأنه عذب كالينبوع يمنحها لذةً أكثر مما كان يمنحها طليقها الشاب.. وذلك دلشاد صديق سامر، فهو على علاقة مع حشد من النساء الصغيرات المغرمات به، حتى أنني قلت لسامر ذات يوم مازحةً:

– أنا أخشى أن يفسدك زير النساء هذا..

فقال مداعباً:

– اطمئني.. أنا لا أحمل في جيبي فرج ضبعة.

فاستغربت وسألته:

– وما معنى هذا؟

قال:

– يذهب المخيال الشعبي عندنا إلى أن الرجل الذي يحمله تنجذب النساء إليه كما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس.

ومضيت في مزاحي مع سامر، فحذرته من استعارة هذا الشيء من دلشاد، لكنه قال:

– لو كان له كل هذا التأثير السحري على النساء لأصبح أغلى من الذهب..

أفزعني نعيق غراب حط فجأةً على سياج حديقتنا، فقطع عليّ تداعياتي.. غراب هزيل يشبه تماماً غراب الرسام العراقي في لوحاته، لكنه لا يبدو أليفاً هنا مثل غراب الرسام الذي ينقر عيني الفتى كعصفور ينقر حبة قمح.. كان ينظر إليّ من خلال النافذة بعينين ماكرتين، ويحرك منقاره الدقيق المستقيم، فتساءلت مع نفسي «ما الذي جاء بالطائر الجنائزي الأسود إلى بيتنا مرة أخرى؟ هل أتى بصفة حكيم كاهن منبئ، أم رديفاً للشؤم والفراق، أم قريناً للغربة؟».. أردت أن أفتح النافذة لأزجره، لكني تذكرت البيت الشعري القديم «ومن تعرّض للغربان يزجرها على سلامته لا بدّ مشؤوم»، فخفت لأن سامراً مسافر، والغراب كثير الأسفار، طواف في الديار، وحمدت الله على عدم رؤيتي له في المنام، بل حقيقةً، لأن من يحلم به، كما يقول ابن سيرين، يُخان!

آنيا

أهرب من شاهين لأواجه بمحاولات يشار الإيقاع بي في شباكه، كأنني المرأة الوحيدة في أوتاوا. والآن جاء دور هذه الهندية! فها هي تكشف بوقاحة عن هيامها بي. سألتني ما معنى اسمي، فقلت لها معناه النار باللغة الغيلية الإيرلندية، ودون أن أسألها عن اسمها قدمت لي نفسها بأنها تدعى كاسكارا، موضحةً بأنه يعني بلد الشمس، ويعود إلى قارة أسطورية احتلت رقعةً كبيرةً من المحيط الهادي، حباها الإله ديوفه بالجمال والنعمة، وأعطى البشر الذين خلقهم فيها العقل والمعرفة، لكن النار أتت، فيما بعد، على هذه القارة، ودمرتها! فقلت لها:

- ولماذا النار بالذات وليس الماء؟

- لا أدري.. هكذا تقول الأسطورة.

في البدء كان سبيلها إلى التعبير عن ميولها المثلية تجاهي نوعاً من الغزل المبطن.. وحينما أعطيتها أذناً صماء لجأت إلى التلميح المكشوف، وخاصةً لما عرفت أن سامراً له زوجة وأطفال، وعلاقته

بي لا تتعدى الصداقة الأسرية.. ما كان له أن يبوح بذلك أمامها.. لكن لا أدري لَمَ فعل؟!

استغلَّيت ذهاب سامر إلى الحمام فسألتها عما تبغيه مني بالضبط، فاعترفت، بصراحة أذهلتني، بأنها أعجبت بي دون كل النساء في الفندق منذ أن رأتني أول مرة، وتوسلتني أن أحقق لها أمنيتها.. فانفعلت وصرخت في وجهها بأن تذهب إلى الجحيم مع أمنيتها القذرة.. لكنها ظلت محافظةً على هدوئها، وتبتسم ابتسامتها الصفراء وكأنني صرخت في كتلة صخر، فبدا لي وجهها أشبه بوجه ساحرة من ساحرات ماكبث. أردت أن أصفعها وأترك المكان، إلاّ أنني تمالكت أعصابي، ولوحت لها بيدي قائلةً:

– غادري هذه الطاولة قبل أن أحطم أسنانك.

فابتلعت الإهانة عن طيب خاطر، ونهضت، وفتحت حقيبتها اليدوية، وسحبت منها بطاقةً صغيرةً، ووضعتها أمامي، وابتسامتها لا تزال مرتسمةً على شفتيها، وقالت:

– إن غيرتِ رأيك اتصلي بي..

تابعتها بنظراتي حتى خرجت من البار، ثم جرعتُ ما تبقى في كأس سامر، وتذكرت علاقة نيللي ألكانتارا بعشيقتها تيري دازين في رواية (الريح القوية) لأستورياس، التي تقول فيها «لابد للعالم من أن

يعود إلى ما كان عليه من قبل، حين كان الحب يمارس بين أشخاص من الجنس نفسه»، وتساءلت عن سر قناعتها بأن هذه الممارسة هي المعادلة الوحيدة للسعادة! وحين عجزت عن الإمساك به التفتُ إلى المرآة التي تغطي الجدار على يميني، ورحتُ أتأمل جسدي كله.. «هل ثمة ميزة فيّ لم أكتشفها تجعلني محطّ هيام رجل شاذ وامرأة سحاقية؟ أيحدث هذا معي فقط أم توجد نساء كثيرات مثلي؟ لماذا كان ذلك التافه يترك مكمن أنوثتي، ويشتهي الجزء المشترك بيني وبينه كرجل، في حين تنجذب هذه الهندية إلى أنوثتي وهي امرأة؟ ما هذا التناقض؟ هل الخلل فيّ أنا أم فيهما؟».

عندما رجع سامر لم أمهله أن يسألني عن الهندية، بل سارعت إلى معرفة رأيه في أنوثتي، وما إذا كنت أختلف عن النساء الأخريات بميزة ما، وكيف ينظر هو إليّ، وألححت عليه أن يكون صريحاً معي، فأسمعني كلاماً طربت له، وبدد الهواجس التي انتابتني، ثم فاجأني بأنه يدرك مغزى تساؤلاتي، وأنه تركني مع الهندية متعمداً ليمنحني فرصةً أعبر فيها عن موقفي من غير حرج، فقلت له:

– كدت أهشم أسنانها قبل أن أطردها..

قال:

– معنى ذلك أننا لن نرافقها غداً..

– لن نحتاج إليها.. وأجزم الآن أنها كذبت عليك لهدف ما..

– أي هدف ؟

– أن توثق علاقتها بنا فنطلب مساعدتها.. وها نحن كدنا نسافر معها..

– وما الذي ستجنيه من ذلك؟

– ظنت أنني أقيم في غرفة وحدي، فأمَّلت نفسها بأن تختلي بي الليلة..

– خطأي أنا.. كان يجب أن أخبرها بأنك صديقتي.. أو زوجتي.

– ها أنت تعترف بخطئك.. علينا من الآن أن نوحي للآخرين بأننا زوجان.

– هل يسعدك ذلك؟

– جداً...

– وعشتار..؟

– ليست معنا الآن.. حينما تعود ستكون لها.. صدقني أنا بحاجة إليك لتعوضني.. هي خمسة أيام فقط.. دعني أستعيد فيها أنوثتي المقموعة.. أتعرف لماذا غضبت على الهندية؟ أنا لست ضد المرأة السحاقية.. هي حرة في جسدها، لكن تجربتي المرة مع رجل لم يحترم أنوثتي تجعلني أتطيّر من أي نوع من أنواع الشذوذ الجنسي..

- لكني أخشى أن يتعلق أحدنا بالآخر..
- أنت رجل نادر.. أحسستني بأنوثتي المغدورة..
- لماذا أنا بالذات؟

وكدت أخبرها بأن يشار متيم بأنوثتها، لكني تراجعت حينما قالت:

- لأنك أقرب الأصدقاء إليّ..

أعددنا أنفسنا للقيام بالرحلة إلى كينيوسو وحدنا في اليوم التالي، وقد بدا سامر أكثر استجابةً لي.. سهرنا خلال الليل في مرقص الفندق الجميل.. منعته من شرب الكحول الثقيلة لئلا ينساني وينام، واكتفينا بزجاجة شمبانيا لذيذة ومنعشة. قال لي وهو يحتضنني على الحلبة إنني أذكره بصديقة قديمة في بيروت كانت آخر امرأة راقصها قبل أن يتعرف إلى عشتار.. وحين خرجنا من المرقص لمحت الهندية جالسةً مع فتاة سوداء على مائدة قريبة إلى الباب، وهي تحدّق إلينا فاغرة الفم.

كان طقس المدينة مشمساً وأكثر حرارة في اليوم التالي. استمر المطر حتى منتصف الليل، ثم توارت الغيوم وهدأت الريح. صحوت من النوم بعد سامر بوقت قصير، فأحسست بخدر في مفاصلي.

أزحت الغطاء عني فلفحتني برودة خفيفة، وشعرت بأنني بحاجة إلى ماء ساخن يدفئني..

تركنا الفندق في الظهيرة، وتوجهنا إلى كينيوسو برفقة سائق التاكسي العربي نفسه. تستغرق الرحلة نحو ساعتين. أعطانا ورقةً مطبوعةً فيها معلومات سياحية عن القرية حصل عليها من الانترنيت تقول إنها تقع في الساحل الجنوبي لبحيرة أثاباسكا، وتعرف بـــ (كري) لصيد السمك، وهو اسم إحدى القبائل الهندية، وكان سكانها يسمونها في السابق نهر سوان. قرب القرية من البحيرة جعلها مكانا مثالياً للاستجمام، وصيد السمك، والتزحلق على الماء، والإبحار الشراعي، والسباحة.. وفيها متحف كينسايو المخصص للتاريخ المحلي والحياة الرائدة.. لكن قلق سامر، وخشيته من أن تكون الهندية صادقةً فيما قالته عن العجوز، جعلاه لا يأبه لتلك الورقة، فسلمني إياها دونما أن يقرأها. كان السائق كعادته لا ينقطع عن الثرثرة.. حدثنا عن حياته منذ أن هاجر إلى كندا حتى لحظة لقائه بنا في المطار، مرةً بالعربية، ومرةً بالإنجليزية البسيطة التي يجيدها.

عند حافة القرية اجتزنا كوخاً منعزلاً، من غير واجهة أمامية، يقف في داخله رجل يرتدي ملابس بيض شبيهة بملابس لاعبي

الجودو، أو الفلاحين الآسيويين، ويعتمر قبعةً كبيرةً، فهتف سامر للسائق فجأةً بأن يتوقف، والتفت إلى الخلف، وأخذ يرسل بصره إلى الكوخ، ثم أمر السائق بأن يستدير ويعود إليه، فاستغربت واستوضحت منه عن السبب، فقال بجرس حالم:

– أورشنابي! .. أقصد أنه خيل إليّ وكأنه أورشنابي..

– هل تعرف أحداً بهذا الاسم؟

– نعم.. إنه ملاح أوتونابشتم وعابر بحر الموت في ملحمة جلجامش.. هو من قاد الملك في تغريبته إلى موضع الرجل الخالد الذي أرشده إلى نبتة الخلود..

زادني توضيح سامر استغراباً، فقلت:

– يبدو أن قلقك أنعش مخيلتك الأسطورية.. هذا يا عزيزي بائع سمك هندي..

وقف السائق أمام الكوخ، فترجل سامر من السيارة وتبعته أنا. كان الهندي منشغلاً بحوضه البلاستيكي الكبير المملوء بالسمك الحي، فأخذ يرحب بنا على نحو مبالغ فيه ظناً منه أننا نريد أن نشتري سمكاً، فطلب منه سامر أن يؤجل موضوع السمك إلى حين مغادرتنا القرية، ويرشده إلى بيت العجوز.. فخلع الهندي قبعته وراح

ينظر إلينا تارةً، وإلى بيوت القرية في أسفل الجبل تارةً أخرى، ثم قال:

- آسف أيها السيد.. لقد رحلت منذ سنتين..

فاصفر وجه سامر هلعاً، وحدّق إليّ بعينين تكادان تخرجان من مكانهما، وسأل بائع السمك بصوت يشوبه بعض الارتعاش:

- إلى أين رحلت؟

فأشار الرجل إلى مياه البحيرة البعيدة:

- إلى قرية في جزيرة أورايي.

انفرجت أسارير سامر، ومسح جبينه براحة يده، وسأله:

- كم تبلغ المسافة إلى هذه الجزيرة؟

- يقطعها الزورق في نصف ساعة.

- أين نجد مثل هذا الزورق؟

- هناك على الساحل تجد الزوارق منتشرةً كالنمل.

- شكراً لك.. سأكافئك حينما أعود..

سحبني سامر من يدي، وأدخلني إلى السيارة على عجل، وهو يقول بفرح طفولي إنه سيجعل منه أحد شخصيات روايته، وسمعت بائع السمك يناديه:

- لكنك لم تقل لي ماذا تريد من العجوز.

فأخرج سامر رأسه من النافذة، وقال له ملوحاً:

– فيما بعد يا أورشنابي..

قادنا السائق إلى الساحل الصخري الطويل الذي يمتد بعيداً حتى يلامس الأفق. وقبل أن ننزل من السيارة أجرى اتفاقاً مع سامر على زيادة أجرته مقابل أن ينتظرنا حتى نعود. تحدثا بالعربية فلم أعرف المبلغ المضاف، لكنني غضبت جداً على السائق حينما أخبرني سامر، وحاولت أن ألغي الاتفاق المجحف لأننا قلنا له منذ البداية ربما سنتأخر في القرية ساعتين أو ثلاثاً، ولن يستغرق ذهابنا إلى الجزيرة وإيابنا منها أكثر من ذلك الوقت، إلاّ أن سامراً كان غير مبالٍ بجشع السائق بسبب غبطته، وتيقنه من كذب الفتاة الهندية، لذا أجهض محاولتي، وأنزلني إلى الزورق، وراح يخاطب قائده بنشوة عارمة متلبساً دور بطله الأسطوري «سر بنا إلى أوتونابشتم العجوز الذي يقيم خالداً فوق منبع الآبسو– مجمع المياه السفلية العذبة، حيث تنبت في قاعها ضالتي التي أنشدها.. نذر عليّ إن نلتها بأن أحكم إخفاءها جيداً، وأهرس رأس الحية إن حاولت الاقتراب منها.. ليس من أجلي فقط، بل من أجل أهلي وزوجتي وأطفالي ورفيقتي الذهبية آنيا.. وداعاً للألم الممض الذي نخر حياتي سنينَ طويلةً.. سر بنا يا توأم أورشنابي ولا تبالِ بالأمواج وأهوال البحر.. إلى دلمون قدنا حيث مسكن أنكي إله الماء والحكمة..». وما إن أنهى سامر خطبته، التي أثارت دهشة قائد الزورق، حتى التفت إليّ قائلاً:

– هل أصلح خطيباً يا سيدوري؟

فقلت:

– أنت كنز من المواهب يا جلجامش..

قال:

– إن حصلت على ضالتي سأمكث معك خمس ليالٍ أخرى يا صاحبة الحانة..

انطلق الزورق بنا بسرعة جنونية، مفترعاً مياه البحيرة الخضراء، وراحت تتشكل خلفه موجات متعرجةً ذات أشكال غريبة كأنها ثعابين تعوم على سطح الماء في سباق أسطوري، ولفحنا هواء بارد محمل بالرذاذ، فشعرت بأني أطير في الجو.. أمسكت بذراع سامر من الخوف، وأمرت بأعلى صوتي قائد الزورق بأن يقلل من سرعته، فتركه يسير على مهله مثل سيارة تخبّ في طريق ترابي، عندها زال خوفي، وواصلت تحديقي إلى الخلف، فبدت لي بيوت كينيوسو المبعثرة سوداء أشبه بقطيع من الماعز الجبلي.

سامر

كانت صدمة عشتار مساء اليوم التالي شديدة الوقع على نفسها.. اتصلت بها في طريقي من المطار إلى البيت، وأخبرتها بأنني قادم، فوجدتها تنتظرني باكيةً أمام الباب. عانقتني ووضعت رأسها على صدري، فانهمرت دموعها على قميصي، ثم دخلت إلى غرفة سميرميس وسومر فألفتهما نائمين، وهرعت إلى غرفة النوم، وواصلت بكاءها، فلحقت بها ومسحت دموعها، وجلست قربها، ورحت أخفف من حزنها بآمال أخرى كاذبة. سألتني كيف ماتت العجوز؟ قلت لها إن الهنود الذين التقيتهم في الجزيرة اختلفوا في أمر غيابها.. روى لي بعضهم أنها كانت تعيش وحيدةً في منزلها، فحلمت ذات ليلة أن إله الموت زارها ليبلغها بانتهاء حياتها، وأمرها بأن تصعد إلى الجبل بعد سبعة أيام لتموت هناك، وحين انقضت المدة نفذت أمر الإله، وودعت أهل قريتها وصعدت إلى الجبل، لكنها انتظرت ثلاثة أيام فلم يقبض الإله على روحها، وفي اليوم الرابع أرسل إليها نسراً ضخماً حملها، وألقى بها في البحيرة. وقال آخرون إنها انتحرت، ألقت بنفسها من أعلى قمة في الجبل إلى الماء فغرقت. وأقسم رجل

من أقربائها أنه تتبع أثرها حين ارتقت الجبل، ورأى بعينيه أنها حين بلغت قمته رفعت ذراعيها إلى السماء، فنبت لها في الحال جناحان كبيران حلقت بهما فوق مياه البحيرة بعض الوقت، ثم اختفت عن بصره نهائياً..

نهضت عشتار، وأزاحت ستارة النافذة، وأطلت إلى الحديقة، وقالت بصوت متهدج:

– كنت قلقةً عليك أكثر من قلقي أن لا تجد العجوز.. لقد حطّ الغراب أمس على سياج بيتنا، فاتصلت بك لأطمئن عليك.. يبدو أنه كان رسول شؤم بالفعل هذه المرة..

– لا أدري يا عشتار.. إن الحياة أينما نذهب تمتزج فيها الحقائق بالأساطير، حتى أنني صرت أخلط بين الأمور..

– هل صدّقت ما رووه لك؟

– ليس مهماً أن أصدّق أو لا أصدّق.. المهم أنها اختفت أو ماتت، وفقدت أملي نهائياً في الحصول على ضالتي.

اقتربت إليّ، ووضعت رأسي في حضنها وقالت:

– لا تيأس.. لا يزال أمامك الحل الذي اقترحه الطبيب.

– سأفكر به، لكن ليس الآن.

باشرت في عملي إثر عودتي.. زارتني في أول النهار صاحبة المكتبة كاترين لتشتري بعض الملابس، سألتني عن سبب عدم تلبيتي لدعوتها، فتحججت بأنني مشغول دائماً. واتصل بي دلشاد، وروزا، ويشار، وأصدقاء آخرون، فتألموا وعبروا لي عن حزنهم حين أنبأتهم بفشل رحلة بحثي.. وأعلمتني روزا بعد أسبوعين بأن آنيا سافرت إلى ألمانيا متأخرةً عن الموعد بعض الوقت، فلم تعثر على صديقي لأنه سُفّر إلى تركيا، ومنها إلى كردستان قبل وصولها، ولذلك فهي محرجة جداً مني، وتخجل من رؤيتي.

فضلت أن أنهمك في الكتابة لعلي أفكك خيبتي، فشرعت في كتابة الفصل الأول من روايتي، بعد أن أجريت في ذهني تغييراً جوهرياً على موضوعها.. بدأته متسائلاً على لسان بطلها وساردها جلجامش، وأنا لا أزال تحت تأثير مخيلة هؤلاء الهنود العجيبة، التي لا تفصل مطلقاً بين ما هو واقعي وما هو خارق:

«هل كانت لعنة الإلهة عشتار سبباً في عودتي خائباً إلى مملكتي؟ ماذا كان سيحدث لو أنني اكتشفت أن خلود أوتونابشتم محض هراء؟ هل كنت سأبكي لحظتها بحرقة بكائيَ حينما ذاب أملي كما تذوب حبة برد بين أصابع ساخنة؟.....».

إلاّ أن هذه التساؤلات بدت لي كأنها نابعة من ذاتي أنا أكثر مما تكون نابعةً من بطل الرواية نفسه.. ولا أدري إن كنت سأغيرها عندما يخف حزني، ويهدأ بالي أم سأبقيها كما هي..

قرأت عشتار ما كتبته في ظهيرة عطلة نهاية الأسبوع، وفضّلت أن تناقشني حوله خلال الأمسية التي خرجنا لقضائها في حدائق البرلمان الواسعة المطلة على نهر أوتاوا. هي التي اختارت هذا المكان.. ربما لكثرة العشاق الذين يأتون إليه في مثل ذلك الوقت، متخذين من زواياه المظللة بالأشجار فضاءات لمتعهم الرومانسية والجسدية. اضطررنا إلى إيداع الأطفال في بيت جارتنا ليليان لئلا يشاهدوا المناظر الايروتيكية التي يحظر عليهم مشاهدتها.. بدأت عشتار ملاحظاتها، وهي مستلقية على العشب جنبي، بتساؤل شعرت بأنه لا يخلو من الريبة:

– ماذا تعني سامر بلعنة الإلهة عشتار..؟ إن اللعنة من طبيعة الإنسان، أما الآلهة فإنها تنتقم ..

احترت بماذا أرد عليها، لكني استدركت وقلت مراوغاً:

– أنا لا أنسخ الأسطورة بل أكتب روايةً أتمثل فيها روحها فقط، ومن حقي أن أضفي على سلوك الآلهة طبائع البشر.. وكما قرأتِ فإنني غيرت في النص أموراً كثيرةً، فالملحمة لا تقول إن جلجامش

من أبناء أرابخا، وإن سيدوري رافقته في سفره إلى دلمون، ثم أغوته بأن يضاجعها مرات عديدةً، وهذا ما فعلته أنا، بل دعته إلى التخلي عن حلمه المستحيل، والعودة إلى أحضان زوجته وإسعادها، وأخذْ الحياة كما هي مقدرة للبشر.. كما أن الملحمة لا تقول إن أورشنابي بائع سمك، مثلما تخيلته أنا، بل ملاح سفينة أوتونابشتم، وهي لا تقول إن جلجامش وجد هذا الأخير ميتاً فعاد خائباً، كما افترضت أنا، بل حياً أرشده في النهاية إلى نبتة الخلود..

فقالت عشتار:

– لا أوافقك حول ما يتعلق بسيدوري، لأنها في الملحمة ترمز إلى الإلهة الأم، ولقاء جلجامش بها يحمل دلالةً عميقةً، فهو يرى الأنوثة تخاطبه، وتدعوه إلى التخلي عن قيم ذكورية.. فكيف يستجيب لإغوائها، وهو الحكيم العارف، الذي رأى كل شيء، وخبر الحياة، وأفاد من عبرها؟

– بطلي كائن إنساني من هذا العصر، له نزواته وأخطاؤه، وليس من نسل الآلهة، أو نبياً..

– أنت تسوّغ له فعلته إذاً؟

– قلت لك إنها نزوة.. ألم تقرأي كيف أثملته صاحبة الحانة بخمرها طوال الطريق، وسحرته بمفاتن جسدها؟ ألم يستجب قبله

صديقه أنكيدو لترويض المومس شمخت، فلبث معها ستة أيام وسبع ليالٍ؟

– ذاك كان متوحشاً يأتي الدواب، ويقرّ فؤاده معها..

– لماذا لم تعترضي إذاً على الكاتبة التي جعلت شمخت في مسرحيتها تقدم الخبز لأنكيدو بدلاً من جسدها؟

– لِمَ أعترض؟ هذا تغيير معقول.. وقد قدمت له الحكمة أيضاً وليس الخبز وحده..

– صحيح.. ليس بالخبز وحده يعقل الإنسان!

– وكذلك ليس بالجنس وحده..!

– أنا لم أقل هذا.

– لكنك جعلت جلجامشك يضعف أمام إغراء سيدوري، في حين أن جلجامش الملحمة رجل قلق، مهموم، ملَكَ الحزن قلبَه، وملأه الليل بسبب خوفه من الموت الذي انتهى إليه صاحبه وخليله أنكيدو.

– أضعفته خمرة سيدوري ومفاتنها..

– الرجل القوي لا يضعف.. ها أنت سافرت برفقة امرأة شابة، فهل جرى بينكما شيء؟

ضربني سؤال عشتار في الصميم، فلجأت إلى اختلاق جواب مضلل ومبهم:

- لا توجد مقارنة بيني وبين جلجامش.. ذاك ملك وأنا كاتب.

لكنها كانت فطِنةً، فقالت:

- بطلك ليس ملكاً بل إنساناً عادياً..

- أقصد جلجامش الأصل..

- وأنا أقصد جلجامشك أنت.

تحول النقاش شيئاً فشيئاً بيني وبين عشتار إلى مسائل لا علاقة لها بالرواية، بعد أن انتزعت مني وعداً بإعادة كتابة الفصل، وأدركت أن اختيارها لذلك المكان كان مقصوداً.. إلاّ أنني استطعت في النهاية أن أبدد الهواجس في داخلها، فقالت إنها ستبذل كل ما في وسعها لإسعادي حتى تعوضني عن خيبتي..

تذكرت أن عشتار لم تحاول بشكل مباشر معرفة إن كنت أخذت بوصيتها أم لا.. وربما راعت وضعي النفسي، أو أن سكوتها حمل إشارةً إلى ما تخفيه من هواجس.. كانت عودتي السريعة إلى البيت مفاجأةً لها لأنني أخفيت عنها موت العجوز، وفشلي في الحصول على العلاج حينما اتصلت بي وأنا قادم من الجزيرة.. قالت لي إن نبرة صوتي غير مطمئنة، وتشعر بارتباك في كلامي، فعزوت لها

ذلك إلى تعبي وقلقي.. لكن آنيا كان لها رأي آخر لم تفصح عنه بوجود السائق، بل حين وصلنا إلى الفندق، قالت إن عدم مصارحتي عشتار بالحقيقة سيولد في نفسها إحساساً بأنني يمكن أن أخفي عنها أشياء أخرى..

تركنا عشاق البرلمان في مجونهم وانحدرنا إلى شارع الريدو. كان صاخباً كالعادة في أول الليل، تعج أرصفته بعشرات المارة، وبعض المتسكعين والمتسكعات ذوي الرؤوس الحليقة والملونة، الذين يستوقفون المدخنين طلباً للسجائر، أو النقود، أو بحثاً عن متع عابرة، وعازفي الجيتار، الذين بحت أصواتهم فأخذ المتعاطفون معهم يضعون قطعاً نقديةً صغيرةً في أوانيهم الفخارية المرمية على الأرض، عارضين عن غنائهم.

طلبت عشتار أن أشتري زجاجة شمبانيا من متجر الكحول المجاور للموقف الذي ركنت فيه سيارتي، فوجدناه مزدحما جداً، حيث يقف المتبضعون في ثلاثة طوابير طويلة، حاملين زجاجاتهم بأيديهم، أو في عربات صغيرة، وكأن المدينة كلها مقبلة على السكر في ليلة السبت تلك، فخمنت أننا سنمكث نصف ساعة حتى يأتي دورنا، لكن تخميني كان خاطئاً، فلم نلبث أكثر من عشرين دقيقة. وقفت وحدي في الطابور، وتركت عشتار تتفرج على رفوف النبيذ الموزعة حسب بلدانها، من أقصى الشمال في أوروبا إلى أقصى

الجنوب في أفريقيا. حين خرجت متوجهاً إليها فوجئت بها واقفةً مع آنيا وروزا! ففكرت بأن أوجه اهتمامي إلى روزا بحجة أنني لم أرها منذ آخر لقاء في بيتي، فسلّمت عليها بحرارة، وكررت الاستفسار عن صحتها، ومشاريعها الفنية الجديدة. أما آنيا فقد صافحتها ببرود أثار انتباهها، و لم أتوقع أبداً أن تهمس في أذن عشتار، ثم تمسكني من ذراعي وتقبلني من خدي، وتعتذر لي اعتذاراً رقيقاً ومقنعاً أرغمني على الصمت. سألتها عن مشكلتها مع شاهين، فقالت، بصوت تشوبه نبرة حزن، إنه هددها، وحاول أن يقتحمها في بيتها لينتزع منها شيئاً يهمه أمره، فاستدعت الشرطة لتقبض عليه، فهرب قبل وصولها، واتصل بها بعد عدة أيام من تلفون عمومي ليكرر تهديداته، فحذرتها منه، واقترحت عليها عشتار أن تقيم مع روزا بعض الوقت إلى أن يُقبض عليه، لكنها لم تتحمس لذلك، وودعتنا وخرجت برفقة روزا. وبينما كنت أدير محرك السيارة لمحت عن بعد كاترين متجهةً صوبي، فغادرت المكان مسرعاً قبل أن تراني، وأنا مندهش من الصدفة الغريبة التي جمعت هؤلاء النسوة في قاع المدينة.. وأخذت أفكر بالشيء الذي تخفيه آنيا عن شاهين، ولا تريد أن تطلعني عليه رغم هيامها بي.

دلشاد

شغلتني عزلة سامر المفاجئة بحجة استغراقه في كتابة روايته اللعينة.. كنا نلتقي كل أسبوع تقريباً قبل سفره إلى جزيرة الهنود، فكيف لي أن أتركه هكذا، وأنا الذي ليس في حياتي صديق أعز منه؟ نقاؤه وصفاء روحه نافذتان أطل منهما على عالمي.. دعوته عدة مرات إلى سهرة في شقتي، أو في نادٍ ليلي، أو في مرقص، فاعتذر.. كانت عشتار تشجعني على كسر عزلته التي عزتها إلى حزنه أكثر من الكتابة. وحين عرفت منها أنه يحاول إعادة كتابة ملحمة جلجامش برؤية معاصرة قلت له:

– إن جلجامش يا صديقي عاش، حسب معلوماتي، سعيداً بعدما رجع إلى أوروك فاقداً نبتة الخلود، وقد سبر أغوار الحياة وتعلم حكمتها.. فلماذا لا تكون قريناً له، وتخرج من قوقعتك؟

قال:

– لن أخرج حتى أنتهي من الفصل الثاني.

وأردت أن أغيظه، فقلت:

– متى تبيض هذه الدرة..؟ هل ستكتب الحرب والسلام؟

فضحك، وقال:

– لا.. إنما الدون الهادئ.. هل تُكتب الرواية في أسبوعين أو ثلاثة؟

قلت:

– لِمَ لا؟ ألم تكتب تسليمة نسرين رواية العار في غضون أسبوع؟

– لهذا كانت عملاً تافهاً..

لم أجد طريقةً لانتزاع سامر من البيت إلاّ باللجوء إلى سرجون، ويشار، فخططنا نحن الثلاثة لأخذه بالقوة إلى رحلة صوب الشرق.. حجزنا أربعة تذاكر بالطائرة إلى هاليفاكس، وتوجهنا إلى بيته صباح أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع، وأقنعناه، بشق الأنفس، بالذهاب معنا إلى ساحل المحيط الأطلسي لنضرب، كما يقول المتوحشون، عصفورين بحجر واحد: الهروب، بضعة أيام، من ضجيج المدينة ومنغصاتها، والبحث عن أوتونابشتم آخر، كما يحلو لمخيال سامر أن يسميه، متخصص في تحضير ذلك الدواء النباتي الذي ينشده، رغم قناعتي الشخصية بأنه حتى لو حصل عليه فلن ينتفع منه.. وكانت الرحلة فرصةً ثمينةً، أيضاً، كي نهرب من أخبار البلد المفجعة التي باتت تقض مضاجعنا، وتبخر أحلامنا بالسفر.. لكننا، حقيقةً، كنا

نجد أنفسنا، رغم أنوفنا، نخوض في وحلها بدلاً من الخوض في مياه البحر وأمواجه العاتية، ونختلف في وجهات النظر.. وقد فاجأني سرجون، الذي التقيته مرةً واحدة في بيت سامر، فأصبحنا أصدقاء نتهاتف بين حين وآخر، بأنه شخص تهكمي نادر، فصبّ سخريات لاذعةً على ظهور عدد وفير من الأحزاب الجديدة، مشبهاً إياها بالطحالب التي تنمو في المجاري. وإمعاناً في التهكم اقترح أن نشتري واحداً منها، ونعهد زعامته إلى (ميخا)، أشهر نادل عرفته نوادي بغداد في السبعينيات..

كانت رحلةً مذهلةً إلى الساحل الأطلسي في هاليفاكس.. تشربت أجسادنا دفء منتصف الصيف، ولعبنا كالأطفال بالرمال الندية، واستلقينا على الصخور التي يكتسحها بين حين وآخر مد البحر، فتغتسل، دونما عناء، كما تغتسل النسوة المستلقيات على ظهورهن، وأثداؤهن مشرعة إلى السماء.. مئات النساء الباحثات عن الدفء من كل الأجناس المهاجرة إلى كندا. وكعادتي لم أدع الفرصة تفوتني، فانجذبت إلى فتاة سمراء ذات جسد يفيض بالسحر. كانت تستلقي على صخرة مسطحة، وتضع حمالة ثدييها تحت رأسها، وتغمض عينيها لتتقي أشعة الشمس، فحملت آلتي الموسيقية، وجلست على صخرة قربها، وأخذت أعزف لحناً راقصاً يستثير حتى

الحجر، فرفعت رأسها، وحدقت إليّ بابتسامة صاعقة جعلتني أجن من حلاوة شفتيها المكتنزتين، فتشجعتُ وبادلتها الابتسامة، ثم اقتربت إليها، وصرت في مواجهة صدرها الطليق المضاء بمصباحين متوهجين نافرين.. وكما لو أنها أحست بأن الموسيقى تستحثها للتجاوب معها شرع جسدها في الاهتزاز مع إيقاعها، وهو لما يزل ملتصقاً بالصخرة، وما إن اكتملت شحنته حتى نهضت على رؤوس أصابعها، وبدأت ترقص بهدوء أولاً، ثم بحركة سريعة، وانضمت إليها بعد دقائق بضع فتيات أخريات، وتجمع حشد من الرجال والنساء في حلقة كبيرة للاستمتاع بالعرض الساحلي المثير. وكان أصدقائي ينظرون إليّ ويبتسمون، فأشرت إلى سرجون أن يدفع سامراً إلى وسط الحلقة، فسحله بمعونة يشار، وألقى به بين الأجساد المنتشية، وتذكرت، وأنا أتأمل طريقته في الرقص، فيلم زوربا اليوناني، فصحت به «حياك يا زوربا.. هيا اجعل هؤلاء الكريتيات ينضحن عرقاً حتى يسقطن على قفاهن..»، لكنه سرعان ما أدركه التعب، فانسل من بين الحشد، وجلس على صخرة عند حافة الماء مثل قديس أخذت منه الصلاة كل مأخذ..

حين عدنا إلى الفندق، وبصحبتي الفتاة السمراء، ألحّ علي يشار بأن أسألها إن كان باستطاعتها دعوة إحدى صديقاتها لتتناول معه وجبة لحوم بحرية، ونبيذاً إيطالياً، فقلت له، بنِيّة لا تخلو من الخبث،

متعمداً إغاظته، «لن تنتفع من دعوتها يا صديقي لأنني سأحتل الغرفة برفقة هذه النحاسية الرائعة.. وليس من اللائق أن تستعير من سامر وسرجون غرفتهما المشتركة..»، فتركني أختلي بفتاتي، على مضض، وأمضى قيلولته مع سامر، وسرجون. مكثت الفتاة برفقتي إلى غروب الشمس، ثم ودعتني لتلتحق بصديقاتها اللواتي ينتظرنها في الخيمة على الساحل. يبدو أنها عدّت لقاءها بي مجرد نزوة عابرة، لذلك رفضت أن تعطيني عنوانها ورقم هاتفها. لكن يا لها من نزوة رائعة.. رائحة جسدها ظلت في منخري حتى آخر الليل، ورحيق أنفاسها لم يفارقني إلى اليوم الثاني. لم تتكلم كثيراً طوال الوقت الذي قضيناه.. كم أحب النساء من هذا النوع.. كانت مهووسة بالرقص، فطلبت مني أن أعزف لها أكثر من مرة، وقد حفزتها البيرة المنعشة على أداء حركات ذكرتني بأورسيلا..

خلال العشاء حدثت أصدقائي عنها، فرأى سامر أن مغامراتي النسائية زادت عن حدها، وعليّ أن أفكر جدياً بالزواج، وأيده سرجون، وعارضه يشار، إلاّ أنني لم أقتنع، فقلت لهم «إن باب الزواج قد أغلقته إلى الأبد منذ موت شيرين.. لا أستطيع أن أتصور امرأةً أخرى غيرها تستحق أن أسجن نفسي في قفصها..».

رجعنا بعد العشاء إلى الساحل ثانيةً، كان أغلب نزلاء الفنادق والشاليهات القريبة إلى البحر يتجول على الرمال، أما الذين جاؤوا من المدن القريبة بسياراتهم فإنهم طووا خيمهم، وعادوا أدراجهم مع حلول المساء، ولم يعد ثمة صخب سوى صخب المياه التي أخذت تنحسر عن الصخور، واختفت مشاهد النساء نصف العاريات تحت أشعة الشمس. جلسنا على صخرة كبيرة نتأمل أنوار السفن البعيدة، ونصغي إلى هدير الأمواج. قال سامر «تذكرني السفن بميناء بيروت»، وقال يشار «تذكرني الصخور بسواحل الأطلسي في المغرب»، وقال سرجون «يذكرني نسيم البحر في الليل بنسيم دجلة والسمك المسكوف..»، وأردت أن أداعبهم فقلت «يذكرني تقلب الأمواج بتقلب النساء في الفراش»، فضحك الجميع، وعلّق سامر:

– ظننت أنك ستتذكر سمفونيةً ما، أو عملاً موسيقياً تعتز به..

فقلت متفلسفاً:

– لا فرق بين الموسيقى والنساء.. كلاهما مصدر للذة.. واحدة للروح والأخرى للجسد.. أليس كذلك يا يشار؟

هزّ يشار رأسه موافقاً، وبقي سامر وسرجون صامتين كما لو أنهما اقتنعا بفلسفتي، وواصلا تحديقهما إلى البحر، أما أنا فالتفت إلى ناحية الفندق حيث بدأت تومض في الطابق العلوي مصابيح ملونة تشير إلى بدء نشاط النادي الليلي، وكدت أطلب من أصدقائي أن

نذهب إلى هناك، لكني وجدت أن الوقت لا يزال مبكراً، وتمنيت لو أن الفتاة السمراء ظلت معي الليلة، وأخذت أسترجع ساعات خلوتي بها.. قالت وهي تنحني فوقي وتمسك بركبتيها كأنها تتهيأ لسباق ركض طويل، وتعض على شفتيها من شدة هيجانها «عليك اللعنة.. لماذا لا يفعل جميع الكنديين مثلك بدلاً من أن يفضلوا لعبة الهوكي على المرأة ؟».

حينما أرادت أن تغادر اعترفت لي بأن اسمها أستير، وهي من أصل أثيوبي، ومتزوجة من رجل أعمال، ولن تراني بعد، فقلت لها:

– قد نلتقي هنا في الصيف القادم.. سآتي من أجلك.

إلاّ أنها ضحكت وقالت:

– في الصيف القادم لن أكون في كندا.. سنقضي العطلة في بعض المدن الاسكندنافية.. يُقال إن حر دبي ينافس حر الجحيم..

– ما علاقة دبي بالمدن الاسكندنافية؟

– لأن زوجي سيعمل فيها قريباً.. شركته فازت بعقد لإنشاء مشروع تجاري ضخم هناك.

– وما المشكلة؟ أجيء إليك حتى لو كنت في القطب الشمالي.. اتصلي بي فقط..

لكنها رفضت قائلةً:

- انسَ الأمر.. لقد استمتعت معك اليوم وهذا يكفي..
- لا تكوني بخيلةً، لم أشبع منك بعد.
- هذا أفضل.. إذا شبع الرجل من المرأة أدار لها ظهره.

لم تسألني أستير لا عن اسمي ولا عن أصلي، ويبدو أن علاقتها بزوجها لم تكن على ما يرام وإلاّ لما منحتني نفسها بسهولة. وقد احتفظت بهذا السر، ولم أطلع أصدقائي عليه، لكن سامراً لمح، بذكاء، ما يدل على ديانتها، فأخبرني ونحن ننتهي من العشاء أنه رأى في إصبعها خاتماً صغيراً عليه نجمة داود.

في ظهيرة اليوم الثاني اقترح علينا سرجون أن نذهب لزيارة خاله بولص في مدينة دارت ماوث المجاورة لهاليفاكس، والاستفسار منه عن قرى الهنود الحمر، فرافقناه أنا وسامر، أما يشار فآثر أن يمكث في الفندق، وخمنت أنه كان يطمح إلى اصطياد إحدى الفتيات، وينفرد بها مستغلاً غيابنا. استأجرنا سيارةً سياحيةً صغيرةً قادها سرجون ببطء، كما لو كان يمتطي دابةً هرمةً، متعللاً بأنه يريد أن يتيح لنا فرصة اكتشاف معالم هاليفاكس التي نزورها أول مرة. كنت قد استعرت من الفندق خريطةً للمدينتين، فرحت أوجهه إلى الشوارع التي ينبغي أن يسلكها للوصول إلى جسر ماكدونالد، على المضيق المائي الذي يفصل دارت ماوث عن هاليفاكس. وكعادته،

كلما وضع قدميه في السيارة، أخذ سامر يعبث في الراديو حتى استقر على محطته الإذاعية المفضلة (البي. بي. سي)، متعطشاً إلى سماع نشرة الأخبار، فجلدنا موجزها، مثل كل مرة، بحزمة من أخبار العراق الملتهبة: «بوش يقرّ بأنه حتى لو كان يعرف قبل الحرب عدم وجود أسلحة محظورة في العراق كان سيقوم بدخوله في كل الأحوال. تشكيل مجلس حكم انتقالي مؤقت في بغداد يتألف من 25 شخصاً، ودول العالم ترحب بهذه الخطوة عدا سوريا التي ترى أن المجلس ضم أشخاصاً لا يعرفون العراق بسبب غيابهم الطويل عنه. الجيش الأميركي يعلن عن انتهاء عملية «الأفعى المتسلقة» التي أسفرت عن توقيف أكثر من 200 مشتبه فيه. وولفويتز يقول: العراقيون يعتقدون أن صدام مثل دراكيولا.. قادر على العودة من الموت. ناطق عسكري أميركي يعلن أن طائرةً عسكرية أميركية تعرضت إلى هجوم بصاروخ أرض- جو عند هبوطها في مطار بغداد..... انتهى الموجز وإليكم التفاصيل..». لكن سرجون لم يدع سامراً يسمع تفاصيل النشرة، بل أدار محول الراديو إلى محطة تبث أغانيَ كلاسيكيةً، وهو يدمدم شاتماً كل من ورد ذكره في الأخبار، ثم التفتَ إليه قائلاً:

– لقد صرنا مضغةً سائغةً في حلوقهم.. أولاد الكلب.. موجز النشرة كله عنا.. أليس في العالم أخبار أخرى مقرفة؟

فنظرت إليه من خلال مرآة السيارة، دون أن أنبس بكلمة. وبينما كنا نقطع المضيق المائي، منتشين، ومبهورين بالكم الهائل من الزوارق والقوارب الشراعية على سطحه الداكن الزرقة، صعقنا اتصال هاتفي من روزا، قالت فيه لسامر إن شخصاً مجهولاً هاجم آنيا بمدية، وطعنها في قلبها عدة طعنات، وتوفيت قبل نقلها إلى المستشفى، فأصيب سامر بذهول، وضرب جبينه بكف يده، وقال بصوت حزين يشوبه الانفعال «لقد فعلها إذاً ذلك القذر شاهين..»، فشعرت لحظتها أن ما يربطه بآنيا يتعدى الصداقة البريئة..

أرشدنا خال سرجون إلى زعيم أكبر القبائل الهندية في ولاية نوفاسكوتشيا، فسلخ من وقتنا الوصول إلى محميته، والعودة إلى هاليفاكس، أكثر من أربع ساعات. كان الرجل طاعناً في السن، وبالكاد يستطيع النطق، لكننا فهمنا منه أن ما نبحث عنه محض سراب!

عشتار

تحت صخور هاليفاكس دفن سامر، إلى الأبد، حلمه بالعثور على ضالته عند الهنود الحمر، وصار يأخذ أدويته، التي يصفها له الطبيب، بانتظام وحرص شديدين، لم يألفهما من قبل، منتظراً أن يسري مفعولها البطيء في كُليته الضامرة. وكنت بين حين وآخر ألجأ إلى الانترنيت بحثاً عن علاج فعّال ربما اكتشفه صدفةً طبيب نباتي، أو شخص مهووس بالأعشاب الطبية، فقادني البحث إلى موقع فاجأني بعرض دواء طبيعي اسمه (بَرَأ)، يقول مكتشفه الحلبي إنه مستحلب سائل يؤخذ عن طريق الفم، ويساعد على علاج أمراض الكُلية بدءاً من أي شكوى من الجهاز البولي، إلى الفشل الكلوي الحاد، والفشل الكلوي النهائي. كما يستخدم كوقاية من جميع أمراض الكُلية والجهاز البولي حتى قبل أن تظهر أية إشارة تدل على المرض. ويتكون هذا الدواء من سبعة وعشرين مادة طبيعية تُشكّل سبع مراحل من العلاج لكل مرحلة موادها وعملها ونتائجها وطريقة استخدامها، وهذه المواد، التي يجب أن تخلط بنسب لا يعرفها إلا مكتشف الدواء، هي: الهال، الزنجبيل، الكركم، الجوز، المحلب،

السواك، السوس، القرفة، القرنفل، الشاي الأخضر، الشمرا، الكركديه، حب الرشاد، حبة البركة، الحلبة، جوز الهند، الكزبرة، الخردل، النعناع، الكمون، اليانسون، الفلفل الأسود، البهار، الثوم، البصل، السمسم، وورق الغار. ورغم عدم اقتناع سامر بهذا الخلطة العجيبة وعدني بالسفر إلى حلب إن لم تنفعه أدويته.

في الخريف الماضي انتهى من كتابة مخطوطة روايته التي وضع لها عنوان (خيبة جلجامش)، وأرسلها إلى صديقه الناشر، وراح يخطط لرواية أخرى تدور أحداثها في المستقبل القريب، متخيلاً ما سيؤول إليه الوضع في البلد بعد سنتين أو ثلاث، وهو يرى كيف بدأت دوامة العنف، وتجارة الاختطاف تتصاعد شيئاً فشيئاً، والميليشيات تتناسل تحت أسماء أغلبها ذو طابع ديني ومذهبي، وبات من الصعب على بعض الناس أن يميز بين من هي جماعة مقاومة للاحتلال، وأخرى تمارس الإرهاب ضد الأبرياء، وتكفّر من تشاء على هواها. أما أنا فقد أكملت، في بداية الربيع الحالي، مراجعة قصائدي التي كتبتها منذ بدء الاحتلال، لنشرها في ديوان جديد، لكنني بقيت حائرةً في تسميته. لم أكتب في حياتي بهذه الغزارة، عشرين قصيدةً خلال عام واحد، فالأحداث والتغيرات المتتابعة، الفاجعة منها

والمفرحة، انهمرت على نفسي، بشكل دراماتيكي، كما تنهمر العصي على الرؤوس.

حملت معي بعض تلك القصائد إلى سهرة جمعت ثلةً من الأصدقاء في شقة دلشاد، حينما رتب حفلةً صغيرةً ليفاجئنا بتراجعه عن تمسكه بالعزوبية، ويعرفنا إلى خطيبته المهابادية شيلان، فسرقت نصف ساعة من وقتهم لقراءتها لهم، وطلبت منهم أن يقترحوا عناوين مناسبة للديوان، فاقترحت روزا عنوان (كوابيس عراقية)، وصديقتها جانيت، وهي شاعرة نسوية رافقتها إلى الحفلة، (حليب المارينز)، وسامر (حقول مضرجة بالحداد)، ويشار (شرنقة من حجر إلهي)، وشيلان (الفرات يجري في طرقات مهاباد)، ودلشاد (أنثى طليقة بين الأيائل والندى)، ورشيدة (فاكهة الهجرة)، فاخترت العنوان الذي اقترحته جانيت.

بينما كنا نتهيأ لتوديع دلشاد وخطيبته رنّ جرس هاتف سامر، فأسرع إلى إلقاء نظرة إليه ليعرف من المتصل في مثل تلك الساعة.. وظننته شقيق ساهر الذي اعتاد على الاتصال بنا منتصف الليل، أو بعده أحياناً.. وسرعان ما أعلن سامر أنها مكالمة خارجية فرد عليها.. لكن ظني لم يكن في محله لأن رد سامر على المتصل بقوله «نعم.. نعم.. أنا سامر»، ونهوضه المفاجئ من مكانه كانا يشيران

بوضوح إلى أن ثمة أمراً طارئاً، فدهمني إحساس بالقلق.. وأخذت أحدق إليه بشيء من الدهشة.. وفلتت من فمي كلمة «من؟» لا إرادياً، إلاّ أن سامراً لم يعرني اهتماماً، وقد بدا عليه الارتباك، وتغير لون وجهه، وضغط بيده الثانية على خاصرته كأنه شعر فجأةً بوخزة ألم، ثم سار باتجاه باب الشرفة وفتحه وخرج.. كان الجميع ينظرون إليّ باستفهام وكأنني أعرف ماذا يجري.. حاولت أن ألحق بسامر، فأمسكت بي رشيدة من ذراعي، وطلبت مني أن أنتظر.. مرت بضع دقائق ولم يعد سامر، ففقدت صبري وذهبت إليه.. وجدته محني الظهر ويداه تمسكان بسياج الشرفة الحديدي، فأيقنت أن أمراً فظيعاً قد حدث.. سألته بصوت مرتعش وأنا لا أزال على بعد خطوات عنه:

- سامر.. ما الأمر.. طمئني؟

فأدار رأسه ببطء تجاهي:

- كارثة يا عشتار..

اقشعر جسدي فجأةً، وأحسست بموجة من الاضطراب:

- ماذا قلت؟ كارثة؟

- أخي ساهر..

- ما به؟ ماذا جرى له؟

- خطفوه..

تسمرت في مكاني، وشعرت بأن قدميَّ لا تكادان تحملاني، لكنني استجمعت قواي، وصحت بصوت مرتفع جعل دلشاد يهرع إلينا:

- من الذي خطفه؟

فقال دلشاد بهلع:

- عمّ تتحدثان؟ من خطف من؟

قلت:

- خطفوا شقيقه ساهراً.

- اللعنة.. من الذي كلمك؟

قال سامر:

- لا أدري... لم يكشف عن هويته. ربما كان زعيمهم.

قلت:

- وماذا يريد الكلاب منه؟

- يريدون أن أدفع لهم فديةً..

سأل دلشاد:

- تدفع لهم فديةً؟

- خمسين ألف دولار أميركي!

أذهلني الرقم فقلت غاضبةً:

– بل خمسين ألف حذاء فوق رؤوسهم.. من أين لنا هذا المبلغ؟ هل يعتقدون أنك رئيس شركة سنتريون؟

– الكل هناك يتوهم بأن الدولارات في الغرب مرمية في الشوارع مثل أعقاب السجائر عندهم.

– وماذا سنفعل؟

– لا أدري.. إنها مصيبة كبرى.

لحق بنا يشار وروزا، فأطلعهما سامر على المشكلة بصوت بدا يشوبه وهن، وهو يشبك ذراعيه على صدره كمن شعر بموجة برد تجتاحه، فأخذتهما الدهشة للحظات، وعجزا عن النطق. أمسك دلشاد بسامر من يده وربت على كتفه، وسحبه إلى الداخل طالباً منه أن يتحلى بالصبر لحين إيجاد مخرج. جلس الجميع في أماكنهم وران عليهم الصمت.

بعد بضع دقائق اقترح دلشاد أن نفاتح أصدقاءنا المقربين كلهم ليسهموا في جمع المبلغ الذي يطالب به الخاطفون، لكني اعترضت عليه لكون المبلغ كبيراً، ويصعب الحصول على نصفه بهذه الطريقة، ففاجأتنا روزا مرةً أخرى بأنها ستدفع نصف المبلغ، ومدت يدها إلى

حقيبتها، وأخرجت منها دفتر شيكات، وكتبت على أحدها اسم سامر، ووضعته تحت كأسه أمام ذهول الجميع، وهي تقول:

– إنه ثمن خمس لوحات بعتها، وباستطاعتك أن تصرفه غداً.

ثم سحبت منديلاً من علبة على الطاولة ومسحت به دمعتين انحدرتا على وجنتيها:

– اعذروني.. لقد تذكرت العزيزة آنيا.. أشعر بأنها تنقصنا في هذا الموقف..

وقبل أن ينبس سامر بشيء أعلن دلشاد بأنه يتبرع بخمسة آلاف دولار، وتبعه يشار بالتبرع بثلاثة، وانتزعت رشيدة قلادتها وأساورها الذهبية ووضعتها على الطاولة، وقالت، مخاطبةً سامراً بلهجة نصفها مغربية ونصفها عراقية، «الذهب ذخيرة ليوم الشدة.. الله يفرجها عليك..». ورغم أنني سمعت كل ما قالوه بوضوح بقيت مبهوتةً غير قادرة على استيعاب الموقف، وسيطر عليّ إحساس بأنني أقرب ما أكون إلى عالم خيالي، إلى الحلم، فمنذ قليل كان حل المشكلة فوق طاقة خمسين صديقاً، والآن أصبحت محلولة بفضل خمسة منهم فقط. لكن عبارة اعتذار خجولة أطلقتها جانيت، لعدم امتلاكها شيئاً ثميناً تتبرع به، جعلتني أزيح عن رأسي ذلك الإحساس، وأذرف دموعاً ممزوجةً بالغبطة، واندفعت بشكل لا إرادي إلى احتضان روزا،

ورشيدة وتقبيلهما. وبينما كنت أصافح دلشاد، ويشار بخجل على كرمهما أخفى سامر وجهه بين كفيه، وبدا عاجزاً تماماً عن التعبير، فالتقط دلشاد الشيك والمصوغات الذهبية، ووضعهما في جيبه، وقال له:

– لقد فرجت يا أخي.. سأتصل بسرجون أيضاً.. وعليك أن تتكفل بباقي المبلغ.. هل حدد لك الأوغاد موعداً؟

تنهد سامر وأجاب بصوت تخنقه العبرة:

– أسبوعين فقط.. لكن لا أدري كيف سأوفي نبلكم العظيم هذا.. آه يا روزا فدتك أعمار هؤلاء الموتورين.. وأنت يا دلشاد، ويا يشار، ويا رشيدة.. سأظل مديناً لكم طوال حياتي.. أما آنيا فإني أكاد أتحسس روحها ترفرف بيننا في هذه اللحظة يا روزا..

في مساء اليوم التالي زارنا سرجون، وناتالي، إثر اتصال دلشاد بهما، حاملين معهما تبرعاً سخياً، وأمضيا معنا ساعتين قبل أن يعودا إلى مونتريال. ولم تنس ناتالي أن تحذر سامراً من الخاطفين، وأوصته باتخاذ وسيط يعتمد عليه بينه وبينهم لئلا يغدروا به، وذكرته بحكمة تقول «لا يكسب من يملك الحق، وإنما من يحسن المساومة». وقد زاد تحذيرها من قلقي، ورحت أفكر بوسيلة غير سفر سامر لإيصال الفدية إلى كركوك، إلاّ أنني عجزت عن إيجادها، وأخذ الخوف يملأ

قلبي وأنا أتصور أسوأ الاحتمالات. وكان من عادة سامر كلما واجه موقفاً صعباً أن يدون انطباعاته عنه في يومياته التي دأب على كتابتها منذ سنين، فكتب بعد رجوعنا من بيت دلشاد:

«لم يخطر لي في يوم من الأيام أن أعود إلى بلدي مرغماً.

كنت قطعت على نفسي عهداً، وأنا أجتاز الحدود من صفوان إلى السعودية، بأن لا أعود إليه إلاّ بمحض إرادتي حينما تزول الغمة عنه.

مات أبي بعد خروجي بستة أعوام، ولم أحضر مراسم دفنه ومجلس عزائه.. اعتقل الأمن أخي ساهراً لإرغامي على العودة فلم أعد.. صبرت أمي على اعتقاله أشهراً، ولم تطلب مني أن أرضخ لتهديدهم. ولما يئسوا من رجوعي أطلقوا سراحه.

ماذا أسميها؟

أهي مفارقة أم محنة؟

موت العزيز أبي، وضغط سلطة مرعبة يعجزان عن إرغامي على العودة، في حين يفلح بضعة أوغاد في جر قدميّ. لقد توهموا بأنني مادمت أعيش في بلد غربي، فإنني من الثراء بحيث لا أتردد في دفع أي فدية يطلبونها مقابل إخلاء سبيله!

من كان يتصور أن تغير الحال سيفضي إلى هذا الخراب؟ الخراب العجيب الذي يبدو أنه كان مطموراً مثل طبخة فاسدة في قدر متروك ما أن رُفع الغطاء عنه حتى فاحت رائحته النتنة.

أهذه هي الحرية التي هبطت علينا؟ أي ثمن باهظ سندفعه؟ إني أكاد أرى خلف ظهر العاصفة مزيداً من المآسي المؤلمة، وجل ما أخشاه أن يأتي يوم يترحم الناس فيه على ما مضى...».

ساهر

إن أكثر ما يؤلمني هو أن يحمّل سامر نفسه ذنب ما جرى لي حينما سيعرف هوية خاطفي. سيقول، حتماً، لائماً ذاته «لو لم أكن ذات يوم طرفاً في ما أصابه من أذى لما خطط الناس لخطف أخي..». وأخشى أن يكون هذا الشعور سبباً مضافاً لأن يضحي بكل ما يملك، وهو لا يملك غير أثاث بيته، بل ويضطر، كي ينقذني، إلى أخذ قرض يقصم ظهره سنينَ طويلةً قبل أن يتمكن من تسديده، رغم أني واثق من أنه ليس بحاجة إلى سبب كهذا ليضحي من أجلي، فعلاقتنا أعمق بكثير مما يربط بين الإخوة عادةً، إنه المثل الأعلى في حياتي، واليقين والطمأنينة، والكائن المضيء الذي أنارت إشعاعاته بصيرتي. حين رأى خربشاتي الأولى على الخشب، وهو عائد في إجازة من جبهة الحرب، ابتهج كثيراً، وربت على كتفي قائلاً:

– أنت فنان موهوب ولست نجاراً.. استمر في الحفر ولا تتوقف حتى لو نهرك أبي.

لكنه في الوقت نفسه حذرني من الانغماس في أجواء الحرب، فقلت له:

– في المدرسة يشجعوننا على ذلك.

قال:

– دعك منهم.. اختر موضوعات أخرى أهم منها، فالحياة ملأى بأشكال وصور جميلة.. أما الحرب فهي قبيحة وقذرة.

من يومها كرهت الحرب ومفرداتها، وصرت تدريجياً أفتح عينيّ على الحياة من حولي، وأتأمل الطبيعة والناس بطريقة مبالغ فيها، محاولاً أن أكتشف، ليس ملامحها العينية الظاهرة فقط، بل ما وراءها: بواطنها، وحقائقها، ومعانيها، وأن أصورها وفقاً لبصيرتي، أو لعين قلبي. وكانت مكتبة سامر خير معين لي فيما بعد، فقد غمرتني بفيض من المعرفة، وعمقت رؤيتي، وقادتني إلى أفق الخلق بدلاً من النقل. وهكذا أصبحت بفضلها أنظر إلى الطبيعة والأشياء بوصفها موضوع تأمل واستبصار وكشف، وراحت قناعتي بأن وظيفة المبدع ليست تكرار العالم، بل تحريره وإعادة خلقه، تترسخ شيئاً فشيئاً، آخذاً بصوفية الفن التي لا تنفي الحياة كونها زائلةً، وإنما كونها حجاباً. وإذا ما كُتب لي أن أنجو من هؤلاء الأوباش فإنني سأعتكف في مشغلي أياماً طويلةً لأحفر في لوح كبير ما حفرته محنة الاختطاف القاسية في وجداني من أثر مدمر.. سأغوص عميقاً في باطن هذا الفعل

الخسيس لأمسك بعصبه وحركته، وأنثرهما على سطح اللوح في أشكال تجريدية تزيده بشاعةً في عين الرائي.

ها هو اليوم العاشر يمضي وأنا مرمي في هذا القبو الذي تفوح منه روائح نتنة تنبعث من كومة جلود لحيوانات مختلفة: خراف وعجول وماعز، وخليط من البعر، والبول اللذين يجود بهما، بإفراط غريب، جدْيٌ أرقط مربوط من عنقه إلى دعامة رخامية لا تفصلها إلا مسافة قصيرة عن الدعامة الثانية التي أوثقوني إليها بسلسلة معدنية، يكفي طولها لأمدد ساقيّ حينما يدهمني النوم، وكأنني بطل فيلم مغامرات هوليودي بمقدوري أن أحطم باب القبو الحديدي، وأهرب من معتقلي! إنني أسميه بالمعتقل من باب المجاز، فحين أتذكر الآن معتقل الأمن، الذي قضيت فيه أكثر من شهر قبل سنين، أجده أكثر إنسانيةً ورحمةً من هذا الاسطبل. ومما يزيدني اشمئزازاً، ويعاظم شعوري بالحنق على أصحابه، رائحة السمك المقلي بالزيت التي تخرج يومياً من مطبخ البيت، وتتسلل إليّ عبر النافذة، فلا أملك إلاّ أن أردد مع نفسي: «أليس في المدينة ما يؤكل غير السمك المقلي بالسم يا أبناء العاهرات؟»، ولولا قارورة العطر التي كنت أحملها في جيبي صدفةً لأهلكتني هذه الروائح المقرفة. قبل بضعة أيام دفعت عشرة آلاف دينار رشوةً للغجرية التي تقدم لي الطعام حين يكون

الخاطفون خارج البيت، لأحصل منها على منشفة نظيفة أعطرها وأغطي بها وجهي كلما أردت أن أغفو، أو أبعد الروائح عن أنفي. قالت لي عندما شمت العطر إن رائحته ترغم أصلب امرأة على رفع ساقيها للرجل! وأرفقت تعليقها ببعض التلميحات المبتذلة، فخطر لي أن أستغل ما يجول في بالها، وأكذب عليها لعلها تطلق سراحي، قلت:

– أنت امرأة جذابة حقاً فما الذي يرغمك على التعفن في هذا البيت؟

فزمت عينيها الملطختين بطلاء أزرق كثيف منفر، وهي لا تزال واقفةً على مبعدة خطوات عني، وقالت:

– إلى أين أذهب؟ لا أستطيع أن أعود إلى عالمي السابق.. الأحزاب الدينية تريد أن تحولنا إلى ناسكات.. هل سمعت من قبل بوجود غجريات محجبات؟

– ليس هذا ما أعنيه، بل أدعوكِ إلى الزواج من شاب يمنحكِ المال والسعادة..

اقتربت إلي، وأسندت جذعها إلى الدعامة الرخامية بإحدى يديها، وأخذت تدعك شعري بيدها الثانية، وسألتني:

– وأين أجد مثل هذا الشاب المغفل وأنا فوق الأربعين؟

فرفعت رأسي إليها، وقلت:

– ليس مغفلاً من يرتبط بامرأة جميلة مثلكِ.. إن أقبلتْ فتنتْ وإن أدبرتْ قتلتْ..

– لقد أتخمتُ من هذا الكلام.. هل تضمن لي أنت رجلاً كهذا؟

– و لِمَ أضمن لك وهو أمامك؟

ارتمت فجأةً على البطانية المهترئة المفروشة تحتي، وأمالت جسدها إلي، وفتحت أزرار قميصي، وأخذت تمسد صدري بأصابعها، وقالت:

– خشونة شعرك مثيرة مثل رائحة عطرك.. ماذا تقصد؟

– قصدي واضح..

أطلقت ضحكةً قويةً مجلجلةً، فبان في فكيها صفان من الأسنان الذهبية، ثم أخرجت لسانها، ومسحت به شفتيها:

– أتفضله زواج متعة أم زواجاً دائماً؟

– أفضل الثاني..

أطبقت بكلتا يديها على حزامي فجأةً، وشرعت تفكه، وهي تتفرس فيّ بعينين تنضحان عهراً:

– دعني أجربك أولاً.. خبرتي في الرجال واسعة، ولن تستطيع أن تخدعني..

- ألا يوجد أحد في البيت؟

- اطمئن..

- فكي وثاقي إذاً.. هكذا لا أستطيع أن أتحرك..

- المفاتيح معهم .. دع الأمر لي..

رغم ارتباكي، وخشيتي من مباغتة أحدهم، استلقيت على ظهري طائعاً مستسلماً. وفيما كانت يداي تمسكان ببطنها الشبيهة بحوض فارغ، وهي تختض فوقي كقربة معلقة في رُجاحة، حاولت أن أتظاهر بأنني متيم جداً بها، ورحت أبالغ في التغزل بجسدها، وأطري على جمالها ببلاغة مفتعلة، لكنها كانت ابنة سفاح بالفعل، فقد قالت حينما نهضت لترتدي ملابسها:

- أنت ممثل فاشل.. الرجل الذي يهوى امرأةً لا يثرثر وهو مستغرق في مضاجعتها، بل يتأوه كالملسوع!

- صدقيني لم أمثل عليك.. أردت أن أعبّر عن إعجابي بك..

- العب بعقل غيري.. أنت لا تعرف حتى اسمي فكيف أثق بك؟

- أنت الخاسرة..

- ماذا تخسر غجرية كل رأسمالها هنا؟

أشارت بيدها إلى فرجها، ثم اتجهت إلى الباب لتخرج، وقبل أن تقفله أطلت برأسها وقالت:

– كنت استقبل يومياً دزينة زبائن في حي الطرب وكلهم كانوا يعبّرون عن إعجابهم بي..

فضحكتُ، أول مرة منذ اختطافي، ضحكةً عاليةً بلغت أسماعها وهي ترتقي درج القبو، ثم التفتُ بشكل لا إرادي إلى جاري، الذي أدار مؤخرته تجاهي، ووسع ما بين ساقيه استعداداً لإخراج وجبة جديدة من فضلاته، وسألته، كما لو أن بيني وبينه أسراراً وإلفةً، «هل أعجبك كلامها؟».

في اليوم التالي فاجأتني الغجرية بدخولها عليّ وقت الظهيرة، وليس على جسدها سوى قميص نوم شفاف بلون البطاطا، حاملةً مروحةً قديمةً يعلوها الصدأ، وصينيةً عليها طبق من مدردرة العدس بالرز، وفخذ دجاج محمّر، وكأساً مملوءة بسائل أبيض ظننته لبناً، وقالت:

– لا سمك اليوم.. وهذه المروحة التي تساوي خمسة عشر ألف لتتهوى بها.. أعرف أنك ستتعرق بعد هذا البيك الحيدري..

– لم أعد أملك إلاّ عشرين، خذي نصفها.. وهذا العرق اشربيه أنت فأنا لا أحبه..

– مسكين.. لا يحب العرق! لو علموا أنني أضيّفك خمرةً لقلبوا الدنيا على رأسي.. اشرب ولا تتبطر.. وراؤك مهمة جديدة.

– لن أشرب.. وأرجو أن لا تطول ضيافتي عندكم؟

– هذا يعود إلى أخيك.. متى ما دفع الفدية أطلقنا سراحك..

تطلعت إليها باستغراب، ولم أرد عليها، ثم سحبت الصينية لأتناول طعامي. كانت معدتي فارغةً منذ أن عافت نفسي السمك الذي قُدم لي في وجبة العشاء، لكنها ظلت واقفةً أمامي كسحابة ثقيلة، وهي تباعد بين ساقيها عمداً، وتشفط دخان سيجارتها، وتحدق إليّ بعينين شبقتين، فباشرتُ في التهام طبق المدردرة، متلذذاً بطعمها، رغم فساد جو القبو الذي يسد النفس.. عندئذ ارتسمت على محياها ابتسامة عريضة، وقالت:

– شهيتك مفتوحة اليوم على الأكل.. أما أنا فإن عطرك اللعين فتح شهيتي عليك..

ودعكت صدرها براحة يدها مثل ممثلات الأفلام الإباحية الرخيصة، وقالت:

– هل ترغب في أن نفعلها مرةً ثانيةً؟

ازدردت لقمةً كبيرةً من فخذ الدجاجة، وأجبتها:

– أي شبق هذا يا امرأة! يتقاسمك ثلاثة رجال في البيت ولا تزالين جائعةً؟

– كلهم يديرون لي ظهورهم وقت النوم، ويتسابقون على أختي الصغيرة.. كأن ما عندي في داخله أفعى، وما عندها يقطر عسلاً..

– لك أخت شابة معك في البيت؟

– في البيت المجاور.. مع الزعيم..

– أين القسمة العادلة إذاً؟

– قسمة عادلة؟ هاتِ البيك سأكرعه أنا.. الدنيا لا تساوي حذاءً من غير عرق.

ناولتها الكأس فأفرغت نصفها في جوفها دفعةً واحدةً، واستلت سيجارةً أخرى كانت تخفيها فوق أذنها، وأشعلتها بعقب السيجارة الأولى، وسحبت منها نفساً، ثم حلت عقدة قميصها، وعلقته على مسمار مثبت في الجدار، وتقدمت إليّ، فرأيت، أول مرة، كدمات زرقاء على فخذيها.. جثمت إلى جانبي، وطفقت تتشمم رقبتي وملابسي، ورائحة العرق في فمها تنفذ إلى أنفي بقوة:

– ما الذي أوقعك في قبضتهم؟

تحسرت بعمق، وأزحت الصينية من أمامي، واستلقيت على ظهري، كما في المرة السابقة، شاعراً بأنني مقدم على أداء عمل شبيه بالأشغال الشاقة، وقلت:

– لقد أوقعتني حماقتي..

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ حدث الأمر خارج إرادتي، فاضطررت إلى الخروج من البيت في ساعة متأخرة من تلك الليلة

المشؤومة.. كان أخي إبراهيم في العمل.. أخبره مديره بتعرض أحد أنابيب النفط إلى التخريب، فقطع إجازته، والتحق إلى بابا كركر بسيارته قبيل غروب الشمس، ولن يعود إلاّ في الصباح، فأخبرتني أمي، عقب ذهابه بأربع ساعات، بأنها أخرجت علبة الأنسولين من البراد، ونسيت أين وضعتها، وقد فتشت كل زوايا البيت فلم تجدها، ولا بدّ من الحصول على قارورة واحدة في الأقل لتحقن بها ذراعها وإلاّ ستتعرض إلى متاعب صحية خطيرة، فاتصلت بصديق لي يعاني أبوه، أيضاً، من مرض السكري، ورجوته أن يعيرني قارورةً واحدةً، فقال إن بإمكاني استعارة أكثر من واحدة. كان الوقت قد تجاوز التاسعة مساءً، ومغادرة البيت دونما سيارة محفوفة بالمخاطر. إنه يوم التاسع من أبريل، ووقوع هجمات فيه أمر محتمل جداً، لذا كان الجميع في أقصى حالات الإنذار. ارتديت ملابسي على عجل وخرجت إلى الشارع، وأنا ألعن الجميع، دونما استثناء: أميركا، وداء السكري، وبريمر، ومجلس الحكم..

انتظرت نصف ساعة فلم أحظَ بأي تاكسي، من يجرؤ على العمل في تلك الليلة؟ قررت أن أذهب مشياً وليحدث ما يحدث. أحتاج إلى أكثر من ثلاثة أرباع الساعة لقطع المسافة، فكرت ربما تصادفني سيارة شرطة فيتكرمون، إذا ما عرفوا غايتي، بإيصالي إلى

بيت صديقي في محلة بريادي. سلكت في البداية أزقةً شبه معتمة اعتدت عليها في النهار، لكني اضطررت بعد ذلك إلى السير في شارع شاطرلو الرئيسي الذي يجب أن أسلكه أولاً للوصول إلى جسر الطبقجلي، وتعمدت أن أترك مسافةً بيني وبين الأبنية والدكاكين المنتشرة على جانبي الشارع حتى لا يُساء الظن بي. كانت تمرق بين حين وآخر سيارة مدنية مسرعة كأن أحداً ما يطاردها، أما المشاة فلا وجود لهم أبداً، فبدت المدينة نصف المظلمة مهجورةً، فاقدةً لنبضها. انعطفت بعدئذ من ذلك الشارع إلى زقاق طويل ملتوٍ تحفه بيوت قديمة مبنية من الحجر الأبيض، وتنبعث من داخل بعضها أغاني تركمانية وكردية، ولعلعات فضائيات عربية ومحلية، ويتوسط الزقاق مجرى مائي آسن، ولولا ضوء القمر الشاحب لتعثرت به قدماي أكثر من مرة. تنفست الصعداء حينما أسلمني مباشرةً إلى شارع الجمهورية، فمررت من أمام محل أبي القديم، والتفت إليه لا إرادياً، وشعرت بشيء من الحسرة، وسحبتني ذاكرتي إلى سنوات صباي التي تبرعمت بين نشارة ألواحه الخشبية وغبارها المتطاير من تحت المنشار الكهربائي، وتراءت لي صور عديدة، لكنها مضببة، للمرحوم أبي وهو يدق المسامير، أو يعشّق قطع الخشب بعضها ببعض بغراء لاصق أبيض اللون، أو يدهن

الموبيليا بذلك الدهان الممزوج .بمطهّر السبيرتو ذي الرائحة الكحولية الذي تضمد به الجروح، أو يصقل أجزاءها الخارجية بالورنيش.

سمعت مقابل مبنى سينما الحمراء الصيفي صوتاً خاطفاً، لكنه بعيد، لرصاصة انطلقت خلفي، فلذتُ .بمدخل زقاق مظلم مغلق تقبع فيه بضعة بيوت أقفلت أبوابها مبكراً، وتسمرت في مكاني ملتصقاً بالجدار. شعرت، بعد بضع دقائق، بأن الوضع هادئ فأخرجت نصف رأسي بحذر، وتطلعت إلى مصدر الصوت، فلم ألحظ أي شيء، ثم حثثت خطاي باتجاه مبنى المحكمة القديمة، وهناك عند الزاوية التي يشكلها المبنى لتتقاطع أمامها عدة شوارع دهمتني الحيرة.. أأتجه إلى شارع الأوقاف أم إلى شارع أطلس؟ أيهما أكثر أمناً؟ وأخيراً حسمت أمري، واخترت الأول، وسرت على محاذاة مبنى القشلة الأثري، متجنباً المرور من أمام نادي الضباط الذي يحرس بوابته جنود مسلحون قد يستوقفونني. رأيتهم يصوبون إليّ نظراتهم وأصابعهم متأهبة للضغط على أزندة بنادقهم إذا ما صدرت عني أي حركة مريبة، وأخذت أبلع ريقي شاعراً بجفاف مباغت ضرب جوف حلقي، ثم انحرفت إلى اليمين لأعبر من أمام فندق كركوك. كان بعض غرفه في الطابق العلوي مضاءً بالنيون، وبعضه الآخر .بمصابيح حمراء خافتة، لكن سياجه الحجري، بنتوءاته التي تشبه أثداء

تماثيل آرتميس، حجب عني باره الأنيق في الطابق الأرضي الذي كنت أرتاده مساء كل خميس مع صديقيّ شيرزاد وآيدن قبل ثلاث سنوات. ولم أعد أتردد عليه بعد رحيلهما المفجع إلاّ مرةً في الشهر، ثم انقطعت عنه نهائياً مع بدء الحرب. في المرة الأخيرة، وكانت قبل الإنذار الذي وجهه بوش بيومين، جلست إلى نفس الطاولة التي كنا نجلس إليها نحن الثلاثة، فشربت أكثر من المعتاد. كنت منزعجاً لأن أحد ضباط الأمن حقق معي حول الرسائل التي تصلني من الخارج، وتحديداً في ما إذا كانت أسماء مرسليها صحيحةً أم مستعارةً، رغم أنها لا تتضمن أي محذور، أو إشارات يمكن تأويلها تأويلاً سياسياً مغرضاً. وقد حفزني اشتياقي إلى صديقي اللاجئين في أقصى شمال الأرض وأقصى جنوبها إلى مناجاتهما سراً في داخلي، كما لو أنني ألتقيهما وجهاً لوجه بعد طول غياب «لَمَ تركتماني وحيداً يا صديقيَّ العاقَين؟ هل وجدتَ يا شيرزاد في مالمو من ينكب أياماً طويلةً على لوح خشبي ليحفر عليه وجهك الشبيه بوجه رامبرانت مثلما فعلت أنا؟ وهل حظيت بصديق حميم يصغي إلى صوتك الجبلي الرخيم وأنت تغني مقام دشت (لا تقتليني بالهجران يا روحي)، مثلما كنت أصغي إليك إصغاءَ عليلٍ إلى ضربات قلبه؟.. وأنت يا آيدن، هل صفَّق لك أحد في سدني بحرارة جعلتك تخر على المسرح باكياً

وأنت تنتهي من أداء دورك، مثلما صفقنا لك في ذلك الشتاء الكركوكي القارس؟ أتذْكرُ يوم قرأتَ قصة (توهج بلازما الخيال) لجليل القيسي، فأقسمتَ لي أمام شيرزاد، ونحن نحتفل بتخرجنا في الكلية، بأنك لن تغترب عن هذه المدينة حتى تغترب عنها أحجار القلعة؟ فلماذ حنثتَ بقسمك أيها اللعين؟ كان بإمكاني أيضاً أن ألتحق إلى أخي لاجئاً مثلما فعلتما، لكنني، كما تعرفان، لا أطيق مرارة الغربة، والتصاقي بالمدينة يعادل التصاقي بأمي.. مثالية ها؟ قهقها أيها اللعينان.. والله سيذبل صوتك هناك من البرد يا شيرزاد، ويتحول حلمك بالنجومية إلى كابوس.. ولن تسعفك بكلوريوسك في الموسيقى، ولا ألحانك الجميلة.. أي حمار سينفق مالاً من جيبه ليسجل لك ألبوماً في مالمو؟ ثق بأنك ستحسد من هم أقل منك موهبةً في كردستان لأنهم أصبحوا في أقل من سنتين نجوماً في فضائياتها. بالله عليك ألا تحن إلى ليلان؟.. بلدتك التي أذاقتك فيها جارتكم المطلقة گلبهار طعم المرأة وأنت صبي.. أخذك عزرائيل! كيف فعلتها مع واحدة أكبر منك بربع قرن؟ لقد كنتَ السبب في رحيل أسرتك إلى كركوك خوفاً من الفضيحة. ورغم ذلك تقول إن والدك ارتكب حماقةً في خروجه من ليلان.. كانت عنده مهنة تدر عليه ذهباً فتخلى عنها بسبب أخلاقيات عقيمة، وارتضى بأن يعمل

فرّاشاً في مدرسة! لكن هيه.. لولا قرار والدك لما تعارفنا، وربما كنتَ الآن تحمل شهادةً في زراعة الطماطم والباذنجان بدلاً من الموسيقى. أما أنت يا لورنس أوليفيه!.. ولِمَ أسخر منك؟ ألم تكن تشبّه نفسك به؟.. لا تقل لي أنك تعمل مع أكبر الفرق المسرحية في أستراليا، بل صارحني بالحقيقة دونما خجل.. هل تعمل معبئاً في محطة للوقود أم موزعاً للصحف؟ حسناً ربما أفضل من ذلك.. ماذا؟ بائعاً في سوبر ماركت أم عاملاً في مطعم؟ أعرف أنها مهن ليست حقيرةً، فأخي سامر أيضاً يعمل، مضطراً، في محل لبيع الملابس النسائية في كندا، وهو كاتب معروف، ويحمل شهادةً عليا، لكنها ستستنزف طاقتك ووقتك من أجل العيش، ولن تستطيع تحقيق أحلامك المسرحية.. آه يا آيدن العزيز.. أنت مازلت حديث العهد بذلك العالم.. ستكتشف أن أصحابه لم يقبلوك لاجئاً في بلدهم لاعتبارات إنسانية محضة، بل لأنهم في حاجة ماسة إلى عمال يشتغلون في مهن خدمية ذات أجور واطئة.. وعندئذ سيحطمك شعورك بالغبن.. هل تأخذ بنصيحتي؟ إن أردت أن تعمل في المسرح حاول أن تصادق إمرأةً ثريةً في الخمسين، مطلقةً أو عانساً أو أرملةً، ولا تتردد في الزواج منها إذا اقتضى الأمر، ودعها تنفق عليك مقابل أن تمنحها شبابك.. ويُفضل أن تكون لغتها الأصلية هي الإنجليزية لتتعلمها بسرعة فيسهل عليك،

بمساعدتها، أعني صديقتك أو زوجتك، الدخول إلى عالم المسرح، وتوثيق علاقتك مع المشتغلين فيه.. كن براجماتياً مرةً واحدةً في حياتك يا أبله، وإلاّ ستعود إلينا بعد بضع سنوات وقد نسيت ألف باء المسرح، وجفت موهبتك...».

بقيت مسترسلاً في مناجاتي فترة طويلةً، دون أن أنتبه إلى أنني آخر من بقي في البار بعد انتهاء الوقت المخصص له في منتصف الليل، إلى أن نبهني النادل، فاعتذرت له وخرجت متأبطاً رواية سامر (سمفونية أرابخا) التي قرأت فصلين منها قبل أن تدب الفودكا في رأسي، ووقفت أمام بوابة الفندق لأستنشق نسمات منتصف الربيع المخضبة بروائح القرنفل والليلك، شاعراً بأنني سأفتقدها مع هبوب حمم الحرب التي ستلوث سمومها سماء المدينة عما قريب. وبعد يومين فقط هبت طلائع تلك الحمم محملةً بسموم أسلحة أشد فتكاً من تلك التي استنشقناها في بداية العقد الماضي.

واصلت سيري باتجاه شارع المجيدية، فلمحت عن بعد دوريةً أميركيةً مؤلفةً من خمس مدرعات همفي، تربض عند رأس جسر الطبقجلي، يعتليها جنودٌ ممسكون بقبضات مدافعهم الرشاشة، وقد هبط منها إلى جانبي الشارع نحو عشرين جندياً، مشكلين مفرزةً طارئةً، هكذا خمنت، لتفتيش أي سيارة تقطع الشوارع التي ترتبط

بالجسر. كانت ثمة مقهى كبيرة إلى شمالي أعرف مصرياً يعمل فيها اسمه عوضين، في عمر سامر تقريباً، يخدم زبائنها في النهار، ويحرسها في الليل، مقيماً في غرفة ملحقة بها أعدت أساساً لتكون مخزناً. وقد اعتاد صاحب المقهى أن يترك الكراسي والطاولات الخشبية في الجزء الصيفي منها حينما تغلق أبوابها في الليل، لكني فوجئت في تلك الليلة بأنه حشرها في الداخل. خطر لي أن أطرق الباب لأسأل عوضين عما إذا كان عبور الجسر مشياً مع وجود الدورية الأميركية يشكل معضلةً كبيرةً أم لا، «لكن ماذا لو رآني المارينز، فرضاً، فحسبوا أنني لص؟ هل سيهرع بعضهم للقبض علي؟ سأقول لهم نادوا على الحارس واسألوه.. بيد أنه قد لا يكون الليلة في المقهى».. سمعت فجأةً صوت دوران مفتاح الباب، فإذا بـــعوضين يطل برأسه، ويصرخ بهمس قوي:

– ساهر بيه! تعال بسرعة.. ماذا تفعل هنا؟

اندفعت بأقصى ما أستطيع إلى داخل المقهى، فأغلق عوضين الباب، ووضع الفانوس الذي كان يحمله على الطاولة، وتأملني بوجه شاحب:

– ما الذي أخرجك من البيت في هذا الوقت العصيب؟

ارتميت على أحد الكراسي مضطرباً، شاعراً بمرارة في مؤخرة حلقي، وارتفاع قليل في ضربات قلبي، وبلعت ريقي، وطلبت منه أن يقدم لي كأس ماء، فقال:

– سامحك الله يا بيه! لو أنك اقتربت من أولاد الكلب الواقفين عند الجسر لرموك على الأرض، وداسوا على رأسك.. لكن الحمد لله أنني رأيتك قبل أن تصل إليهم.. ما الذي اضطرك إلى الخروج؟

– احتاجت أمي إلى الأنسولين فخرجت لأستعير قارورةً من صديق في الصوب الكبير.

– سامحك الله يا بيه.. أنا أعيرك عشر قارورات إن أردت.. هل نسيت أنني مصاب بالسكري أيضاً؟

وذهب عوضين على الفور إلى غرفته، تاركاً إياي مأخوذاً بالمفاجأة، وعاد بعد لحظات حاملاً كيساً ورقياً..

غادرت المقهى بسرعة مثلما دخلت، وسلكت الشوارع والأزقة نفسها التي سلكتها من قبل، فلم يصادفني أي عائق سوى سيارة شرطة استوقفتني في شارع الجمهورية، وسألني الضابط، الذي بدا واضحاً من طريقة تلفظه أنه كردي، بشيء من الخشونة، عما أخفيه داخل الكيس، فقلت له، بكردية متقنة إلى حد ما، إنها قارورات أنسولين لمرضى السكري، وليست أصابع ديناميت، فارتخت

عضلات وجهه، وأشار إلى الحائط المحاذي للرصيف، طالباً مني أن أضع الكيس إلى جواره وأبرز له هويتي، ففعلت عن طيب خاطر. لكنه لم يكتفِ بذلك بل أمر شرطياً صغير السن بتفتيشي، وحين لم يعثر الشرطي، ذو الوجه المخطوف، ربما خشيةً من أن أكون حاملاً حزاماً ناسفاً، على شيء، عدا قارورة عطر في جيب سترتي، سحب نفساً عميقاً، وابتسم باسترخاء، وهرع إلى السيارة، فأخذ الضابط يستجوبني، بأسلوب هادئ هذه المرة، عن طبيعة عملي، ومن أين جئت، وإلى أين ذاهب، وهل أعرف خطورة السير مشياً وسط المدينة في مثل تلك الليلة؟ فأجبته على أسئلته باختصار شديد، فحثني على الإسراع في العودة إلى البيت، ولوّح لي بيده مودعاً. التقطت الكيس من الأرض، ودلفت إلى الزقاق الطويل الملتوي، لكني ما أن خطوت فيه بضع خطوات حتى سمعت دوي انفجار قوي، بدا لي أنه وقع في المنطقة المحصورة بين سوق أحمد آغا للخضار، وسوق (الهرج) للمواد المستعملة، حيث اتجهت سيارة الشرطة، فخمنت أنها أصيبت بعبوة ناسفة، أو صاروخ آر. بي. جي، وشعرت بحزن شديد يعتريني، ولا أدري لَمَ أخذت أترنم بـــ «أبريل أقسى الشهور...»، وظلّت ابتسامة الشرطي الشاب ماثلةً أمام عيني، ولم أنتبه، إلاّ في

نهاية الزقاق، إلى اختفاء أصوات الأغاني، ولعلعة الفضائيات من داخل البيوت، رغم أن التيار الكهربائي لم ينقطع عنها بعد!

انتهى بي الزقاق، مرةً أخرى، إلى شارع شاطرلو الرئيسي، وقبل أن أضع قدمي عليه اخترق سكونه زعيق سيارة إطفاء، مرقت من أمامي بسرعة فائقة صوب الشارع المؤدي إلى سوق أحمد آغا. نظرت إلى ساعتي فإذا بالوقت قد تجاوز الحادية عشرة والنصف، ثم مضيت في طريقي إلى البيت، حاثاً خطاي، ومتوجساً في آن واحد من أن أصادف سيارة شرطة ثانيةً، أو دوريةً أميركيةً لأنني سأواجه موقفاً صعباً جداً، أقله الاعتقال، فالاشتباه بأي مدني يسير في الشارع عقب حدوث عملية تفجير أمر مشروع، في عرفهم، إلى أبعد الحدود. حين بلغت الحي الذي نسكن فيه، من غير أن يلحق بي أذى، وجدت أن التيار الكهربائي قطع عنه، ورغم ذلك غمرني شعور كاسح بالطمأنينة، وزالت مخاوفي، فأشعلت سيجارةً، ورحت أدخنها بتلذذ، وأنا أتخيل أمي تجلس عند شباك غرفتي في الطابق العلوي، وقد أزاحت الستارة عنه، وتتطلع إلى رأس الشارع الفرعي المؤدي إلى بيتنا، منتظرةً عودتي بفارغ الصبر. وفجأةً رن هاتفي المتنقل لتخبرني بأنها عثرت على علبة الأنسولين المفقودة، وتلوم نفسها لأنها أخرجتها ظهر ذلك اليوم من البراد، وخبأتها عن بن

أختي الصغير الذي اعتاد أن يعبث بمحتويات البراد كلما زارنا مع أمه، فضحكت، ومازحتها مستعيراً عبارة عوضين الأثيرة «سامحك الله يا أمي.. لقد خاطرت أيما مخاطرة».

على مقربة من بيتنا لمحت سيارةً من نوع بيك آب مغطى حوضها، ينعكس ضوء القمر على زجاجتها الأمامية. كانت غريبةً لم أرها في شارعنا من قبل، فظننتها لأحد أقرباء جيراننا. لكن السيارة سرعان ما أضاءت مصابيحها، وتحركت صوبي ببطء، ثم توقفت على بعد خطوات قليلة عني، ونزل منها ثلاثة ملثمون يرتدون دشاديش رماديةً غامقةً، يحمل أحدهم بندقيةً ذات نصف أخمص، والثاني مسدساً، والثالث خرقة سوداء وحبلاً، وهجموا عليّ، من غير أن ينبسوا بكلمة، وجللوني بالخرقة، ولوى أحدهم عنقي، وكمّم فمي كي لا أصرخ، وانتزع الكيس من يدي، واستولى على هاتفي.. وخلال لحظات ألفيت نفسي مكتفاً بالحبل، وملقى كجثة في حوض السيارة.

سامر

يصغرني ساهر بأربعة عشر عاماً، وترتيبه الخامس في الأسرة. ولد في نفس اليوم الذي عبرت فيه القوات المصرية خط بارليف عام 1973، فأراد والدي أن يسميه أنور تيمناً باسم أنور السادات، وهو من الأسماء الشائعة في مدينتنا، خاصةً عند التركمان، لكن والدتي رفضت ذلك اعتقاداً منها بأن تسمية الوليد باسم رئيس دولة يخوض حرباً يُعد فألاً سيئاً، واستبدلته باسمه الحالي، تيمناً باسم خالي ساهر الذي استشهد في جنين عام 1948. حين غادرت كركوك كان ساهر يتهيأ لإنهاء دراسته الثانوية، ومن ثم الدخول إلى كلية الفنون لدراسة النحت الذي شغل اهتمامه منذ أن راح يعمل في ورشة والدي للنجارة، حيث بدأ أولاً بالحفر على الخشب، مأخوذاً بأعمال الفنان الفرنسي تورنال، فكان يرسم منظراً طبيعياً على لوح من خشب الزان، ثم يستخدم أزميله وعدته لإزالة الأجزاء المحيطة بتكويناته حتى يحصل على منظر بارز. وأخذ شيئاً فشيئاً ينحت أشكالاً مجسمةً من خشب الزيتون، ويصقلها ويطليها، مقلداً بعض المنحوتات الخشبية لمحمد غني حكمت، وإسماعيل فتاح الترك، اللذين

كان يحلم بالدراسة على أيديهما. ورغم حب والدي الاستثنائي له، كونه أصغر أبنائه، فإن هواية ساهر تلك لم تكن تحظى برضاه، وكثيراً ما كان يقول له «أليس من الأفضل أن تصنع خزانةً، أو كرسياً ننتفع منهما بدلاً من أن تضيّع وقتك في نحت هذه الأصنام؟» إلاّ أن كلام والدي كان يدخل إلى أذنه اليمنى ويخرج من اليسرى، متأثراً بتشجيعي له على المضي في تطوير موهبته.

كلما رأيت صورة ساهر التي حملتها في جيبي مع صور بقية أفراد أسرتي تذكرت مغامراته مع ماريّا، ابنة جارنا آيدنجيان، على سطح المنزل في قيظ الصيف، حينما يكون أهلها مستسلمين لقيلولة ما بعد الظهر. مرةً ضبطتهما متلاحمين تحت السقيفة التي نستخدمها لحفظ أفرشة النوم عن أشعة الشمس. لم يشعرا بوجودي قربهما على السطح، و لم أشأ أنا إفساد لقائهما المحموم، فانتظرت حتى ينتهيا لألقي عليهما نصائحي. كانا يلهثان من شدة الحر، ويبللهما العرق كأنهما خارجان من بطن حمام بخاري، لكن ظمأهما الجسدي جعلهما ينسيان الحر، ويعيشان في عالم ليس فيه متسع لثنائي مثلهما. حينما خرجا من تحت السقيفة، منتشيين، فوجئا بوجودي هناك، فشهقت ماريّا، وركضت مسرعةً صوب الدرج الحجري واختفت، أما ساهر فقد بدا عليه الارتباك، وسار أمامي مطأطئاً رأسه، وهو

يتمتم بعبارات الأسف، فلحقت به، وأمسكته من ذراعه، وقلت له أن لا داعي للارتباك لأنني لست ضد حريته ورغباته، وكل ما أحذره منه هو أن لا يتورط في المساس بعذرية البنت، وأن يتجنب اللقاء بها على سطح الدار، وذكرته بتعصب أهلها. من يومها لم يعد ساهر يخفي عني أي سر من أسراره، وصار يكتب لي وهو في الجامعة رسائل خطيرةً، ويبعثها مع من يثق بهم من أصدقائي، ومعارفي المسافرين إلى عمان، يعبر فيها عن تذمره واستيائه الشديد من الأوضاع في البلد. لكني كنت أخشى دائماً من وقوع إحدى تلك الرسائل في أيدي رجال الأمن على الحدود، فحذرته بأن يكف عن كتابة مثل تلك الرسائل، فأخذ بتحذيري، ودفن غضبه في صدره، وأصبح يخاطبني برسائل مختلفة يركز فيها على حياته الشخصية، وتقدمه في الدراسة والنحت، ويعرج في بعض منها إلى وصف المشهد الثقافي في بغداد، ونشاطات أصدقائي الأدباء والفنانين في كركوك، ونقْل تحياتهم لي. وكي يثبت أنه تخطى مرحلة التقليد في النحت جلب لي معه خلال زيارته لعمان برفقة والدتي، صيف عام 1993، منحوتةً تمثل امرأةً يحط على رقبتها طائر رخمة، ويشبك مخالبه على وجهها، وحملتها معي إلى كندا، واحتفظت بها في مكتبتي بالبيت عدة سنوات إلى أن رأتها روزا، وأعجبت بها، فأهديتها لها في

عيد ميلادها، فضمتها إلى مقتنياتها الثمينة، ووعدت بأنها ستقدم لي ذات يوم هديةً ثمينةً مقابل تلك المنحوتة، فهل كان تبرعها بثمن خمس لوحات من أعمالها لإنقاذ ساهر من أيدي خاطفيه هو تلك الهدية؟ ثمة إحساس في داخلي يقول غير ذلك..

كان أشد مايقلقني حينما وصلت عمان هو ما سمعته عن حوادث السطو على السيارت في الطريق بين نقطة الحدود العراقية وبغداد، وقد روى لي سائق من مدينتي قصصاً غريبةً حول قطاع الطرق، فخشيت من فقدان الفدية التي أحملها في جيبي، وقررت أن أسافر إلى تركيا، وأدخل منها براً إلى كركوك، فالطريق هناك أكثر أمناً، والمسافة أقرب، فضلاً عن إجادتي للغة الكردية، التي ستوفر لي، حتماً، مظلةً إضافيةً. ولمعت في رأسي، وأنا أقطع معبر الخابور الحدودي باتجاه بلدة زاخو، فكرة طلب مساعدة صديق قديم في كركوك يدعى برهان، كان برتبة رائد في الشرطة، وله محاولات في كتابة القصة والرواية، فلعله يستطيع أن يحرر أخي دون دفع الفدية. اتصلت به في نفس الليلة التي وصلت فيها إلى أهلي، فعلمت منه أنه أصبح عقيداً، يدير شرطة الطوارئ في المدينة. سألني إن كان أحد غير أسرتي قد علم بوصولي، فطمأنته بأنني تعمدت القدوم ليلاً لئلا يراني أحد، وأبلغتهم بأن يخفوا السر عن أقرب الناس إلينا، فوعدني،

بعد أن زوده أخي إبراهيم ببعض المعلومات عن عملية الاختطاف، بأنه سيضع خطةً تتحسب لاحتمالات عديدة قد يلجأ إليها الخاطفون للحصول على الفدية، دون أن تتاح لحاملها فرصة لخداعهم، أو إيقاعهم في كمين.

سألتني أختي سلوى في اليوم الثاني لوصولي:

– من أين هبطت علينا هذه البلية؟

قلت:

– أنتجتها الحماقات القاتلة التي أضاعت البلد..

– أخشى أن يأتي يوم تضطر فيه النساء إلى حجر أنفسهن في البيوت مثلما اضطر كثير منهن إلى ارتداء الحجاب.. تصور أن ناشطات نسويات يدافعن عن حرية المرأة يرتدينه الآن.. أليست هذه مهزلة؟

– المهزلة الأكبر أن نبدأ من نقطة الصفر في مواجهة الخراب.

– الخراب هنا أهون مقارنةً بما يحدث في البصرة أو في العمارة.

– أعرف تماماً ما يحدث هناك..

رشيدة

قبل تعرّفه إلى دلشاد كان يشار نادراً ما يخرج من البيت ليلاً ويتركني وحيدةً. أعرف أنه يعاشر امرأةً ما، لكنه يتهرب من الحديث عنها، وأنا لا ألحّ عليه بأن يفعل ذلك. لقد أضناني التفكير كثيراً وأنا أبحث عن حل يضمن سعادته، ويجنب علاقته بي من التصدع، فاهتديت أخيراً إلى هذا الحل المؤقت، رغم أنه يجرحني ويؤلمني أشد الألم، فألجأ إلى البكاء، وخاصةً حينما كان يقضي الليل بطوله عند دلشاد، قبل خطوبته، وعند ابن خالته الآن، ويتركني أتقلب في السرير، يعصرني الحزن، وأصارع الأرق، وأتخيل شكل المرأة التي ينام معها، وأرسم لها صوراً شتى، وأتساءل إن كان يغازلها، ويقبلها، ويداعب جسدها مثلما يفعل معي، أم يتجنب ذلك إكراماً لي، ويكتفي بمضاجعتها؟ بعد إصابتي بالمرض اضطررت إلى ممارسة الحب معه كما تمارسه فتاة عذراء مع حبيبها، ورغم أن كلينا كان يحقق مبتغاه في نهاية المطاف، فقد سئم يشار من تلك الطريقة بعد بضعة أشهر، وأخذ يصارحني بأنها لم تعد تروي غليله، وشبهها مرةً بحكاية ملاّك بخيل مع راعي غنمه، تروي أن أحد الملاّكين أرسل ابنته، ذات

يوم، إلى راعي غنمه الجديد، حاملةً رغيف خبز جاف، وباقة فجل، وجرة ماء، ووصيةً بأن يأكل، ويشرب حتى يشبع، بشرط أن لا يمس شيئاً مما حملته! فغضب الراعي، ونقّع رغيف الخبز بالماء، وأكله مع الفجل، ثم شرب الجرة وكسرها، واغتصب البنت، وامتطى حماره، وهرب.

سألت يشار:

– وأنت ماذا تنوي أن تفعل؟

قال:

– لا أدري.. ابحثي لي أنت عن حل.

وها هو الحل الذي وجدته له يدميني مثل شفرة حادة، فأخفي جرحي عنه كما أخفيت جرحي الأول عن أبي، وأنا في الثانية عشرة من عمري. لكن ما وجه الشبه بين هذا وذاك؟ أهو شجاعتي في كتم أسرار معاناتي عن أقرب اثنين إلى نفسي، أم لأنني في كلتا الحالين مخلوقة هشة، تتذرع بالصبر، ولا تقوى على البوح بالحقيقة؟ لا أدري بالفعل إن كانت شجاعةً أم ضعفاً.. كل ما أشعر به أنني كنت مرغمةً على خيارين كلاهما يرتبط بكوني أنثى..

تعلقي بأبي في صغري كان أكثر من تعلقي بأمي، ولذا لم يكن بمقدوري أن أخفي عنه شيئاً. كنت أحكي له تفاصيل مملةً عما أفعله

في المدرسة والحارة، وأنقل له كل صغيرة وكبيرة أسمعها من الجيران، وهو يصغي إليّ بمحبة نادرة، ويناقشني أحياناً بأسلوب صبي في عمري، وبحكمة الأب الوقور الحريص على تربية ابنته الوحيدة أحياناً أخرى، في حين كانت أمي تعنفني على ذلك، وتقول لي إن طباعي أقرب إلى طباع الأولاد منها إلى طباع البنات، ولولا تحذيرها لي لما ترددت في إخبار أبي بظهور علامات البلوغ في جسدي حينما كنت في الحادية عشرة..

يوم أعادوني من مركز الأمن إلى البيت مستباحة الجسد، بعد ما يزيد على شهر من الاحتجاز والاغتصاب الوحشي، بتهمة مساعدة والدي في توزيع منشورات معادية، خلال الأحداث الاجتماعية التي عاشتها خنيفرة شتاء عام 1984، قالت لي أمي «أبوك لا يزال معتقلاً.. وسيموت في زنزانته إذا علم بما فعلوه بك.. اكتمي هذا السر عنه إلى الأبد». انصعت إلى أمرها، وحبست السر في صدري ثلاثة عشر عاماً إلى أن كشفته ليشار عندما توثقت علاقتي به، وبدأنا نخطط للزواج. كان رد فعله في البداية أقرب إلى الصدمة، إلاّ أنه سرعان ما تفهم الموقف، وقرر أن نعجّل في عقد قراننا ونغادر خنيفرة إلى مكان بعيد لا نرى فيه وجه واحد من أولئك الكلاب الذين اغتصبوني.

كلما أتذكرهم يقشعر بدني، وتكاد أحشائي تخرج من جوفي. في البدء جرني أحدهم من شعري، وقال لي بصوت مخيف كأنه زئير حيوان مفترس:

– إن لم تعترفي سأجعل من شرجك أوسع من فمك.

لكني لم أفهم قصده، فقلت:

– والله أنا لم أر هذه الأشياء التي تسألني عنها..

فصفعني على وجهي، ودفعني إلى الحائط، ووضع ركبته بين فخذي وأخذ يضغط بها، ومدّ يده إلى صدري وقرصني من حلمتي، وأنا أصرخ من الألم وشدة الرعب، ثم فتح سحاب بنطلونه، وأخرج ذكَره، وسألني:

– وهذه الشكولاتة يا صغيرتي ألم ترَيها أيضاً؟

أغمضت عينيّ من الخجل وقلت:

– أرجوك يا عمي.. أنا مثل ابنتك..

إلاّ أنه بدلاً من أن يتأثر بكلامي، ويغير تعامله الفاحش معي دسّ ذكَره في فمي، وزمجر:

– لو كنت متزوجاً لما أنجبت عاهرةً مثلك.. هيا مصي الشكولاتة.....

وراح يهز جسده إلى الأمام وإلى الخلف، ويداه تمسكان برأسي بقوة، فكدت أختنق، وشعرت أن معدتي ترتفع إلى حلقي، وخارت قواي، فهبطت على الأرض لأفلت نفسي منه، وانتابتني قشعريرة، وسرت في أطرافي برودة مفاجئة، كأن جسدي مدفون تحت كومة من الثلج، فشبكت يديّ على رأسي، وتكورت على جنبي. لكن الوحش لم يأبه لي، وظن أنني أتظاهر، فجثا خلف رأسي، وأخذ يسوط رقبتي وأذني بذكَره، ثم سحب يدي بعنف، ووضعه في راحتي، وقال:

– هذه الحركات اعتدت عليها يا صغيرتي.. هيا داعبيها.. إنها شكولاتة لذيذة، ولا تتركيها حتى يسيل حليبها على وجهك الطري..

لم يكفَّ الحقير عني إلى أن أتى ظهره، ولطخني بقذارته.. وليته اكتفى بفعلته الدنيئة تلك، بل أمر اثنين من رجاله أن يرمياني في الزنزانة رقم (15)، ويؤديا واجبهما. «الزنزانة! ما معنى هذه الكلمة؟».. أول مرة أسمع بها، قلت ربما تكون قاعةً فسيحةً مخصصةً لحبس البنات في مثل سني، فأمّلت نفسي بأنني سأكون هناك بمأمن عما فعله بي، وقد أجد بين البنات بعض صديقاتي.. «لكن ماذا قصد بطلبه منهما أن يؤديا واجبهما؟»، تساءلت مع نفسي، وقلت ببراءة

صبية في الثانية عشرة «ربما حثهما على الاعتناء بي، أو إطعامي لئلا أشكوه إلى أبي..»، لكن الرجلين أمسكا بي من ذراعيّ، وقاداني إلى الحمام أولاً لأغتسل، ثم أخذاني إلى حجرة ضيقة من غير نوافذ، ذات باب معدني سميك، وجدران ملطخة بكتابات وخربشات لم أفهم شيئاً منها، وهي خالية من أي أثاث، يتدلى من سقفها مصباح باهت الضوء، فسألتهما:

– هل ستتركاني هنا؟ ألم يقل لكما رئيسكما خذاها إلى الزنزانة؟

فقهقه أحدهما، وضربني على مؤخرتي بكفه، وقال:

– وكيف تخيّلتِ شكل الزنزانة يا عروس؟ جناحاً ملكياً في فندق فخم؟

– كلا.. أنا لا أعرف حتى كيف يكون هذا.. ظننت الزنزانة قاعةً كبيرةً فيها بنات كثيرات.

التفت الرجل إلى صاحبه، وقال:

– يا لبراءتها!.. لا علم لها بالمنشورات، ولا تعرف شكل الزنزانة!

ثم سألني:

– كم عمرك؟

– اثنتا عشرة سنة.

أجبته بسرعة، متوهمةً أن صغر سني سيشفع لي، لكنه أغلق الباب فجأةً، وشدّ على أذني:

– لماذا تكذبين يا بنت؟ عمرك ليس أقل من خمس عشرة.. وسيدنا محمد نكح عائشة وهي أصغر منك..

– وحق مولاي بويا عمر(*) لا أكذب.

– حسناً سنجرب.. اخلعي ملابسك.

– لماذا؟

صرخ في وجهي، وهو ينتزع سترتي وكنزتي بشراسة، ويلقيهما على الأرض:

– تسألينني لماذا يا بنت امزيان الكلب؟ ستعرفين الآن..

وآتى على بقية ملابسي قطعةً فقطعة حتى عراني تماماً، فشرعت أبكي وأتوسل إليه، لكنه خلع بنطاله، وأدار ظهري إليه، وأمرني أن لا أولول، وأجلسني في حضنه عنوةً، وبدأ يشمشم شعري، ويلحس رقبتي وشحمتي أذنيّ، وأنا أواصل البكاء بصوت مخنوق، يملؤني الرعب، وشعرت بلهاثه يجلدني، وأنفاسه الساخنة تلسعني، فحاولت أن أفلت منه، إلاّ أنه أحكم قبضتيه على ذراعي وشدني إليه، ومدّ

(*) بويا عمر: هو عمر بن عبد العزيز بن رحال الكوش، أشهر أولياء المغرب على الإطلاق، إذ يناهز عدد زوار ضريحه المليون زائر سنوياً.

يده إلى دبري وأخذ يغتصبني بإصبعه أولاً، ثم بذكَره.. ولما انتهى أسلمني للآخر جسداً منتهكاً يفتك به الألم... وخلال خمسة أسابيع، وربما أكثر، كنت أتعرض للاغتصاب مرتين في اليوم مع كل وجبة غداء وعشاء حتى كرهتهما نفسي..

بقيت، بعد خروجي من المعتقل، سنينَ طويلةً أخشى من الوقوف في مكان عام يفصل ظهري فيه فراغ عن الحائط ، وأتحسس من أي رجل يقف خلفي حتى لو كان على بعد أمتار عني، لذا كنت ألوذ بأي حائط، أو سور، أو حاجز لأحتمي به.. وحين تزوجت يشار مكثت نحو سنتين أتحاشى النوم على بطني، أو إدارة ظهري إليه. وكثيراً ما كنت أستيقظ من نومي فزعةً كلما امتدت يده إلى ردفيّ وهو يحلم، أو مستغرق في النوم..

سامر

بعد يومين أخبرني العقيد برهان بأنه رسم خطةً محكمةً تقتضي بأن لا أكون أنا حامل الفدية، بل مفوض في الشرطة يعتمد عليه، وطلب من إبراهيم أن يخبر الخاطفين، حينما يتصلون للاستفسار عني، بأن الفدية جاهزة، وسيقوم بإيصالها إليهم أحد أقربائنا. قبل انتهاء المدة المحددة بيوم واحد رنّ هاتف البيت فحمله إبراهيم. كان المتحدث على الطرف الآخر امرأة تسأل عني، فأجابها:

– بقي في الأردن وأرسل الأمانة مع ابن عمي.

قالت:

– نفّذ ما أقوله لك إذاً، وإياك أن تبلغ أحداً وإلاّ فإننا سنقتل أخاك ونرمي جثته للكلاب.

– هاتِ ما عندك.

– ضع المبلغ في كيس من الخيش، ودع ابن عمك يذهب إلى الشارع المؤدي إلى محطة القطار، ويبدأ بعد اجتياز المحطة بالتدقيق في الجهة اليمنى من الشارع، سيجد علامة كف باللون الأحمر على صخرة قد تبعد عشرة أمتار أو ثلاثة كيلو مترات، قل له أن يرمي

الكيس في حفرة تقع على الجهة اليمنى أيضاً من الصخرة، ويعود أدراجه، دون أن يلتفت إلى الوراء، لأننا سنتابع كل حركاته، وبعد ساعتين يكون أخوك قد وصل إلى البيت، مفهوم؟

– مفهوم.

اتصلت فوراً بصديقي العقيد، ونقلت له ما دار بين إبراهيم والمرأة، ففاجأني بأن المكالمة قد سجلت عندهم، وعرفوا رقم الهاتف الذي اتصلت منه المرأة وعنوانها، وسيبدأون بتنفيذ الخطة، وأكد لي بأنه متفائل مائة بالمائة من نجاحها إذا لم يحدث طارئ لا سمح الله. ورغم قلقي الشديد أخبرته بأنني سأمنح نصف مبلغ الفدية مكافأةً للمشاركين في العملية، فقال لي إن ذلك سيزيد من حماستهم لإنجاحها.

كان الوقت قبيل الغروب بساعتين، والأسرة كلها مجتمعةً في البيت يأكلها الخوف والانتظار، وخاصةً أمي التي ارتفع ضغط دمها، وشرعت تبكي بصوت مكتوم، فأشعلت سيجارةً، وأخذت أدخنها بصمت، ماسحاً بظاهر يدي عرقاً لزجاً سال على صدغيّ، ودهمني فجأةً إحساس بالندم، وتمنيت لو أنني ما عرضت المشكلة على العقيد، واكتفيت بمنح الفدية لهؤلاء السفلة لأضمن إطلاق سراح أخي، متجنباً المشاكل، لكنّ الندم ما عاد ينفع وخطة العقيد ماضية

في طريق التنفيذ. لم أتحمل بكاء أمي الذي آلمني، فخرجت إلى حديقة المنزل الخلفية المسورة بجدران عالية مشققة، وجلست على الأريكة المعدنية المتحركة، ورحت أتأمل الأشجار التي تركتها يافعةً قبل ثلاثة عشر عاماً. لقد استطالت، وفرضت هيمنتها على الحديقة، ونفضت أوراقها الصفراء على العشب المتيبس من شحة الماء. وبعد بضع دقائق حام فوقها غراب أبقع، وكاد يحطّ على واحدة منها، إلاّ أنني نهضت بسرعة، والتقطت قضيباً صدئاً، وأخذت ألوّح به حتى ابتعد عن المنزل. تذكرت حديث عشتار عن الغرابين اللذين رأتهما يوم احتلال بغداد، وفي أثناء سفري إلى أورايي. أشعلت سيجارةً ثانيةً، وعدت إلى الجلوس على الأريكة، ودفعت الأرض بقدمي فصارت تتأرجح كالمهد، وسرحت بي مخيلتي إلى العملية التي سيقوم بها رجال العقيد، لكن صوت إبراهيم، الذي فتح نافذة المطبخ ونادى باسمي، قطع جريان العملية في مخيلتي عند تلك اللقطة. قال لي أخي:

– عقيد برهان على الهاتف يريد أن يكلمك.. أسرع.

نظرت إلى ساعتي، وأنا أدلف إلى البيت، فإذا بي قد أمضيت في الحديقة وقتاً يزيد عن ساعة.

– أبشرك بنجاح نصف الخطة.. ألقى كميننا القبض على ثلاثة من أفراد العصابة وهم يهمّون بأخذ الكيس من الحفرة. آمل يا عزيزي أن نشرب الليلة نخب حرية أخيك.

فسألته، وأنا لا أزال تحت تأثير شريط مخيلتي:

– هل قلت ثلاثة؟

– نعم.. نعم.. كانوا يستقلون سيارة حمل من غير لوحات.. تصور حتى سيارتهم مسروقة.. أولاد الكلب.

– إنجاز عظيم.. لكن الأهم من ذلك هو النصف الثاني من الخطة.. أعني تحرير ساهر..

– اطمئن.. ثمة خطوة تالية يقوم بها الآن الكمين نفسه، وإذا نجحت فلن تحتاج مفرزة الاقتحام إلى تحريره بالقوة.

«لكن كيف؟».

تساءلت مع نفسي بعد أن أقفلت الخط، إلاّ أنني عجزت عن الوصول إلى أي جواب، وخاصةً حينما تذكرت ما صورته لي مخيلتي من عملية إخفاء اثنين من أفراد العصابة لساهر موثقاً في صندوق السيارة..

«بيد أن هذه العملية كلها محض افتراض نسجته مخيلتي، وقد تكون في الواقع مختلفةً مائةً بالمائة.. ينبغي أن أنتزعها من رأسي وأنتظر».

كان وقع مكالمة العقيد إيجابياً إلى حد ما في نفوس أفراد الأسرة، فقد كفكفت أمي دموعها، وذهبت سلوى إلى المطبخ لتعد لنا الشاي، وأخذ أبناء أختي الفقيدة يتبادلون الحديث مع خالهم إبراهيم، بعد أن كانوا واجمين يعتصرهم القلق. أما أنا فرجعت إلى الحديقة، وطفقت أذرعها جيئةً وذهاباً، وأوزع نظراتي بين أسطح المنازل المجاورة، ورؤوس الأشجار، وأسراب الزرازير التي تقوم بين حين وآخر باستعراض جوي مثير، ورحت أقارن بين هذه الطيور، التي افتقدت رؤيتها منذ سنين طويلة، والنوارس التي تحلق في مجموعات صغيرة فوق ضفاف نهر أوتاوا، وتهبط إلى الأرض فجأةً لتتنازع بشراسة، وزعيق متواصل على فُتات الخبز التي يلقيها طفل، أو شابة رائقة المزاج؛ نزاع يكشف بمنتهى الوضوح عن استحواذ الكائن القوي على كل شيء، سواء من أجل البقاء أو من أجل التخمة. ورغم أن الزرازير لا تسلك مثل هذا السلوك، فإنها عرضة للاصطياد على يد الإنسان هنا، في حين يحظر القانون هناك اصطياد النوارس، أو ترويعها حتى لو اختطفت طعامها من بين يد الإنسان. «يا لها من كلمة مقرفة.. الاختطاف.. إنها تبعث في النفس ذات الأثر الموخز الذي تبعثه كلمات مثل: الاغتصاب.. الانتهاك.. الاحتلال.. الابتزاز.. في ما مضى كنا نسمع بحوادث اختطاف الطائرات في

الجو، والجنود في ميادين الحرب، ونقرأ في التاريخ عن اختطاف النساء، والخيول، أما الآن فصرنا نشهد عمليات اختطاف الرجال والصبايا والأطفال لابتزاز الأموال من أهلهم.. فهل ثمة أفعال أكثر خسة من هذه؟ أهكذا يُستغل الانفلات الأمني في البلد؟ ما ذنب ساهر في كل ما جرى قبل الاحتلال وبعده؟ حتى السياسة التي كانت تشغل حيزاً ضئيلاً من اهتماماته في مطلع شبابه أصبح يمقتها، ويترفع عنها منذ أن بدأ حسه الجمالي ينزع إلى المسائل المطلقة والتجريدية في الفن... لماذا لم تتحسب أميركا لحدوث مثل هذه الظواهر قبل أن تشن الحرب؟ هل خططت لمرحلة ما بعد الاحتلال، وماذا خططت؟ إن الفراغ الأمني الذي أعقب احتلالها تتحمل وحدها مسؤوليته، ها قد مضت سنة كاملة فأين هي الحرية التي وعدت بجلبها لنا؟ هل ألوم الآن ناتالي على قولها إن المارينز لم يدخلوا بغداد حاملين مشعل الحرية، ولم تذهب أميركا إلى العراق كي ترضع شعبه من ثديها المدرار بالحليب المجاني، بل لتهبه صندوق باندورا المشؤوم؟».

نادتني سلوى فجأةً فهرعتُ إلى داخل البيت. كان العقيد يطلبني على الهاتف مرةً أخرى، قال لي مهنئاً بنبرة واثقة:

– مبروك صديقي.. استعدوا لاستقبال أخيك..

فقلت مندهشاً:

- صحيح؟ هل حررتموه؟

- لا.. بل سيطلقون سراحه بأنفسهم.

- كيف؟

- إنه النصف الثاني من الخطة..

وأخذ العقيد برهان يروي لي بأن الكمين حين ألقى القبض على الأشخاص الذين جاؤوا لأخذ كيس النقود وجد عند أحدهم هاتفاً محمولاً، فأرغمه على الاتصال بالمنزل الذي ترهن العصابة فيه أخي ساهر، وإعلامها بأن النقود في حوزته، ويجب إطلاق الرهينة، فأجاب الشخص الذي رد على المكالمة بأنه سيطلق سراحها حسب الطريقة المتفق عليها. لكني استغربت وقلت له كما لو أنني أحدث نفسي:

- يا إلهي.. لقد جرى كل شيء عكس ما تخيلته؟

فضحك وقال:

- وفّر ما تخيلته لكتابة عمل روائي.. المهم اسمع.. سيقتادون ساهراً معصوب العينين بسيارة، ويخلون سبيله في مكان مهجور.. لا تسألني كيف عرفنا ذلك.. وقد أمرت بعض أفراد المفرزة المكَلّفة

بتطويق منزل الخاطفين الانسحاب فوراً من الموقع، والتوجه إلى ذلك المكان المهجور..

– لكن ذهاب المفرزة إلى هناك قد يسبب مشكلةً..

– اطمئن.. سيكون أخوك في مكتبي خلال أقل من نصف ساعة، وبعد أخذ أقواله سيصلكم برفقتي..

إلاّ أنني لم أكن قادراً على تحمل الانتظار فقلت له:

– بل سآتي إليك..

غمرت السعادة أهلي فجأةً، وأطلقت أمي، لا إرادياً، زغرودةً مجلجلةً، ورفعت يديها إلى السماء شاكرةً الله على استجابته لدعواتها.

خرجنا، أنا وأمي وإبراهيم، على عجل، وتركنا للباقين مهمة نحر ذبيحة كنا اشتريناها، وتهيئة مستلزمات حفلة صغيرة. سألني إبراهيم إن كنت راغباً في قيادة سيارته، فقلت له «إنني متلهف لرؤية المدينة». لقد وصلتها ليلاً، ولم أكن أدري أي إحساس سينتابني حينما أجلّ إلى قلبها في مثل تلك الساعة التي أدمنت فيها طوال خمسة عشر عاماً على الذهاب إلى شارعها النابض بالحيوية، شارع الجمهورية، حيث ألتقي أصدقائي في كازينو (النصر)، أو في مكتبة (الطليعة)، التي تحولت فيما بعد إلى محل لبيع الأحذية بعد سجن

صاحبها (كاكه جبار)، المكنى بـــ (أبي ئاسو). «يالهفي على أيام السبعينيات.. لقد اقتنيت خلالها نصف مكتبتي من كاكا جبار بأقساط شهرية حين كنت طالباً مهووساً بكتب الأدب والفلسفة والفن». طلبت من إبراهيم أن يقود سيارته عبر ذلك الشارع نفسه، فنظر إليّ نظرةً ذات مغزى، وقال «أتظن أنك ستجد الشارع ذاته الذي انطبعت صورته في ذاكرتك؟»، ولم يكن بوسعي أن أجيبه بنعم أو بلا، فبقيت صامتاً مثل من في حلقه شوكة.

روزا

لم أترك عشتار فريسةً لهواجسها وكآبتها، منذ سفر سامر إلى أهله، بل أخذت أتردد عليها يومياً، رغم مشاغلي، وأقضي معها بضع ساعات في البيت، أو أصحبها مع سميرميس وسومر لتناول وجبة خفيفة في مطعم، أو لزيارة متحف، أو لمشاهدة فيلم جديد لعلي أخفف بعضاً من قلقها. ودعوتها مرةً واحدةً إلى بيتنا لتجرب أكلة الملفوف التي تعدها أمي على الطريقة البغدادية. وحين نقلت لي نبأ تحرر ساهر من قبضة خاطفيه تملكني مثلها فرح طاغٍ، وشعرت بزوال همّ كبير كان يجثم على صدري كصخرة ثقيلة، فاتصلت بسامر فوراً وهنأته، وأخبرته بأنني أخبئ له مفاجأةً سيفرح بها كثيراً، ولن أبوح بها إلاّ لحظة استقبالي له في المطار. ورغم إلحاحه عليّ بأن أكشف ولو خيطاً واحداً منها، فقد رفضت، متحججةً بأن نسيجها من الدقة والتعالق بحيث لا يحتمل استلال أي خيط منها.

قبل عدة أيام فقط خطوت أول خطوة لإنجاز مشروع كان يختمر في ذهني منذ مدة طويلة.. غاليري للفنون يحمل اسم (أرابخا)، تيمناً بأسماء روايات سامر، الذي سيديره بجدارة تفوق جدارته في إدارة

متجر الملابس النسائية، ويرمي مهنة بيع التنانير وحمالات الصدر في القمامة. ليس من المعقول أن يتقاضى كاتب مثله نصف ما يتقاضاه يشار الحلاق شهرياً، مبدداً وقته وطاقته في عمل استهلاكي هو أصلح لفتاة تفهم في أعاصير الموضة النسائية أضعاف ما يفهمه رجل مهموم بأعاصير السرد، وتقلبات الفنون، وعواصف النقد. استأجرت صالةً كبيرةً وسط المدينة، بعد مساومات مضنية مع مالكها الذي كان ينوي تأجيرها إلى صاحب السوبر ماركت الملاصق لها لتحويلها إلى متجر لبيع الطيور والحيوانات الأليفة. كان ذلك المالك، ذو الأصل الشرق آسيوي، رجلاً فضاً يقدّس المال أكثر من بوذا، ويعتقد جازماً أن وجود كلب أو قطة في البيت أفضل ألف مرة من تعليق لوحة صماء على جدار، وخاصةً إذا كانت من النوع الحديث الذي لا يفهم معنى خربشاتها حتى الرسام نفسه! ولولا موقع الصالة المثالي، وإصراري على عدم التفريط بها لأخذت معي كلب جارتي الأبلق الضخم، وأقنعته بأن يشخ على رأسه. لحظتها كتمت انزعاجي، وقلت له:

– دعك مما تعتقد به أنت.. الناس أحرار في ما يتذوقون ويفضلون.. أنا أدفع لك شهرياً خمسمائة دولار زيادةً على ما يدفعه منافسي.

فانتزع نظارته القديمة، التي يزيد حجمها ثلاثة أضعاف سعة عينيه الثعلبيتين، وحك أرنبة أنفه بسبابته، وقال بوقاحة:

– أمهليني بضعة أيام.. سأسأله إن كان يوافق على دفع المبلغ الذي تدفعينه، فمهما يكن هو أولى منك إذا تعادلتما.. والسوق أحوج إلى القطط والكلاب من اللوحات أو التماثيل..

بعد أربعة أيام اتصل بي المالك طالباً أن أجعل الزيادة سبعمائة، فتمسكت بموقفي، ولم أضف سنتاً واحداً. لكن جشعه وسوس في صدره، فطلب مهلةً أخرى امتدت هذه المرة إلى أسبوعين، وكنت قلقةً من أن يجد مؤجراً آخر يدفع له أكثر مني، فذهبت إليه في مكتبه، دون موعد، فلم أجده. قالت لي سكرتيرته، وهي شمطاء تشبه غولدا مائير إلى حد بعيد، إنه في رحلة عمل إلى تايلاند، ولن يعود إلاّ بعد ثلاثة أسابيع، فشتمته في داخلي وغادرت. انقضت المدة، ولم أسمع صوته، فاتصلت به، وأنا أغلي غضباً، فردت عليّ شمطاؤه بصوتها الذي يرنّ في الأذن كأنه صوت طبل، وأخبرتني بأنه مدّد رحلته أسبوعاً آخر ليحضر طقساً خاصاً يقام لبوذا هناك استذكاراً لتحطيم تماثيله في أفغانستان، فقررت حالاً أن أشتري كتاباً عن البوذية لأعرف موقفها من الكذب والجشع، فهالني ما وجدت فيه، ولمت نفسي على جهلي بالديانات الشرقية. لقد اكتشفت أن

لبوذا اسم آخر هو (سدهارتا)، ذكرني باسم رواية لكاتب ألماني لم أقرأها، وهذا هو سادس ستة كلهم يدعون بوذا (سكها بوذا، بسا بوذا، يسها بوذا، كوسنكا بوذا، كرنا كنا بوذا، وسبا بوذا)، فاختلط الأمر على المؤرخين، فذكروا هذا بدلاً من ذاك، وذاك بدلاً من هذا!

حين عاد المالك من رحلته صحبت معي دلشاد وخطيبته شيلان، اللذين أعلمتهما بالمشروع، فشجعاني كثيراً، من أجل سامر في الأقل، على إنجازه. كنت راغبةً في إطلاع سرجون عليه أيضاً، لكن خبراً صاعقاً نقله لي، حين هاتفته، جعلني أهمل الفكرة. قال لي بصوت مثقل بالحزن أن اثنين من أسرته قتلا في تفجير استهدف كنيستهم في بغداد، ثم انفعل وراح يتكلم بنقمة شديدة يغلفها التعصب.. ولم يكن بوسعي إلاّ أن أواسيه، وأحاول تهدئته وامتصاص نقمته، وتذكيره بأن الجميع هناك معرضون للقتل وليس المسيحيون فقط. إلاّ أنني أيقنت بعد نصف ساعة من الحديث معه أن ما يعتمل في داخله من غضب يحول دون سماعه أي صوت متعقّل.

كان أول ما حدثت به المالك هو الأصول العشرة للرهبان البوذيين التي يحرّم بعضها الكذب، فضحك، وقال، وهو يقدم لي عقد الإيجار لقراءته:

– من حسن الحظ أنني تاجر ولست راهباً..

ثم نهض من مقعده، وملأ لنفسه كوباً من القهوة، من غير أن يفكر من باب المجاملة، في دعوتنا، وأضاف:

– نسيت أن أعلمك من البداية بأن الإيجار لا يشمل خدمات التدفئة والكهرباء والماء، وهذه تكلفك مائتي دولار..

نظرت إليه باحتقار، وتمنيت لو أن حركة طالبان اختلط عليها الأمر، أيضاً، فحطمت رأسه بدلاً من تحطيم تماثيل بوذا العظيمة في باميان. لقد خدعني الخنزير الشره، فأصبحت الزيادة التي سأدفعها له سبعمائة دولار شهرياً، كما اشتهى، بدلاً من خمسمائة! التفتُ إلى دلشاد بنظرة استفهام، فهز رأسه بامتعاض، ففهمت منه أن لا حيلة لي مع هذا الجشع إلاّ الموافقة.

سيغتبط سامر جداً حينما يعلم بالمشروع.. ويسمعني ثانيةً قوله «فدتك يا روزا أعمار الموتورين..»، فأردّ عليه «هل تتذكر أنني وعدتك بتقديم هدية ثمينة مقابل منحوتة ساهر التي أهديتني إياها في عيد ميلادي؟ هذه هي الهدية.. من اليوم فصاعداً ستتقاضى مرتباً شهرياً يعادل ضِعفَي ما يتقاضاه أصدقاؤك». ولو كانت آنيا حيةً لكتبت في جريدتها مقالةً، أو ريبورتاجاً عن يوم الافتتاح، الذي سأدعو إليه حتى وزيرة الثقافة اليني باكوبانوس، عاشقة الفنون،

وأعرّف سامراً إليها، ليشكو لها كيف أهدر ثماني سنين من عمره في بيع التنانير وقمصان النوم، وأعاتبها أنا بمرارة لأن وزارتها لا تعتني بالمثقفين اللاجئين من أمثاله إلى كندا، بل تتركهم ضائعين في مهن تشلّ مواهبهم، وتستنزف قدراتهم الذهنية. وسأذهب أبعد من ذلك وأقول لها إنّ منحهم وثيقة المواطنة ليس منةً من الحكومة، فهي بحاجة إليهم لأنّ سياسة الدولة، أساساً، تشجع على هجرة الكفاءات، فلماذا يتساوون في فرص العمل مع من لا يمتلكون أدنى مؤهل علمي وثقافي؟ سأرمي حجراً ثقيلاً في هذه البركة حتى يصل ماؤها إلى مقاعد أعضاء البرلمان الذي تحتل هي أحد مقاعده، وتبتل أحذيتهم وجواربهم الأنيقة.

هكذا أنا.. أتذكر آنيا كلما تعلق الأمر بسامر.. لقد كانت تدعي بأنها تحبه بالفعل، وتتألم بعمق إذا ما رأته يتلوى من ألم كُليته، أو يعصف به الشوق إلى أهله، لكني كنت أشك في ذلك، وأصارحها بأنها تؤدي الأنوثة من خلال علاقتها به حتى تتجنب القلق، وتنسى عقاب شاهين لها وتنكره لهويتها الأنثوية، فترد عليّ بأن أفكاري نسوية عتيقة ذات جذور فرويدية، وتتظاهر بكونها ما بعد نسوية، ولا تؤمن بوجود خط فاصل بين الأنوثة الأصلية والتظاهر، وتحتفي بالهوية النوعية والاختلاف بين الجنسين، وتريد أن

تظل امرأةً كما هي لا كما أرغمها شاهين على أداء الذكورة المثلية. و لم تخفِ عني شيئاً مما جرى بينها وبين سامر في رحلتهما إلى جزيرة الهنود. اعترفت لي بأدق التفاصيل، وكأنها تكتب روايةً تدور أحداثها في بضعة أيام.. وكشفت لي أسراراً لم يعرف بها سامر حتى الآن.. قالت إنها هي التي تعمدت حجز غرفة واحدة في الفندق ليقيما فيها معاً بحجة عدم وجود غرف أخرى شاغرة، وإنها كانت متأكدةً من موت العجوز التي ذهبا إلى الجزيرة بحثاً عنها، لكنها أرادت أن تمضي وقتاً أطول معه! كما خططت لأن يلحق بها إلى ألمانيا متعللةً بأنها لا تعرف صديقه، وقد يطمع بها إذا ما عقد قرانه عليها لأنها ستصبح زوجةً رسميةً له، إلاّ أنها فشلت في تنفيذ الخطة بسبب تأزم سامر إثر عودتهما من الجزيرة. وقبل سفرته إلى هاليفاكس مع أصدقائه ذهبت إليه في مكان عمله، وفاجأته بأنها تحمل في أحشائها جنيناً منه، فطار صوابه، وتوسل إليها أن تجهضه، وتعمل المستحيل من أجل أن لا يصل الخبر إلى عشتار. وكانت راغبةً في اللحاق به إلى هاليفاكس، بعدما علمت بسفره، فسألتني إن كنت أعرف اسم الفندق الذي يقيم فيه، فأجبتها بالنفي. وحتى لو كنت أعرف اسمه لما أطلعتها عليه لأنها كانت ستسبب له إحراجاً كبيراً أمام أصدقائه. ويوم أبلغت سامراً بمقتلها طمأنته بأنها أجهضت

الجنين قبيل ساعات من وفاتها، لكنه لم يعلّق على الأمر، فأدركت أنه كان محاطاً بأصدقائه في تلك اللحظة.

يا لها من فتاة شقية، نصحتها مرات عديدةً بأن تعلقها الجنوني به، وخاصةً عقب رحلتهما إلى الجزيرة، أمر غير مقبول، وعليها أن تنسى ما فعلاه هناك، وتعدّها نزوةً عابرةً، وتكتفي مثلي بما يربطها به من صداقة إنسانية عميقة. لكنها كانت أسيرةً لعواطفها ورغباتها المتأججة تجاهه، فلا تتردد في الاعتراف بأنه يعادل عشرة شباب في حرارته ورومانسيته وخبرته الجنسية، وقد منحها متعةً كانت تفتقدها طوال علاقتها الملتبسة بشاهين النذل. في إحدى المرات قلت لها، وقد ضقت ذرعاً من تكرار مسوغاتها في الانجذاب إلى سامر:

– مادمت تفضلين رجلاً ناضجاً، فليس أسهل من أن ترتبطي بواحد غير متزوج في مثل عمره.

فقالت بثقة ممزوجةً بعناد:

– لكن ليس مثله في عنفوانه وروعته..

ذات يوم أسرني سامر، ونحن خارجون من المقبرة، حيث دفنت آنيا إلى جانب أخيها جون، بأنها زارته ثلاث مرات في البوتيك بعد لقائنا في متجر الكحول، ولم تخبره بأنها حامل منه إلاّ في الزيارة الأخيرة، فهددها بأنه سيغادر كندا إلى الأبد إن لم تتخلص من

الجنين، وليلة وصوله إلى هاليفاكس بعثت له، من خلال الهاتف المحمول، بضع رسائل تعبّر له فيها عن استحالة استغنائها عنه، وتشكو من استمرار شاهين في مضايقتها، فحذفها كلها، و لم يرد إلاّ على واحدة منها فقط.

لقد تركت ديدان الأرض جسد العزيزة آنيا محض عظام، بينما شاهين لايزال طليقاً مختفياً، رغم مرور نحو عام على ارتكاب جريمته الفظيعة. من يدري.. ربما تسلل إلى أميركا، ومنها إلى المكسيك لينضم إلى إحدى عصابات المافيا أو الخطف. كنتُ الوحيدة التي ائتمنتني على سرّ خضوعها، أكثر من سنتين، لذلك الحقير، وحاولت أن أساعدها بشتى الطرق لتتخلص منه فلم أستطع، وكانت هي تبذل كل جهدها لتنتزع منه الدليل الذي يدينها، ويساومها به حتى استطاعت أخيراً أن تظفر به، لكنها خسرت للأسف حياتها بسبب ذلك، في حين كان هدفها الحفاظ عليها مما يهددها. في نفس الليلة التي انتزعت فيها الدليل منه وهربت، بعد أن وضعت له مخدراً في كأسه، أيقظتني من نومي، وهي على أشد ما تكون من الارتباك الممزوج بالفرح، لتقول لي:

– لقد نجحت ياروزا! أخيراً ها هو شريط الفيديو بين يدي.. أرجوك انتظريني أمام الباب.. أكاد لا أسيطر على نفسي..

نزلنا إلى الطابق السفلي، وأدخلت الشريط في جهاز الفيديو، فبدأت لقطاته تتوالى بأسلوب محبوك وكأننا أمام فيلم روائي لمخرج محترف. إلاّ أنني أيقنت، عقب مشاهدة الشريط، بأنه لا يعدو كونه خدعةً مونتاجيةً مدبرةً انطلت على آنيا. وقد حصلتُ عليه من أمها، بعد مقتلها، وقدمته للشرطة، فأكد تقريرها أنه بالفعل خدعة.

الراوي

لماذا وقع الاختيار عليّ أنا بالذات لأروي النهاية، وقد كنت مغيباً طوال الوقت؟

هل لأن جميعهم رفضوا.. إبراهيم.. سلوى.. ساهر.. العقيد برهان.. وهم الأكثر التصاقاً بما جرى، منكفئين على أنفسهم التي يعصرها الحزن، وتنهشها الفاجعة؟

لكنني لست أقل حزناً منهم، ولا قلبي من حجر..

أليس من العدل أن يقاسموني هذه المهمة الشاقة؟

قلت للعقيد برهان، مستفزاً إياه:

– لقد أدى افتراضك بأن الخاطفين سيخلون سبيل ساهر في مكان منعزل إلى نتيجة مأساوية.

فرمقني بنظرات غاضبة، وقال:

– افتراضي أنا؟ لم يكن افتراضاً يا سيد.. بل ذلك ما سمعته شخصياً من المكالمة الهاتفية المسجلة عندنا..

– وبعد؟

– وبعد؟ حدث ما حدث.. كانا شخصين، كما قال ساهر.. غيرا وجهتهما، وأخليا سبيله على مقربة من بيته، وفرّا بسيارتهما.. تركاه هكذا دونما قيد، فتمكن من إزالة الخرقة التي عصبا بها عينيه، واتصلت بنا أخته فور دخوله إلى البيت.. وكان سامر قد وصل إلى مكتبي لحظتها، فأمرت أفراد المفرزة، الذين كانوا ينتظرون في مخبأ قريب إلى المكان المعزول، بالعودة إلى موقعهم السابق لأن الخاطفَين سيرجعان حتماً إلى البيت، وهما واثقَين من أن شركاءهما الذين أخذوا كيس النقود قد وصلوا...

– لكنهما لم يرجعا إلى البيت..

– حسناً.. لقد حدث ما لم يكن في الحسبان يا سيد.. كانت ثمة امرأة في بيت العصابة، ويبدو أنها سمعت صوتاً على السطح، فطلبت من ابنها أن يستطلع الأمر، وحين صعد الولد فجأةً وقع بصره على رجالي الأربعة الكامنين هناك، فصاح منبهاً أمه إلى وجودهم..

– يا له من ابن سفاح!

– واكتشفنا فيما بعد أن البيت المجاور تعود ملكيته إلى العصابة أيضاً، وأنهم عملوا باباً يوصل بين قبوي البيتين، فاستغلته هذه العاهرة للانتقال إلى البيت الثاني، واتصلت منه بالهاتف الذي كان

يحمله الخاطفان، بعدما أخليا سبيل ساهر، وأبلغتهما بوجود الكمين على السطح.. وهكذا فلتا من قبضة رجالي..

لم أسأل العقيد عن مصير المرأة، وطبيعة علاقتها بالعصابة لأن ذلك بات يعرفه معظم أهل المدينة، فهي غجرية كانت تقيم في الزبير، وهربت برفقة الولد الذي ادعت بأنه ابنها، وأختها الصغرى عند اشتداد القصف في بداية الحرب، ولجأت إلى ذلك البيت الذي تربطها علاقة سابقة بأصحابه، وهم ثلاثة أخوة جاؤوا من بلدة حدودية في الجنوب، مستفيدين من امتيازات كانت تمنحها الحكومة لمن يرغب في الاستيطان في المدينة، فاتخذوا الغجرية وأختها عشيقتين مشتركتين لهم، وكان قد سبقهم في القدوم اثنان من أبناء عمهم، وهما اللذان يقيمان في البيت المجاور، والشريكان معهم في العصابة، وكان أحدهم، كما قال إبراهيم، معلماً يعرف سامراً منذ منتصف الثمانينيات، فقد كانا يتدربان معاً على السلاح في فصيل خاص بالمعلمين خلال عطلة الصيف، تحسباً لهجوم إيراني مليوني مرتقب في السنة السادسة للحرب. وذات يوم حدثت مشكلة بين سامر وذلك المعلم، فتعرّض هذا الأخير بسببها إلى عقوبة مزدوجة، وظل حاقداً على سامر، يتحيّن الفرصة للانتقام منه. وبينما كانت عشتار تعيد قراءة يوميات زوجها توقفت عند هذا الجزء منها:

«العاشر من يوليو عام 1986.

أشعر بأنني خرجت اليوم من مأزق كاد يعرضني إلى مصيبة، وتعود خيوطه إلى بضعة أيام خلت. كنت عائداً مع فصيلي من تدريب شاق تحت شمس منتصف الصيف الحارقة إلى قاعة الاستراحة لتناول وجبة الغداء (القصعة)، فمررت في طريقي من جانب آمر المعسكر الذي يحلو له أن يتبختر في مثل ذلك الوقت بعصاه المصقولة، وبزته العسكرية المرقطة، وكان المتدربون يطلقون عليه لقب (الأعور) لإصابته في الحرب بشظية أطفأت إحدى عينيه، وأحالته إلى التقاعد، لكن الويل لمن تسوّل له نفسه أن يذكر ذلك اللقب أمام أسماع العسس. كان يضع دائماً نظارات سوداء قاتمةً على عينيه لإخفائهما. أديت له التحية العسكرية، شأني شأن الآخرين، فاستوقفني قائلاً:

– هل صحيح أنك صحفي؟

كان يشاع عني في المعسكر أنني صحفي لكوني كاتباً أنشر مقالات في الصحف، فقلت:

– أنا كاتب ولست صحفياً سيدي..

– لا فرق.. مادمت تنشر في الصحف فأنت صحفي..

– كما تشاء سيدي..

– لماذا لا تكتب ريبورتاجاً عن المعسكر وتنشره؟ من الضروري أن تطّلع القيادة إعلامياً على الجهود التي نبذلها لإعدادكم للمعركة الحاسمة التي سنكسر فيها ظهر العدو..

تمنيت لو كان بمقدوري أن أقول له «بل إنك كسرت ظهورنا أولاً، طمعاً في نيل المزيد من أنواط الشجاعة والنياشين، رغم أنهم أتخموك بها يا حضرة اللواء الأعور»، لكن قولاً كهذا كان سيلقيني في التهلكة، فأجبته:

– سأحاول سيدي..

مضيت إلى القاعة، وأنا أفكر بطريقة أتخلص بها من هذه المهمة التي أمقتها، واستقر تفكيري على تكليف صديق لي يعمل محرراً في مجلة أسبوعية حكومية للقيام بذلك. وكان أحد المعلمين، يدعى ماهود سلمان، قد سمع ما دار بيني وبين آمر المعسكر، فأدرك أنني غير راغب في إنجاز المهمة، فاقترب إليّ فور دخولي إلى القاعة التي تفوح منها روائح كريهة تنبعث من بساطير المتدربين، وأخذ يكلمني بتملق، ويمطرني بوابل من المديح المبالغ به، ظناً منه أن نفسي ستطرب له، فشعرت بالامتعاض، وشكرته بجفاء واضح لا يخطئه حتى البليد، لكنه ابتلع امتعاضي، وفاجأني بتوسله أن أكتب التحقيق الصحفي، وأنشره باسمه، اعتقاداً منه بأن ذلك سيمنحه حظوةً عند

الآمر، فيعفيه من التدريب المسائي الذي لا يطيقه! وحينما رفضت الاستجابة له أراد أن يرشيني بقنينتي ويسكي كان يخفيهما في حقيبته، فنهرته بشدة، وحذرته من الحديث معي مرةً ثانيةً حول ذلك الموضوع. ولحسن الحظ أن مدرساً في فصيلي اسمه صالح، تربطني به علاقة زمالة قديمة، كان يصغي إلينا، دون أن ينتبه إليه ماهود، فنفعتني شهادته لاحقاً. لم أكن أتوقع مطلقاً أن ذلك الوضيع ماهود سيناصبني العداء، ويخطط بخبث للإيقاع بي، ففي ظهيرة هذا اليوم استدعاني ضابط الاستخبارات في المعسكر إلى مكتبه، وسحب من درجه كتيباً باللغة الفارسية يحمل عنوان (مضرات موسيقى)، أي أضرار الموسيقى، وعلى غلافه الثاني صورة للخميني، وسألني إن كنت رأيت ذلك الكتيب سابقاً، فأجبته بالنفي، فقال، وهو يكشر تكشيرةً مصطنعةً، إنه وجده في حقيبتي. ورغم الصدمة التي انتابتني ظننته، أول وهلة، أنه يمزح معي، أو يساومني لكتابة التحقيق الصحفي الذي طالبني به الآمر. قلت:

– سيدي أنت تعرفني.. فهل يعقل أن أحمل مثل هذا الكتاب؟

– تقصد أنك كاتب علماني وتعشق الموسيقى؟

– طبعاً.. واهتماماتي معروفة.. كتب الأدب والفن والفلسفة..

– وهذا الكتاب؟ ألا تعتقد أنه يعبر عن موقف فلسفي؟

- ربما.. لكني لا أتفق معه على الإطلاق..
- كيف عثرتُ عليه في حقيبتك إذاً؟
- لا أدري.. ربما وضعه أحدهم للإيقاع بي..
- هل تشكّ في شخص معين؟

فكرت قليلاً، فلم يخطر إلى ذهني إلاّ المعلم ماهود، ورويت لضابط الاستخبارات ما حدث بيني وبينه قبل بضعة أيام، فأخرج سجلاً أسود، وبدأ يتفحصه، فاستوقفته إحدى صفحاته، وأخذ يدقق في محتوياتها، ثم هزّ رأسه وأخبرني بأنه سيستجوبه، وسألني إن كان ثمة شاهد على الواقعة، فذكرت له اسم المدرس صالح. وحين تجمع فصيلي في ميدان التدريب قبيل المساء تخلّف كلاهما عن الحضور، فأيقنت بأنهما قد استدعيا للتحقيق. وبعد انتهاء التدريب بنحو ساعة أعلمني الضابط بأن ماهود اعترف في أول صفعة بدس الكتاب في حقيبتي، وسينال عقوبةً شديدةً على ثلاثة جرائم ارتكبها، فتنفست الصعداء لنجاتي اليوم من مأزق كارثي..».

واصلت عشتار قراءتها لأجزاء أخرى من يوميات سامر، بعد ذلك التاريخ، بحثاً عن معلومات حول ذلك المعلم، فلم تعثر إلاّ على هذه الأسطر القليلة:

«الخامس والعشرون من يوليو عام 1986.

علمت اليوم أن المعلم ماهود سلمان، الذي دسّ كتاب (مضرات موسيقى) في حقيبتي قبل أسبوعين، قد حُكم عليه بالسجن ثمانية أعوام، وطرده من الوظيفة، فحزنت عليه، وتمنيت لو أنني ما كنت طرفاً في ما لحق به من أذى.. يا له من حكم قاسٍ جداً..».

كان ساهر قد سمع قبل سنين بعيدة بقصة ماهود، وظل الاسم عالقاً في ذهنه، فتفاجأ في اليوم التالي لاختطافه بأن زعيم العصابة ليس إلاّ ذلك المعلم المطرود نفسه، وهو أحد الشخصين اللذين عصبا عينيه ورمياه في الشارع، ثم اختفيا بعد اتصال الغجرية بهما. عرف ذلك من العقيد برهان، الذي استجوب أفراد العصابة المقبوض عليهم: الإخوة الثلاثة والغجرية وأختها، وانتزع منهم اعترافات كاملةً، بما فيها حقد ماهود سلمان الدفين على سامر منذ ثمانية عشر عاماً، ومحاولاته الفاشلة مرات عديدة سابقاً في الانتقام منه.

ألم يكن على سامر إذاً، والحال هذه، أن يحذر من ماهود، الذي صار مجرماً محترفاً في زمن الانفلات الأمني، وبات الدم يغلي في شرايينه إثر فشل جريمته، وهزيمته القاضية هذه المرة؟

قالت سلوى لعشتار، وهي الوحيدة التي واتتها الجرأة في إخبارها بالنبأ الفاجع، بصوت هدّه النحيب:

«كانت الأسرة كلها في وضع إنذار دائم طوال أسبوعين.. لقد حرّمنا عليه حتى الوقوف أمام باب الدار، أو الخروج إلى الحديقة. وحين ينام كان يضع مسدس إبراهيم تحت وسادته. أغلب أصدقائه الذين زاروه في البيت نصحوه بالسفر في أسرع وقت، إلاّ أنه كان يقول لهم «لم أشبع من رؤية أمي وأهلي بعد، أنا سجين محبتهم.. تصوروا أنهم حددوا لي حركتي داخل الصالة والغرف والحمّام فقط! إقامة جبرية وسط حنانهم الرائع الذي افتقدته ثلاثة عشر عاماً..». لكنّ ماهود النذل ارتدى هو وأخوه الخسيس زي الشرطة، وكمنا لسيارة إبراهيم حينما توقف عند إشارة المرور في نهاية الجسر، وهو في طريقه برفقة ساهر لإيصال سامر إلى محطة سيارات تركيا، وأطلق الجبانان عليها رصاصهما الغادر، وفرّا..

لِمَ لم أرافق إبراهيم وساهراً في توديعه يا عشتار؟.. كنت سأجعل من جسدي جداراً يصد نار الحقد والكراهية عنه.. يا إلهي.. لقد اغتال الأوباش كلّ أحلامنا.. قتلوا من كانت أظافر قدميه أسمى وأشرف من أرومتهم.. من أي مستنقع جلب لنا ابن الساقطة هؤلاء السفلة؟..».

أما ساهر فقد دخل إلى مشغله بعد انتهاء أيام العزاء، ووقف أمام الباب يصوّب نظراته بعينين محمرتين إلى منحوتاته الخشبية الموزعة

على الرفوف، فبدت له كأنها أشباح فاقدة الحركة، وسحب من بينها تمثالاً صغيراً لسامر، وقبّله من جبينه، ووضعه منتصباً على الطاولة، وتناول معولاً وتقدم بخطوات مضطربة، وأخذ يهشم به المنحوتات كمن أصابته هستيريا مباغتة. وحين انتهى من تحطيمها دهمته نوبة بكاء شديدة، فرمى المعول على الأرض، وجلس إلى الطاولة، ووضع تمثال سامر على صدره، وشبك ذراعيه عليه.. «ليت الرصاصات التي ثقبت رأسك يا أخي مالت إليّ.. ليت عينَي قاتِلك أصيبت بالعمى وهو يصوب عليك بندقيته.. ليت عاصفةً هوجاء اقتلعته ورمته في بحر الظلمات.. ليت صاعقةً أضرمت في جسده النار.. ليت الأرض خُسفت تحت قدميه وابتلعته.. ليت أصابعه شُلّت قبل أن يضغط على الزناد..»، ثم سحب ورقةً وكتب عليها:

«الآن وقد انتهى كل شيء يا عشتار..
عاد المعزون إلى بيوتهم، وأضاءوا أنوارها
إلاّ بيتكما الغارق في ظلمته..
وبيتنا الذي ينتظر قدومك، حزيناً، مجللاً بالسواد.
هل تمنيتِ لي الموت بدلاً منه؟
ذلك من حقك..
فأنا أتحمل الجزء الأكبر من الفاجعة..

لكنْ بمَ تريدين أن ألزم نفسي؟
أأصفح عنهم،
أم أجلّل بيوتهم، جميعاً، بالسواد..؟».

أوتاوا/ كندا
2006 -2003

شهادات

● فاجأتني رواية عواد علي هذه لأنها، إضافةً إلى رصـــدها الـــدقيق والرصين لكل ما جرى قبل الاحتلال وبعده، تقول إن العراق يعيش في ضمائر أهله، وإن عذاب المغتربين والمنفيين قد يكون قاســـياً إلى حدّ لا يصدق. كما أنها تقول إن العراقيين يتآخون في المحنة مـــن أي طائفة أو أي دين أو أي عرق كانوا.

هي رواية- شهادة عن عراق مقتول. وليس أمام الشـــرفاء مـــن أبنائه إلاّ التنديد بهذا القتل. هكذا بدا لنا مقتل سامر في عراق ما بعد الاحتلال، وليس قبله. وبهذه الرواية كسبنا روائياً جديداً شـــكلت روايته نموذجا لما يجب أن تكون عليه الرواية اليوم، خاصة العراقيـــة منها.

عبد الرحمن مجيد الربيعي

جريدة الشروق التونسية: نوفمبر 2008

جريدة القدس العربي: نوفمبر 2008

● لعل رواية "حليب المارينز" تُعدّ الأكثر شموليةً من بين الروايات التي قرأتها عن واقع العراق الراهن وماضيه القريب، لما حفلت به من أحداث امتدت إلى أقاصي جرح العراقيين بدءاً من الحرب العراقية الإيرانية، مروراً بحرب الخليج الثانية في العام 1991، وما تلاها من نكبات، وصولاً إلى سقوط النظام ودخول قوات الاحتلال إلى العراق.

لقد نجح الكاتب كثيراً في طرح وجهات النظر من زوايا متعددة، مانحاً شخصياته مساحةً واسعةً من التعبير ليقولوا كلمتهم رغم كثرة الشخصيات.. ونجح أيضاً في رسم صورةً بانوراميةً لتاريخ العراق القريب، الذي شابَهُ الكثير من التشويه والتعتيم بسبب كثرة الولاءات والانتماءات العرقية.

تلك هي "حليب المارينز"، الرواية المهمة التي تؤرخ لأصعب مرحلة مرّ ويمرّ بها العراق، وهي جديرة بالقراءة، وتُعدّ إضافةً نوعيةً للأدب العراقي والعربي.

هدية حسين

جريدة الرأي الأردنية: مارس 2088

● يمكن القول إن رواية حليب المارينز رواية كابوسية تتناغم مع الواقع الذي جاء به الاحتلال الأمريكي للعراق. إنها ليست رواية

الحلم الذي تحول إلى كابوس كما كتب عنها، فقد بدأت بربيع ينعب فيه الغراب، وانتهت بالاختطاف والقتل. لكن في هذا الكابوس أملاً في التغيير وحلماً بالتحرير.

د. محمد عبد الله القواسمة

جريدة الدستور الأردنية: يوليو 2008

● استطاع الكاتب أن يقدم روايته بلغة سردية واقعية وسهلة فيها الكثير من الوضوح، و لم يدغمها بالدلالات والتأويلات، حتى في اتخاذ مسار ملحمة كلكامش لإعادة صياغتها حديثاً، إلاّ أنه حافظ على حس إنساني، متناولاً وقائع حياة النخبة من المثقفين (شعراء، كتاب، وفنانين) ومدى ارتباطهم بالوطن والحنين إليه مع اختلاف وجهات نظرهم وحيرتهم.

مؤيد داود البصام

جريدة الزمان: أغسطس 2008

● هذه الرؤية التي حملها الروائي عوّاد علي للقارئ، نمت عن قدرة عالية للحس الإنساني، الذي يكشف لنا عمق العلاقات الإنسانية وتناقضاتها، خاصةً إذا كانت الدلالة لهذا المفهوم دلالةً تاريخيةً، وكأن التاريخ هنا يتناغم مع الواقع المعيش.

سليم النجار

جريدة الرأي الأردنية: أبريل 2008

● في رواية (حليب المارينز)، استطاع عواد علي أن يجمع كل ألوان الطيف العراقي في علاقات إنسانية حميمة تتخطى حواجز العِرق والدين والمذهب، وفي علاقات أخرى مع الآخر تتم بنديّة وتكافؤ واحترام متبادل.

الرواية في مجملها تسجيل أدبي بالغ العذوبة للوقائع العراقية منذ أن وطئت أقدام المارينز أرض بلاد الرافدين، دون أن تسقط في فخ المباشرة والتقرير والخطابية الزاعقة، وبتوازن منضبط بين حجم التسجيل والدراما في النص، الذي تمكن من الإبحار بعيداً عن الغرق في بحور تسجيل الوقائع العراقية، يمكن أن يحوله إلى مجرد تاريخ موثق بلغة أدبية، او أن يجنح- فقط- إلى فن جميل فقير في مضمونه وخطابه. ونجح الكاتب باستمرار في إحداث هذا التوازن الدقيق الذي حقق انسجاماً كبيراً بين الشكل والمضمون، وضمن لإبداعه تأثيراً عقلياً ووجدانياً قوياً لدى المتلقي.

شوقي حافظ

جريدة الوطن العُمانية: مارس 2008

● في حليب المارينز يقدم الروائي العراقي عواد علي رواية جديدة تصنّف بامتياز ضمن أدب الشتات والتيه، بعيداً عن الوطن الذي تحول إلى كيان فسيفسائي في تشظي الهوية، وليس تنوعها كما كانت الحال سابقاً.

سامح المحاريق

جريدة الرأي الأردنية: يناير 2009

● من رؤية المثقف العائد قسراً تنفتح الرواية، وتتفحص تداعيات الاحتلال، وما تركه من أذى نفسي في المجتمع العراقي، انعكس في سلوكيات الكثيرين، الذين تحولوا أطيافاً تتناهبها شعارات المرحلة الجديدة، في تشابك وجهات النظر عبر سرد متعاقب لشخصيات الرواية، وتعاقب أصواتها الموزعة بين العراق وكندا.

وارد بدر السالم

جريدة البيان الإماراتية: 2008

● رواية مقام الرعب! تلك هي الخاصية الكبري لرواية (حليب المارينز)، وأظنه الحليب الذي يندلق في أمكنة مختلفة من العراق وخارج العراق حتى اللحظة، فالامبريالية التي شاء لها قدرها الكوني، الأرضي الخاص أن تفتت العالم على إيقاع انتشارات القوة السافحة

فيها، ترافقت معها ثقافتها، مبشّرةً بعلامة القوة هذه، رغم التشديد على أن العولمة حالة تطهير للامبريالية مما هي عليه، والرواية تشـــهد على هذا التطهير المزعوم، وحليب المارينز يعرّف بذلك هنا وهناك. إنه الفيلم السينمائي الذي ينتظر من ينقله إلى الشاشة، تلـــك الـــتي تشمل أكثر من جهة حولنا!

إبراهيم محمود

جريدة الزمان: يناير 2009

● الروائي عواد علي فُجع مثلنا، سواء هو نفسه أو الشخص الروائي، في رواية (حليب المارينز- 2008) بصورة الوطن الحقيقي بعد الاحتلال، وكان قد حلم مثلنا أيضاً بوطن متخيّل بعد سنوات في المنفى الكندي، ومن (أوتاوا) كان يتابع مثل الشخص الروائي (لا أميل الى كلمة البطل) تفاصيل الزلزال بعد الاحتلال، ومشاهد سقوط التمثال، لكنه حين يعود إلى الوطن يجده قد تحول إلى كابوس.

حمزة الحسن

موقع كتابات الإلكتروني: سبتمبر 2009

صدر للمؤلف

1- المألوف واللامألوف في المسرح العراقي: دار الشؤون الثقافية/ بغداد 1988.

2- معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) بالاشتراك مع آخرين: المركز الثقافي العربي/ بيروت- الدار البيضاء 1990.

3- شفرات الجسد (جدلية الحضور والغياب في المسرح): دار أزمنة/ عمّان 1996.

4- غواية المتخيّل المسرحي: المركز الثقافي العربي 1997.

5- عبد الوهاب البياتي: المعراج الأرضي- دراسة ومختارات (بالاشتراك مع محمد تركي النصار): دار العلم للملايين/ بيروت 1998.

6- عبد الوهاب البياتي: نهر المجرة- دراسة ومختارات (بالاشتراك مع محمد تركي النصار): هيئة قصور الثقافة/ القاهرة 1998.

7- دراسات في الرواية العربية (بالاشتراك مع آخرين): المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت 1998.

8- المعرفة والعقاب (قراءات في الخطاب المسرحي العربي): المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت 2001 .

9- التجنيس وبلاغة الصورة (بالاشتراك مع آخرين): دار ورد للنشر والتوزيع/ عمّان 2007.

10- حليب المارينز: (رواية) ط1/ دار فضاءات للنشر والتوزيع/ عمّان 2008.

11- الحضور المرئي: المسرح من التحريم إلى ما بعد الحداثة/ دار المدى 2008.

12- المسرح واستراتيجية التلقي: دائرة الثقافة والاعلام/ الشارقة 2008.

13- نخلة الواشنطونيا: (رواية) ط1/ دار فضاءات للنشر والتوزيع/ عمّان 2009.